

الرواية اليوم

الألف
كتاب
الشاف

١٩٨



اعداد وتقديم : مالكوم براذبرى

ترجمة : أحمد عمر شاهين



الهيئة المصرية العامة للكتاب

الرواية اليوم

الألف كتاب الثاني

الإشراف العام

د. سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

مدير التحرير

أحمد صليحة

سكرتير التحرير

عزت عبدالعزيز

الإخراج الفني

علياء أبو شادي

الرواية اليوم

إعداد وتقديم
مالكوم براد بيري

ترجمة
أحمد عمر شاهين



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٦

هذه هي الترجمة العربية الكاملة لكتاب :

The Novel Today

Edited By : Malcolm Bradbury

Fontana/collins G. Britain 1978

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٧
فى مواجهة الجذب	٢١
كتابة الرواية الأمريكية	٢٩
الرواية كبحت	٤٣
ملاحظات حول الرواية الأمريكية المعاصرة	٤٨
أدب الاستنزاف	٦٤
الروائى فى مفترق الطرق	٧٧
بيت الرواية	١٠١
ملاحظات حول رواية لم تنته بعد	١٢٣
ألست صغيرا على كتابة مذكراتك	١٣٦
مقدمة المفكرة الذهبية	١٥٠
واستنفذت شهرزاد حبكها واستمرت فى الحديث	٦٦٤

مقدمة

« بدأت أكتب الرواية مفترضا أن أعداءها الحقيقيين : الحكمة ، الشخصية ، المكان والزمان ، والموضوع ، وأنه إذا ابتعدت عن هذه الطرق المألوفة في السرد الروائي ، فلن يتبقى سوى الرؤية الكلية والتركيب الروائي .
ولذا ، فإن ما يقبع في ثورة اهتمامي ككاتب ، وبالدرجة الأولى هو الترابط اللغوي والنفسي للعمل »

جون هوكس John Hawkes
(١٩٦٥)



« السرد الروائي - يعني اذن - العودة الى نوع من الخيال أكثر حرفية ، أو أكثر خيالية ، أعني بهذا أن يكون السرد أقل واقعية وأكثر فنية : أكثر تناسقا ، أكثر تحريكا للعواطف ، أكثر اهتماما بالأفكار والمثاليات ، وأقل اهتماما بالأشياء »

روبرت سكولز Robert Scholes
١٩٦٧



« ان استخدام كلمات مثل : « مادي أو محسوس » أو « فصول » يشعرني بالفعل أنني روائي ، بمعنى أنني انسان يخلق تتابعا زمنيا ثابتا بالكلمات .
يا لصعوبة ذلك !

ويا له من أمر يبعث على النفور !

الفرد انديرش Alfred Andersch
(١٩٦٧)



هذه مجموعة دراسات كتبها بعض من أهم النقاد والروائيين المعاصرين ، من أمريكا وأوروبا ، بدوا لي أنهم كتبوها بنهن متفتح ومتعاطف حول الوضع الروائي الآن ، بالاضافة الى بضع مقابلات مع روائيين معاصرين حول وضع الرواية اليوم .

وهي دراسات متنوعة ، كما هو متوقع ، من عدد كبير من الروائيين ذوي ميول شتى وأعمار مختلفة وبلدان متنوعة ، ولكن اذا نظرنا الى ما قالوه جميعا فانا نجد أنهم يقدمون جدلا تقديريا مهما وآسرا حول ما وصلت اليه الرواية وما ثار حولها في السنوات الأخيرة . نحن نعيش في عصر أضحت فيه الرواية ، بشكل لافت للنظر ، أكثر قلبيا وقلقا ونساؤلا حول ذاتها ، مما كانت عليه قبل سنوات قليلة . ولو تفحصنا الرواية المعاصرة ، لوجدنا أن كثيرا من الأسئلة حول طبيعة السرد ومقوماته الأساسية - دور الحكمة والقصة وطبيعة الشخصية ، والعلاقة بين الواقعية والخيال أو الأسطورة - قد أصبحت في مقدمة الأشياء المثيرة للانتباه . وفي الواقع . فان الأفكار حول ماهية الرواية أو ما يجب أن تكون عليه ، قد تغيرت بشكل ملحوظ في السنوات الأخيرة ، بحيث يمكننا القول باطمئنان ، ان تغيرا جماليا وفنيا قد حدث ، وان هناك اشارات تقول ان عهدا جديدا ومتميزا للأسلوب قد بدأ .

يحدث هذا ، في الرواية ، بين حين آخر ، كجزء من عملية استمرار التيار الروائي وتطوره . وهكذا ، فان الجدل الحالي حول الرواية ، بزغم قوته ، فانه ليس أصيلا . فمعظم التساؤلات والمقولات المطروقة الآن ، تعود في الأصل الى نشأة الرواية كشكل في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، حين نمت وتطورت كنوع متميز ومؤسسة اجتماعية محترمة ذات معنى . هذه التساؤلات تتعلق بظواهر محورية نشأت منذ زمن ، بين ميل الرواية ونزعتها الطبيعية نحو الواقعية والتوثيق الاجتماعي وعلاقتها بالأحداث والحركات التاريخية ، وبين ميلها نحو تغير الشكل ، وطبيعة الخيال ، والارتداد لفحص ذاتها الروائية . وقد اشتهرت الرواية ، دائما ، بشيئين :

أولهما ساذج نسبي ، وهي أنها وسيلة للتعبير عن سرورنا بالقصة وبهجتنا بمعرفة الواقع الاجتماعي بلغة أدبية نتكلمها ونكتبها ، والثاني بكونها ابتكارا لفظيا معقدا ، يظهر فيه غموض السرد وتعقيد التركيب ، وتجربة صنع قواعد للتجربة ، وحيرة خلق احساس بالحقيقة من الزيف .

وقد تنافست الشهرة ، وتعاشرت معا ، وساعدتا على جعل الرواية.

بالشكل المتميز التي هي عليه : شكل منغمس في التاريخ ، مهتم جدا بالاحتجاج ، مع ميل رئيسي لمساءلة الذات ومراجعتها بين حين وآخر .

وقد كان جانب من هذا المفهوم ، يسود في فترة ما وينوه به ، بينما يسود الجانب الآخر في فترة أخرى ، لكن عملية التذبذب هذه أصبحت أكثر حدة في قرننا الحالي ، ويمكننا أن نحدد فترتين كمفتاحين لهذه العملية في العصر الحديث : بداية القرن ، ومنذ انتهاء الحرب العالمية الثانية .

وقد كتب هنري جيمس في كتابه « مستقبل الرواية ١٨٩٩ » ، يقول : « لقد وصلت الرواية الى وعى ذاتها متأخرة ، ولكنها بذلت كل ما في جهدا منذ ذلك الحين لتعويض الفرص الضائعة » . ولقد رأى جيمس أن هناك شقا ينمو بين الوظائف الشعبية للرواية وبين وظيفتها الفنية ، وأحس بتغيرات كبيرة ، ستعطي الفرصة للرواية كي تصبح أكثر تمثيلا لذاتها . وقد حدث بالفعل ، في السنوات التالية وحتى عشرينات هذا القرن إعادة نظر كبيرة للرواية ، أسميناها : الحداثة . وقد كان ذلك ادراكا ، بشكل ما ، للامكانية الشعرية والرمزية للعمل الروائي ، ولكنه كان أيضا نوعا من المأساة . فالروائي الحديث قد فقد شيئا ما من ايمان القرن التاسع عشر بالواقعية ، من التسلسل والتتابع المنطقي للعمل الروائي ، من التطور الطبيعي للعلاقة بين الأفراد وبين تقدمهم الاجتماعي والأخلاقي ، وهكذا ، في عالم أصبحت فيه هذه العلاقات الأساسية وقتية ، فقد اتجهت الرواية لداخلها لتتفحص ليس فقط منابع الرمزية والأسطورية للخيال الروائي ، ولكن تعقيدات وقلق الوعي الابداعي ، وزاوية الرؤية ووجهة النظر وقواعد تقديم العمل الروائي ، وغاصت عميقا في فيضان الوعي الفردي والجماعي ، ببنائاته المتغير للعلاقات ، وزمنه المتبدل ، كما نظرت الى عالم خارجي أقل صلابة وواقعية ، الى تاريخ فوضوي ، ونظام اجتماعي مضطرب ، ولذا ركزت ونوهت بالعلاقات الغامضة للحياة الداخلية والخارجية . وبهذا أصبحت متطابقة مع فلسفة جديدة ، وعلم نفس جديد ، واقتناع جديد بتعدد وكثرة وجهات النظر المختلفة التي تصوغ احساسنا بالتجربة وبالواقع .

ان الرواية بهذا المعنى ، تصبح بالنسبة لهنري جيمس ولكنير من الروائيين ، الشكل الرئيسي الحديث ، كلما اهتمت أكثر بقلق عملية الخلق ، ومشاكل الكتابة الروائية في عالم كهذا .

وكانت الرواية ما أن تموت حتى تولد من جديد ، وما كانت تحتاجه ، كما أكد جيمس ، هو نوعا جديدا من الخيال الشعري ، وفهما جديدا لطريقة

تنفيذ هذا الخيال روائيا . وقد كان هذا في البداية ، مشكلة الروائيين وقضيتهم بالدرجة الأكبر ، وقد حاول جيمس أن يقدم الكثير بنفسه في هذا المجال وذلك في مقدماته العظيمة لرواياته وفي مقالاته ، ولم يحدث الا بعد الحرب العالمية الثانية أن بدأ النقد يمنح الرواية الأهمية والمركزية التي دعا اليها جيمس . ومنذ ذلك الحين وحتى الآن بدت الرواية فعلا ، وكأنها أصبحت المثل الأدبي الأعلى في مجال النقد ، مزيحة القصيدة والى مدى أقل المسرحية كنموذج للتجربة الأدبية .

بدا ، في ذلك الوقت ، ان كثيرا من زخم الحركة الحديثة قد استنفد، فشهدت سنوات ما بعد الحرب احياء الرواية الواقعية والليبرالية، والكتاب الذين ظهروا بعد ١٩٤٥ هم روائيونا المعبرون عنا ، وبالتالي فان تطورهم مرتبط بتطورنا وبتاريخنا المعاصر بدرجة كبيرة . وأبدت الرواية في هذا التاريخ كل المؤشرات التي تؤكد امكاناتها الواقعية ، واهتمامها الأخلاقي والاجتماعي واحساسها بالحياة كتطور وتقدم الى الأفضل ، ولقد استوعبت دروس كبار الروائيين أمثال ديستوفيسكي وتوماس مان وجيمس جويس ومارسيل بروست وروبرت موزيل وكافكا وفوكنر وفرجينيا وولف وغيرهم ، لكنها استوعبت وهضمت وتمثلت ثانية على شكل روايات ذات روح واقعية نسبية ، وظل السؤال المعرفي والفني غائما لم يجر التأكيد عليه بشكل قوى ، كانت الرواية هي كتاب الحياة وجوهر التجربة . ولكن ما أن بدأت تنتعش الآمال التاريخية والتحررية للخمسينات والستينات حتى بدأ المزاج يتغير ثانية . وبدأ التساؤل المعرفي والشكلى يفرضان نفسيهما على الرواية ، وبدأت طريقة كثير من روائيين بعد الحرب تتغير ، وأصبحت بعض المقومات الأساسية للحدثاة ذات معنى مرة ثانية ، خاصة الميل نحو السخرية ، والاصرار على أن الفن تزيف ، والتركيز على الأبعاد السريالية والأسطورية . وتأكدت ثانية قابلية التاريخ للتشويه والتزييف ، وادرك الروائي المشكلة التي تعترضه في خلق الشخصية القوية الصلبة ، في عالم تتعرض فيه الانسانية للتهديد ، ويحتاج المرء لمعونة الكثيرين ليقوم بدوره ، كما لاقت فكرة الرواية الواقعية تحديا كبيرا، وقام بعض الكتاب الواعين بذاتهم ، بتطوير الصفة المرجعية للرواية بشكل منظم ، فاستخدموا صيغة الريبورتاج (التحقيق الصحفي) والتوثيق والأسلوب الصحفي ، كما في الروايات غير الخيالية ، كما قام البعض بالتأكيد على البعد الواحد للشخصية ، وتسطيع الحكمة بتقليد أشكال القص الشعبي ، أو ابتداء القصة الفنية الخالصة ذات المعيار الشكلي (Technetronic) ، أو الاصرار على كتابة نص وهمي مراوغ ، بتوظيف راو مهيمن يؤكد حقيقة قصته ، سواء أكان مختفيا وراء النص ، أم يظهر

بين حين وآخر في تخف واضح كلاعب أو متعهد أو وكيل أعمال ، عارضنا الكذبة التي ابتدعها ، والخيال الذي عرضه .

على كل حال ، فإن المحور الواقعي للرواية مال الى الاختفاء ، وفقد النص الثابت ثباته ، ودعى القارئ لقراءة الرواية بطرق روائية . ولقد بدأ ظهور هذه التطورات على نطاق العالم ، وبمنفس ايفاعها المشوش ، حتى في انجلترا ، حيث كان التراث الواقعي الليبرالي راسخا بشكل واضح ، فإن عواقب هذا التغير كانت صارخة .

وفي الواقع ، فإن المرء يلاحظ في هذه الفترة ، افتنانا متزايدا بفكرة الرواية ، عند الروائيين والنقاد على السواء ، وهذا أحد أسباب زيادة الجدل حولها . ففي النقد - كما سبق أن أشرت - كانت الرواية قد تخلصت من المفهوم الذي كان سائدا بأنها شكل أدبي حقير ومدع ، وبدأت تلقى اهتماما كبيرا ، فانتشرت الكتابات حول نظرية وتاريخ الرواية ، والسرد الروائي ، وفي الأربعينات والخمسينات من هذا القرن . بدأت الدراسات الجديدة تظهر بالفعل ، فقرأنا كتاب « التراث العظيم » من تأليف F.R. leavis سنة ١٩٤٨ ، وكتاب نشأة الرواية من تأليف Ian Watt سنة ١٩٥٧ ، وتوازي ذلك مع اهتمام الروائيين المعاصرين بالواقعية والمنبع الأخلاقي للخيال . وبعد ظهور دراسة « مارك شورر » Mark Schorer التي جعل عنوانها « التكنيك كإكتشاف » بدأ نقاد كثيرون يتساءلون حول فكرة أن الرواية تتكون أساسا من الحكمة والشخصية والوصف ، وأدركوا أنها تتكون أيضا من البناء والتركيب ، والقلب والشكل . ورأوا أنها ليست نقدا واحتجاجا على الحياة فقط ، بل تصنع الحياة ، وأنها خيال لغوي مشابه لكل الخيالات أو الأخيلة الأخرى التي نبدعها حين التصدي لشرح وتنظيم تجربة ما لنبين الواقع .

وظهرت في الستينات دراسات مهمة من هذا النوع - مثل كتاب « بلاغة الرواية » من تأليف Wayne Booth سنة ٦١ ، وكتاب « لغة الرواية » من تأليف David lodge سنة ٦٦ ، وكتاب « طبيعة السرد الروائي » من تأليف Robert scholes and Robert Kellogg سنة ١٩٦٧ - وتزايدت الدراسات التي تناولت أساليب ورموز السرد ، متخذة من الرواية مثالا لوعي الذات في التجربة ، ولعل أوضح مثال على ذلك كتاب « فرانك كيرمود Frank Kermode » « الاحساس بالنهاية » سنة ١٩٦٧ ، وسيجد القارئ المهتم قائمة بهذه الكتب في آخر الكتاب .

وبدأ النقاد يطبقون بشكل متزايد التراث الأدبي للبنوية والشكلية بالاضافة الى التكنيك الواعي للتحليل الماركسي ، بحيث أصبح الآن جزء

كبير من التنظير ، يرى فى الرواية ظاهرة سردية فرضت نفسها على الحياة الثقافية . وقد أثرت هذه الأفكار على ما يكتبه الروائيون المعاصرون بشكل واضح وان لم يتفاعلوا معها تماما ، فمن المهم أن نتذكر أن واجبات وأهداف النقد تختلف كثيرا عن أهداف الروائيين . فعمل الناقد هو استكشاف تاريخ هذا الشكل الأدبى ، وطبيعة وجوده الثقافى فى الساحة الأدبية ، وإشارات ورموز وأرماسات العملية الإبداعية . بينما مهمة الروائى وهدفه أن يكون مواطنا ذا خبرة وتجربة وصاحب أسلوب متميز فى عالم لا يتحقق بالنسبة له الا اذا أصبح كذلك ، وعليه أن يبتكر كتابا عن عالم يراه ولم تتحدد ملامحه بعد ، وهو يفعل ذلك باتباع التقاليد الروائية أحيانا وبما يناقضها أحيانا أخرى ، هو يكرر ما سبق ولكن أيضا يصوغ شكلا جديدا ، وهو يجرب خيارات عدة فى فترة تاريخية وثقافية معينة ، ويظل يحاول ، ليستقطر طريقة جديدة أصيلة ، شخصية ومتميزة .

وهذا هو السبب - برغم الجدل المتباين والتوجه نحو القول بأننا نعيش فترة اسلوبية ما - فى أننا نجد صعوبة فى تقديم تعريف شبه تاريخى لما يحدث . هناك محاولات كما فى بعض الدراسات التى نقدمها هنا ، كما أن هناك كتابا مثل « ولیم جاس » و « روبرت سكول » و « ريموند فيدرمان » زودونا باصطلاحات تصف طبيعة الرواية التجريبية المعاصرة ، مثل اصطلاح « الرواية الشارحة Meta fiction » وهى الرواية التى تستوعب كل المنظور النقدى المعاصر فى العملية الروائية ذاتها ، أو اصطلاح الرواية فوق الواقعية Surfiction وهى الرواية التى تحاول استطلاع امكانات الخيال ، وتتحدى التقاليد التى تحكمها ، وتجدد ايماننا بخيال الانسان وليس برؤيته المشوهة للواقع ، كما تكشف عن لا معقولية الانسان أكثر مما تكشف عن معقوليته .

بينما اقترح نقد آخرون مثل ليسلى فيدلر وإيهاب حسن وغيرهما كيانا اسلوبيا أكبر أطلق عليه « ما بعد الحداثة » Post modernism يأملون من خلاله تحديد أو توصيف الوضع الثقافى المعاصر . وما يقنرحه هؤلاء النقد هو أننا نحتاج اليوم الى مصطلح نقدى جديد وتطبيق نقدى مختلف كى نتجاوب مع الرواية المعاصرة ، لأن الحداثة تتطلب انهيار وتحلل المفردات التراثية للنقد الروائى حتى يمكن فهمها تماما .

وهذه ، فى الواقع ، خطوات مهمة نحو الفهم ، ولكنها تخاطر فى محاولة توثيق وإثبات أصالة جزء معين من اتجاه أكبر ، فهناك جدل عالمى واسع ، يضع مهمة الرواية تحت التساؤل ، وهناك ظواهر عديدة تنهك ذهن : مثلا الحالة الأولية للخيال الروائى ، وماهية دور السرد ، ومشاكل

الرواوى المختلفة وسلطته المزعومة على النص ، ثم علاقة البنى التخيلية للنص
الروائى بالأنواع الأخرى من بنى الكتابة النثرية ، كالكتابة التاريخية ،
أو كتابة السير الذاتية ، أو الريبورتاج الصحفى ، والاعترافات ، تساؤلات
حول الرواية التى بلاغاية ، أو النص المكتفى بذاته دون الاصرار على معناه ،
حول معنى العالم ليس بوصفه مبنيا على النسبية ولكن على التجريبية ،
حول المحاكاة والمحاكاة التهكمية ، وتشابك الأساليب وطرف القص
المختلفة ، حول قوة الحكمة ومن يقوم بها ، حول الاغراء أو الاكراه فى
طريقة انهاء عمل ما ، حول تهديد نظام وتصميم العمل أو امكانية تنفيذه ،
حول السؤال اذا كانت الرواية تحمل قوة لاستقطار معنى أو أنها ببساطة
تقيم منطقا بالمصادفة ، انه ليس نقاشا أحاديا ، بل انه كما فى كثير من
الأنظمة الأسلوبية ، فان الملمح الأساسى ليس فى النهاية هو نفرد
الاسلوب ، ولكن فى الطريقة التى تتواصل وتترابط بها عادات الكتابة
المختلفة ، المنبثقة من احتياجات ومشاكل مختلفة جدا ، وسط الكتاب
صناع الروايات .

ولذا ، فعند اختياري لهذه الدراسات ، حاولت أن أوحى لنفسي بأن
هناك نقاشا ، حول ما يشبه مرحلة من مراحل تطور الاسلوب ، وأن هذا
الجدل جاد جدا ، ويشمل العالم كله ، ويتخذ مظاهر شتى . ان المشهد
الجمالى فى الرواية اليوم يتراوح فى مجال واسع ، يمتد من روايات
بورجيس Borges المستغرقة فى حالة من أعمال الخيال والعلاقة بين نظام
العقل وبين أنظمة الكون ، الى روايات نابوكوف Nabokov ذات الابتكارات
الهائلة من العوالم الخيالية التى برغم بعدها عن الواقعية ، وانفصالها عن
لغتها الأصلية ، ورؤيتها من خلال المرايا والوميض ، فانها تحمل لمحات
رائعة من الكشف والبوح الرمزي ، الى روايات صمويل بيكيت Samuel
Beckett بلغتها المقتصدة بتقليصه الفلسفى لها على قدر تحديد المعنى
فقط . ويتراوح من الأثر الباقي للشخصيات الكوميدية التى ابتدعها
توماس بنشون Thomas Pynchon أو وليم جاديس William Gaddis
والغارقة فى مستنقعات كون تكنولوجى ، مضغوطة فى حبات اثر حبات ،
ومع ذلك تجرب مقاييس التحول الداخلى ، الى الانتحاء الغريب للشعور
الذى يحل محل الشخصية فى عالم غير مجسدة بصنغات انسانية عند الآن
دوب جرييه وناتالى ساروت ، الى شخصيات ايريس ميردوخ Iris Murdoch
العارضة غير محددة المعالم ، التى اكتشفت فى رقصات الحب والقوة تعريفا
معنيا للذات ، ويمتد هذا المشهد الجمالى من عوالم ايتالو كالفينو Italo
Calvino الخيالية والاسطورية التى ابتدعها من اللعبة التركيبية التى
تلعبها مع تاريخ قصة ما ، عبر تحديث جون بارث John Barth فى سرده

الوفير الموروث من طرق السرد القديمة فى الأساطير اليونانية وألف ليلة وليلة ، الى الشذرات النثرية لدونالد بارثلم Donald Barthelm تلك الفتات من القصص التى تدور فى عوالمها الناقصة ، مروراً بالمحاكاة الساخرة عند ريموند كوني Raymond Queneau التى حولت الكتابة الى نص يتضاعف الى ما لا نهاية ، والتقليد الراقى لأنجوس ويلسون Angus Wilson وسرده متعدد الأصوات ، ومعارضة جون فاولز John Fowles لواقعية القرن التاسع عشر بممارسة كاتب يعرف أنه صاحب أسلوب معاصر ، لرويان بارت وألان روب جرييه ، ويشتمل هذا المشهد على طريقة وليم بوروز William Burroughs فى الانشء عن طريق « القص واللزق » ، وعلى الخيالات المكثفة لجون هوكس John Hawkes وعلى صيحة الاعتراف المتفسخة فى الروايات الأخيرة لفيليب روث Philip Roth ، حتى يصل الى روايات نورمان ميلر Norman Mailer النفسية التاريخية التى تعرض وعى الانسان المعاصر .

ان الرواية المعاصرة عالم رحب ، من مواطنيه البارزين كتاب مثل جنتر جراس ، ماكس فريش ، سول بيلو ، برنارد مالامود ، ريتشارد برونيجان ، روبرت كوفر ، كيرت فوينيخت ، موريل سبارك ، دوريس ليسنج ، ب. اس. جونسون ، كلود سيمون ، ميشيل بوتور ، وفيليب سوليزر وغيرهم كثيرون . ومن الأفضل أن ننظر اليهم نظرة مقارنة حتى يمكن فحص العلاقات بشكل أدق ، ولعل جزءاً من المشكلة كما لاحظ جون فلتشر فى كتابه « كلود سيمون والرواية الآن سنة ١٩٧٥ » ، هو أن الجدل الدائر قد حصر فى أكثر الكتاب علواً فى الصوت ، بينما العمل الفعلى الصعب هو النظر الى الكتاب المجسدين والبحث عن العلاقة ذات المعنى التى تربط بينهم - وضرب مثلاً لذلك بالجنسبرج وموريل سبارك - نحن نعيش فى عصر فيه الأسلوب أكثر من أن يكون محلياً ، حيث الضغوط التاريخية المتشابهة تصنع الشكل الروائى فى بلدان كثيرة . والهدف من الدراسات التى نقدمها هنا هو أن ننظر الى هذه القضية بنظرة عالمية شمولية ، وهناك هدف آخر أيضاً ، هو أن نؤكد على شيء غير مدرك بدرجة كافية ، وهو أن الرواية الانجليزية المعاصرة متورطة بشكل أساسى ، ولعبت دوراً مهماً ومباشراً فى هذا التطور الاسلوبى الكبير .



التغيرات الأسلوبية التي حدثت في الرواية المعاصرة ، حدثت ، في الواقع ، في عدد من البلدان المختلفة ، وهذا يعنى أنها حدثت ، حتما ، داخل أنواع مختلفة من تراث الخطاب النقدي ، نشأت من توارىخ مفترضة للرواية ، لها أفكار مختلفة ووجهات نظر مختلفة للانسان * وهناك عناصر عامة يمكن تمييزها ، نستطيع أن نستنتج منها صيغة معاصرة لما يحدث في الرواية : أحدها أن كثيرا من الروائيين اليوم لا يستريحون لاتباع الأساليب القديمة التي حققتها الانجازات الروائية في تاريخها السابق ، وسعوا الى إعادة خلق وتجريب أشكال جديدة عبر التساؤل حول الأساسيات * فالقواعد التي قامت عليها الرواية في السابق جاءت من مصدرين أساسيين : الجماليات الواقعية لرواية القرن التاسع عشر التي تؤكد على المرجعية والتعبيرية التاريخية للرواية ، متمثلة في خطاب يعتمد على « الحكمة » و « الشخصية » * والآخر الجماليات الحديثة لرواية أوائل هذا القرن التي تؤكد على المصادر الشكلية والرمزية للعمل الروائي ، متمثلة في إعطاء أهمية كبرى للقالب والشكل والأسطورة في الخلق الروائي * وكثير من الكتاب المعاصرين يعتبرون هذه الجماليات الآن ، قديمة وتاريخية ، وفي عالم تتغير فيه العلاقات الانسانية والمعرفية ، ويزداد التقدم العلمى ويشوه التاريخ ، ويعلو المحس الفردى ، ويتوه الهدف الانسانى ، فقد حاول الروائيون إعادة تعريف الفعل الروائي وتحديد بطرق مختلفة * إحدى العلامات المميزة لهذا التغيير هو الابتعاد عن مرجعية الرواية والاستناد الى الماضى وكذلك الابتعاد عن الشكلية الملحمية الجديدة والشمول التجريبي * وأدى ذلك الى نتيجتين واضحتين ، أحدهما ميل الرواية للانسحاب من طريقة الانشاء المرجعى ، وعن الواقعية ، والابتعاد عن التنظيم المخطط للشكل ، وتخطيط وجهات النظر ، وأنساق الوعي المتشابه * والاتجاه نحو تقديم المساحة المعجمية لمفردات النص نفسه : نص من انتاج وعى مؤلفه ، مشروط ومحكوم ليس بالشخصيات أو بأبعاد مخططة مسبقا ، ولا بأنساق من القيم والتعاطف ، ولكن بإيقاع الانشاء نفسه بحيث يصبح النص حدثا مكثفيا بذاته * والنتيجة الثانية هى الافتتان بالعملية الروائية ك محاكاة تهكمية للشكل - بحيث أصبح شبيها ببنية اللعبة يمكن أن نقوم بها بالابدال والتبديل - ورأينا الكاتبة والشخصية والحبكة والقارئ قد أصبحوا جزءا من موضوع الرواية ، وأصبح الخيار الأداة التي من خلالها يمكن اللعب باحتمال وقوع أو حدوث التجربة * سواء أكان أم لم يكن لها معنى ، أو سواء وصفت أم لم توصف بالواقعية *

وبناء على التقليد الروائي المعاصر الذى نتناوله ، يمكننا أن نؤكد على بعض ملامح المشهد الروائي * فالرواية الفرنسية الجديدة ، كما أشار

رولان بارت Roland Barthes تلعب اللغة فيها دورها المعجمي متقدمة على عناصر معينة في النص الروائي ، وعلى وجهات نظر معينة أو أهداف معينة من الوصف ، بحيث تتجاوز هذه العناصر أو وجهات النظر أو الأهداف وظيفتها الواضحة ، مما يتطلب إعادة تعريف مجال الاصطلاح الأدبي . والرواية الأمريكية المعاصرة ، وهي أقل احتراما للمصداقية الروائية والتغيرات العارضة ، تميل الى الكوميديا العبثية أكثر من ميلها الى الفلسفة العبثية كما يرى بيلو في دراسته في هذا الكتاب ، فهي - أي الرواية الأمريكية ، تؤكد على الفطرية والقدرة على التخيل كشرط روائي ، وهكذا فإن عملية السرد تقدم الينا بشروط مسبقة ، ومع ذلك فهناك تشابه ، في نواح معينة ، بين الرواية الأمريكية المعاصرة ولنقل روايات نابوكوف وجون بارث وجيرسي كوسينسكي Jerzy Kosinski وبين الرواية الفرنسية الجديدة ، كاسبقيية بعض وجهات النظر ، أو عملية التراكم النصي كظاهرة تنال الأولوية دون نظام بالضرورة ، ، وإذا كان وراءها نظام ما ، فقد يشار إليه . وهناك رواثيون آخرون ، في كل من أمريكا (كنورمان ميلر ، وكيرت فونيجت وترومان كابوت) وفي ألمانيا (جنتر جراس وألفرد أنديرش وهابنرش بول) أكدوا على أركان الرواية المرجعية في الأعمال الروائية التي نسميها بالريبورتاج أو الأعمال غير الخيالية ، وقد يبدو هذا كفرع من الواقعية ، لكنه يعتمد على مدى تفاعل الموقف الواقعي أو التاريخي مع عملية الخلق الروائي ، وهكذا يصبح التاريخ أو الواقع ، مرة ثانية ، حادثا طارفاً بني بفعل سردي مختار ، كما يتضح بشكل واضح في رواية « فونيجت » المذبح رقم 5 Slaughter house 5 . وإذا كان ديفيد لودج David Lodge على حق في دراسته التي نقدمها هنا « الروائي في مفترق الطرق » ، فإن هناك اليوم طرقا روائية تقود الى اتجاهات مختلفة بعيدة عن الواقعية ، أحدها نحو الخيال والفانتازيا وآخر نحو الوثائق ، ويبدو أن هذه الطرق تلتقي بعد ذلك في نقطة ما ، فروايات التحقيق الصحفي أو الروايات الخيالية أو كتيبة المظهر لغويا ، تشترك جميعا في التطلع بفضول نحو الواقع ، وبافتتان داخلي في طرق الوصول اليه ، ذلك الافتتان الذي يميل للابتعاد عن أو السخرية من التقاليد الروائية القديمة .

نخرج من كل هذا بأن التطورات الجديدة في الرواية جاءت من مصدرين أساسيين : من فرنسا حيث بدأ الحديث عن رواية جديدة منذ ١٩٥٣ تقريبا ، ومن الولايات المتحدة الأمريكية حيث نمت بوضوح ، في نهاية الخمسينات ، حالة من الافتتان بالتخيل ، تكثفت وازدادت في الستينات ، وساهم في ذلك أيضا بعض التطورات في ألمانيا وإيطاليا ، ولكن اعتبرت الرواية الانجليزية اجمالا ، اقليمية ومعزولة تماما عن هذه

الاتجاهات الجديدة التي لم تمسها بقليل أو كثير * وهذه - فيما أعتقد ، وجهة نظر تاريخية مضللة * فالتطورات الروائية الجديدة ساهمت في تشكيلها تطورات سابقة للتقاليد الروائية في بلدان عديدة * فالرواية الفرنسية الجديدة تواجدت بعمق ضمن الاعتقاد القائل بأنها لم تتغير كثيرا منذ فلوبير ، وما التطورات الجديدة التي أكد عليها الآن روب جرييه ، وناتالي ساروت ، على سبيل المثال ، الا نتيجة طبيعية ومنطقية لكاتب تمرس على التراث والتقاليد الروائية لجيمس جويس وفرجينيا وولف وجرتروود شتاين * في أمريكا فان طريقة كتابة الرواية في الماضي ، تأثرت بعمق بالتواصل الملحوظ للطبيعية في الكتابة الأمريكية ، التي حافظت على بقائها بقوة أكبر مما حدث في الأقطار الأوروبية * عدا روسيا ، وأصبح هذا الموضوع قضية مطروحة للتساؤل في فترة ما بعد الحرب * وفي إنجلترا ، فان الأثر الملحوظ للكتابة الحداثية في عشرينات وثلاثينات القرن ، ساعد في استعادة الأحياء الليبرالي الروائي في الخمسينات ، في فترة بدا فيها أن التجريبية قد استهلكت نفسها في مدرسة بلومزبري العصرية Bloomsbury ، ويبدو الآن من الأهمية أن نؤكد على أن كثيرا من الروائيين الانجليز في الخمسينات لم يكونوا ضد التجريب ، بل الأكثر من ذلك فان النقاد الذين قرءوا أعمالهم ، اعتبروهم من التجريبيين رغم كل شيء * .

ومع ذلك ، فان نوعا ما من الأصولية التي لا يمكن الاعتماد عليها ، بدت تنمو حول شخصية الرواية الانجليزية بعد الحرب * ولذا يتضح معنى ما قاله ريموند فيدرمان في مجموعة مقالاته المفيدة والمثيرة « الرواية فوق الواقعية - الرواية اليوم وغدا سنة ١٩٧٥ » التي يستكشف من خلالها الرواية الجديدة التي تعرض « خيالية الواقع » وتزيل كل الحدود * بين الحقيقي والتمثيل ، بين الوعي واللاوعي ، بين الماضي والحاضر * معتمدا على محور أساسي من الروايات الأمريكية والفرنسية مع الاستشهاد قليلا بالكتابات الألمانية والايطالية دون الرجوع الى الرواية الانجليزية * وهذا يتساق مع ما هو سائد الآن * ولكني أعتقد أنها وجهة نظر خاطئة ومضللة * فمعظم ما صدر من كتب حول الرواية الانجليزية بعد الحرب الثانية ، كتبها نقاد أمريكيون ، وهي فكرة محزنة أن نرفض رعاية كتابنا المهمين نقديا * وكل هؤلاء النقاد تقريبا : فردريك كارل في كتابه : دليل القارئ الى الأدب الانجليزي المعاصر سنة ١٩٥٩ وأضاف له وصدرت منه طبعة ثانية سنة ١٩٦٣ ، وجيمس جندن في كتابه : « الرواية الانجليزية بعد الحرب : علامات ومواقف جديدة » سنة ١٩٦٢ ، وروبن رابينوفتش في كتابه « رد الفعل ضد التجريب في الرواية الانجليزية سنة ١٩٦٧ » ، حددوا ماهية الرواية الانجليزية المعاصرة من خلال اختيارهم لبعض المؤلفين

دون البعض الآخر ، ومن خلال تقديم الواقعي ، متجاهلين قسما كبيرا ومهما من تطور الرواية الانجليزية . وهذا يعكس جزئيا طبيعة الفترة التي كتبت فيها هذه الكتب . ويعكس أيضا الرغبة في قراءة الرواية الانجليزية كرواية اجتماعية كطريقة لتفسير الثقافة الانجليزية المعاصرة . ومع ذلك فان دراسة أحدث وأكثر حساسية وحذا لبرنارد برجونزي « حالة الرواية ١٩٧٠ » ساعدت في تعقيد الصورة ، فهو يقول ان الرواية الانجليزية لم تعد رواية ، وأنها حكايات مفرحة يمكن التنبؤ بها ، كما أشار الى أن الروائيين الانجليز قد احتفظوا بالأيديولوجية التحررية فترة أطول ، وتجنبوا أقصى درجات التجريب الأدبي ، مع القيام بأثار تجريبية مهمة في مكان آخر .

هناك بعض العدل في هذا ، وهناك أيضا بعض التحريف الخطير . لقد كان مزاج النقاد في الخمسينات أن يجمعوا معا كتابا مختلفين مثل كنجزلي أميس ، وجون وين ، وجون برين ، وديفيد ستوري ، وأنجوس ديلسون ، وايريس ميردوخ ، ويطلقون عليهم « الشباب الغاضب » أو كتاب الواقعية الاشتراكية ، ولكن ذلك كان بعيدا عن الحقيقة ، وأضاع كليا المعنى الحقيقي لمسيرة نجاح عدد منهم .

وإذا كنا نلاحظ في الرواية الانجليزية المعاصرة اصرارا ما على الرواية الليبرالية ، ومحاولة لتثبيت فكرة الشخصية ، واستعادة عناصر القص الواقعي . فقد تم ذلك في سياق مناخ تجريبي قلق ، ونمو لفضول عملي عميق ، وسط بعض من أهم الروائيين حول المقومات الأساسية للرواية الخيالية ، من بين هؤلاء أنجوس ويلسون ، ديفيد ستوري ، ب . اس . جونسون وجون فاولز ، ايريس ميردوخ وموريل سبارك ، كل منهم تساءل وفكر كثيرا عن قيمة الواقعية ، وعلاقة الكاتب بالنص ، وحتمية الحكمة وجوهر الشخصية ، وارهاق ومشقة الشكل ونهايات العمل الأدبي . لقد نالت روايات أنجوس ويلسون الأولى ، الاعجاب لنظرتها البانورامية للحياة الانجليزية والمواقف الانجلوسكسونية ، وقد اعتنت هذه الروايات بتعقد نسيج المجتمع ، والنمو الأخلاقي للأفراد ، ومأساة القيم التجريبية ، ولكنها أيضا حارت وتساءلت كثيرا حول مكانة النص ، وطبيعة الخيال الأدبي ، وميل الفن نحو الاحباط والتزييف . وحين طفت هذه المشاغل على السطح بشكل قوى في رواية « ليست قضية مضحكة » سنة ١٩٦٧ وهي رواية بانورامية حول الحياة الانجليزية من سنة ١٩١٢ - ١٩٥٠ لم تقدم بشكل واقعي ، ولكن من خلال المرايا المشوهة لمعارضة كتاب آخرين والمحاكاة التهكمية لأعمالهم ، وذلك من خلال تقليد الشخصيات ، والتساؤل

المتواصل حول جوهر الشخصية الثابت ، ولقد جاز كثير من القراء من هذا العمل ، مع أنه منسجم تماما مع تطور أدب مؤلفه . كذلك فإن رواية ايريس ميردوخ « تحت الشبكة سنة ١٩٥٤ » قرئت عند طباعتها بطريقة خاطئة حين اعتبرت أحد أعمال الشباب الغاضب ، ولقد كانت ، فى الواقع متأثرة بسارتر وبيكيت وريموند كينو ، وهم الذين أهدت اليهم العمل ، ولم تكن الرواية تدور حول شاب يشعر بالاغتراب ، ولكنها كانت بحثا فى طبيعة اللغة والفن ، وفى التزييف الذى تقوم به عند تسمية الأشياء ، فى العلاقة بين القارئ والهندسة الروائية ، فى وظيفة الحب والصمت . لقد طرحت فى روايتها ، تيمات معقدة جدا فى سيرة الأدب بحيث أصبحت ، بقدم الستينات ، أسطورية أكثر منها واقعية ، ولقد اعترف روبرت سكولز بأن ايريس ميردوخ واحدة من صنّاع الرواية الخيالية الأسطورية المعاصرة ، وأن التساؤلات حول الشكل وواقعية الشخصية ، تلعب دورا مركزيا فى أعمالها .

وكثير من الثوابت الواقعية فى الخمسينات ، بدأت ، بقدم الستينات ، تتلاشى من الرواية الانجليزية لأسباب تشبه الى حد كبير تلك التى أثرت فى الروائيين فى البلدان الأخرى . وكما سبّرت روايات انجوس ويلسون غور وسائل المعارضة والمحاكاة التهكمية ، وأصبحت ايريس ميردوخ تساؤلا أسطوريا حول مكانة وصفة الشخصية الروائية ، فإن أعمال موريل سبارك الوسطى تحولت الى تحليل مقتصد بارع ، لعلاقة الروائي بوكيله الأدبي ، أو لصراع على مقعد السائق ، أو لكشف وعرض قوة جذب النهايات ، وحق المؤلف أن يختار المجتمع منها ، بينما غاصت روايات ديفيد ستورى فى أعماق نفسية شديدة العمق ، وجرب كل من ب . س . جونسون وجون برجر السرد المشوه والمحرف ، وتفحص جون فاولز ساحرية الابداع وامكانية منح شخصياته الحرية الوجودية ليختاروا حيواتهم فيما وراء خياله المحبوك . وبالتأكيد ، نستطيع أن نميز بوضوح ، فى الرواية الانجليزية ، أكثر من ركّام الروايات الفرنسية والأمريكية ، محاولة لاستخلاص انسانية حديثة ، والدفاع عن فكره الشخصية ضد النص الرخو ، ولكن قدرا من الضغوط الحتمية ساعد على تقدم ورقى مزاج أو تنظيم تجريبي قوى آخر . يتضح كل هذا فى مقال ايريس ميردوخ « فى مواجهة الجذب سنة ٦١ » الذى يدافع عن الخلق الأدبي الحديث العارض ضد الأعياب الشكل المجذبة والعبث المفرط ، ولكن المقال يؤكد أيضا من موقف ما بعد الوجودية ، بأننا لسنا أحرارا فى اختيارنا ولسنا معزولين فى هذا العالم ، واننا نعيش فى كون هو نفسه عارض وطارىء وبالتالى وحش ومجهول ، نلتمس النظام فيه من خلال الفهم والحب ، وهو ما يجب أن يعنى به الروائي ، وعلى العموم ، فبرغم التوجه

الواقعي لكثير ممن يكتبون عن الأدب المعاصر في انجلترا ، مما أدى الى جعل الجدل حول الخيال معدودا ، فان تجريبية الرواية الانجليزية قد تأكدت على أيدي الروائيين الانجليز ، وازدادت بشكل ملحوظ في أواخر الستينات وأوائل السبعينات .

والمهم ، اذن ، أن هذه التطورات الروائية ، المنظور اليها ضمن سياق شكل روائي يتطور ويتغير بطريقة ذات معنى ، وإن كان بطرق ودرجات مختلفة في أقطار متنوعة ، هي الدافع للقيام بجميع هذه المختارات . « افترض أن حركة الرواية ينبغي لها دائما أن تكون في اتجاه ما نعيه كواقع » هذا ما قاله أحد الروائيين الأمريكيين الحداثيين ، رونالد سوكينيك Ronald Sukenick ، والذي عنون أحد كتبه ، مستقطرا التناقض المناسب للموضع الروائي « موت الرواية وقصص أخرى سنة ١٩٦٦ » « ان أشكالها مستهلكة ، ولقد استجاب الروائي لتيسار التجربة المتدفق ، ساحقا في طريقه كل ما يعوقه ، حتى لو كانت الرواية ذاتها » . والرواية الآن ، بمجالاتها المتغيرة والمحتملة ، من الوهمي الى الواقعي ، من النص الخامد الى النص الذي يكرس ذاته لبنيته وصيغته ، في حالة تخمر مثمر تحت ذلك الزخم .

وإذا كان تنظير الروائيين ، أولئك الذين في الصف الأمامي ، يبدو أحيانا أكبر وأكثر إثارة من بعض نتائجهم الروائي ، فتلك مخاطرة . لكن يظل التنظير في النهاية حول شكل مركزي لتجربتنا الأدبية ، والفعل التطبيقي يظهر على صفحات الروايات ذاتها حيث يمكننا اختباره والاستمتاع به أو العكس حسب الحالة .

مالكولم برادبري

فى مواجهة الجذب

مشهد جدلى

ايريس ميردوخ

الاتهامات التى أرغب فى توجيهها هنا تتعلق بالدرجة الأولى بالنشر وليس بالشعر ، بالرواية بالذات وليس بالدراما ، وهى مختصرة وبسيطة ومجردة وربما تكون محدودة الأفق ، ويجب ألا تفسر بأنها تتضمن أية وجهة نظر تتعلق « بوظيفة الكاتب » ، ان وظيفة الكاتب أن يكتب أفضل ما يستطيع . هذه الملاحظات تتعلق بخلفية الأدب المعاصر ، فى البلاد الديمقراطية عامة . وفى دول الرفاهية خاصة ، بمعنى أن هذه الملاحظات لابد أن يهتم بها أى ناقد جاد .

نحن نعيش فى عصر علمى ، غير غيبى ، فقدت فيه العقائد والمبادئ وتعاليم الدين الكثير من قوتها . ولم نشف بعد من حربين عالميتين وتجربة هتلر . ونحن أيضا من ورث عصر التنوير والرومانسية والتقاليد الليبرالية . وهذه هى أسباب أزمئنا ، وملمحها الأساسى ، من وجهة نظرى ، أننا عشنا طويلا ونحن نحمل فكرة ضحلة ومهلهلة عن الشخصية الانسانية ، وسأشرح ما أعنيه حالا .

الفلسفة كالأصحافة . وكلتاها دليل ومرآة لعصرها . فلنلق نظرة سريعة على الفلسفة الانجلوسكسونية والفلسفة الفرنسية لنرى ما هى الصورة التى نستخلصها للشخصية الانسانية من هاتين الفلسفتين العقليتين . بالنسبة للفلسفة الانجلوسكسونية ، فان المؤثر الأكبر والأعمق عليها كانت فلسفة هيوم Hume وكانت Kant : وليس من الصعب أن نرى فى الادراك الذهنى الشخصى السائد أثر هذين المفكرين الكبيرين . هذا الادراك الذهنى يتكون من ربط السلوك المادى بوجهة نظر درامية تقول بأن الفرد هو ارادة منعزلة . وكل من الاثنين يعضد أحدهما الآخر . فمئذ هيوم ، ومرورا ببرتراند راسل وبمساعدة من المنطق الرياضى

والعلم ، اشتققنا فكرة أن الواقع ما هو الا كمية من ذرات مادية فى تحليله الأخير ، وأن أى خطاب ذى معنى لابد أن يرتبط بشكل مباشر أو غير مباشر بفكرة ذلك الواقع الذى نتخيله . وقد صور هذا الموقف بشكل مختصر ورائع فتجنشتين Wittgenstein فى كتابه « مباحث فلسفية » . وقد تغير هذا المعنى قليلا فى الفلسفة المعاصرة ، خاصة فى أعمال جلبرت ريل Gilbert Ryle وأعمال فتجنشتين الأخيرة . فلقد هجر المعنى الذرى الذى قال به هيوم ، لمصلحة نموذج من التحليل الإدراكى (وهو جذاب فى مواقف كثيرة) الذى يؤكد على اعتماد المفاهيم البنيوية على اللغة العامة التى توطنها . هذا التحليل له نتائج مهمة على فلسفة العقل ، حيث يتولد عن هذا سلوك متغير أو مقيد . وبخطوط عريضة : فإن حياتى الداخلية ، بالنسبة لى وللآخرين ، توجد فقط من خلال مطابقتها للمفاهيم العامة ، مفاهيم يمكن اقامتها فقط على قواعد سلوك على .

هذا جانب واحد من الصورة ، الجانب الهيومى وما بعد هيوم . من ناحية أخرى فإننا نستنتج من كانت وهوبز وبنتم وجون ستيوارت مل صورة للفرد كإرادة عقلية حرة . وبالتغاضى عن الخلفية الغيبية لكانت Kant فإن هذا الفرد يظهر كشخص وحيد (حتى بمفهوم كانت الخاص فهو وحيد بمعنى أنه لا يواجه بأخر مختلف بشكل حقيقى) وبإضافة بعض التفاؤل النفعى ، فإن هذا الشخص الوحيد يبدو قابلا للتعلم بشكل كبير ، وبإضافة بعض علم النفس الحديث فإنه يبدو قادرا على معرفة ذاته بطرق تتوافق مع العلم والفطرة السليمة ، وهكذا يكون لدينا الرجل الحديث كما يبدو فى كثير من كتابات علم الأخلاق الحديثة ، واعتقد أنه كما يبدو فى الوعى العام بدرجة كبيرة أيضا .

نقابل ، مثلا ، صورة مهذبة لهذا الانسان فى كتاب ستيوارت هامبشير « الفعل والعقل » ، وهو انسان عقلى وحر تماما وإن اختلفت درجات وعيه بذاته ، وهو ملك تصرفاته ومسئول تماما عن أفعاله ، ولا شيء يفوقه فى ذلك ، لغته الأخلاقية هى دليله العملى ، وأداة اختياراته ، والمؤشر لكل ما يفضله ، وحياته الداخلية هى التى تقرر أفعاله واختياراته ومعتقداته ، فالعقيدة فعل تتحدد من خلال طريقة التعبير عنها ، ومناقشاته الأخلاقية مراجع لحقائق تجريبية تشد أزرها أحكامه ، والكلمة الوحيدة التى يحتاج إليها هى « خير أو صواب » ، الكلمة التى تعبر عن حكم ما ، عقلانيته تعبر عن نفسها فى وعيه بالحقائق سواء عن نفسه أو عن العالم ، وفضيلته الأساسية هى الاخلاص .

فاذا اتجهنا الى الفلسفة الفرنسية ، فإننا نرى الصورة ذاتها ، على الأقل فى الجانب الفلسفى الذى جذب خيال العامة ، وأعنى به فلسفة جان

بول سارتر . ومن الطريف ملاحظة كم هي هذه الصورة مشابهة للصورة الكائناتية برغم كل ما يدين به سارتر لهيجل . ومرة ثانية يصور الانسان هنا كشخص منعزل تماما ويملك حرية مطلقة ، ولا يوجد واقع متسام ، ولا درجات للحرية . بل هناك كتلة من الرغبات النفسية والعادات الاجتماعية والأهواء فى ناحية ، والارادة فى الناحية الأخرى . وهناك مسرحيات معينة ، شخصياتها أكثر هيجيلية ، قامت على الروح ، لكن عزلة الارادة استمرت ، ومن ثم الجزع والقلق ، ثم النكسة الخاصة المعادية للبرجوازية فى فلسفة سارتر ، التى جعلتها مقبولة عند كثير من المتقنين : الصورة العادية التقليدية للشخصية ، والفضائل التى تقبع تحت الشك بسوء النية ، ومرة ثانية الفضيلة الوحيدة الحقيقية عند الفرد هي الاخلاص . وأعتقد أنه ليس مصادفة ، بالرغم من النقد الفلسفى أو غيره الذى وجه الى سارتر ، أن الصورة القوية التى رسمها للانسان مست خيالنا . ومن المنطقى أن يزعم النقاد الماركسيون أنه يقدم فى فلسفته جوهر نظرية الحرية الشخصية .

ويمكن الاشارة الى أن هناك نظريات ظاهراتية أخرى (دعك من الماركسية) حاولت أن تقوم بما فشل أن يقوم به سارتر ، وأن هناك فلاسفة مرموقين قدموا تصورا آخر للانسان . ومع ذلك ، فمن خلال معرفتى بالمشهد العام قانئ أشك فى أن هذه الفلسفات قد قدمت تصورا للانسان مختلفا عما قدمته بشكل أساسى ، أو يستطيع أن ينافسه بقوة التخيل . ويمكن القول ان الفلسفة لا تستطيع أن تقدم مثل هذا الوصف ، وإن كنت غير متأكدة من ذلك ، وعلى العموم فليس هذا موضوع اهتمامنا هنا . ولكنى أعبر عن اقتناعى ، أنه فى العالم الليبرالى فان الفلسفة فى الوقت الحاضر ، غير قادرة على أن تقدم لنا صورة كاملة وقوية أخرى عن الانسان . وأعود الآن الى انجلترا والتقاليد الانجلوسكسونية .

لقد انبثقت دولة الرفاهية ، بدرجة كبيرة ، نتيجة التفكير الاشتراكى والمسمى نحو الاشتراكية ، وبدا أنها تخوض صراعا معينا الى نهايته ، وعند تلك النهاية حدث تراخ وتهاون فى الأساسيات . فلو قمنا بمقارنة اللغة التى كتب بها دستور حزب العمال الأصيل فى بدايته ، واللغة التى كتب بها بعد ذلك فسنجد فقرا فى التفكير وفى اللغة التى تبدو نمطية . فدولة الرفاهية هي ثمرة « التجريبية فى السياسة » . قدمت لنا مجموعة من الأهداف المرغوبة بشدة لكنها محدودة ، يمكن فهمها دون اصطلاحات نظرية ، وعند تتبعها ، والسماح لفكرتها أن تسيطر على الجانب الطبيعى النظرى الغالب فى مشهدها السياسى ، فأننا نفقد نظرياتنا الى حد كبير . أن تصورنا الأساسى مازال صورة باهتة من المعادلة التى قالها ستيوارت مل :

السعادة تساوى الحرية تساوى الشخصية • لابد من تمرد ضد المذهب النفعى ، لكن لأسباب كثيرة لم يقع هذا التمرد • فى سنة ١٩٠٥ رحب مينارد كينز ورفاقه بفلسفة جى • اى • مور التى أعادت الاعتبار الى مفهوم التجربة ، ولفتت الانتباه الى الحياة الداخلية للانسان بعيدا عن آليات العمل ، ولكن « تجربة » مور كانت تصورا ضحلا جدا ، فالعصر العلمى ذو الأهداف التجريبية البسيطة يفضل فلسفة أكثر سلوكية •

ما الذى فقدناه بسبب كل هذا ؟ وما الذى لم نحصل عليه أصلا ؟ لقد عانينا فقداننا عاما للمفاهيم ، وقدنا مفرداتنا الأخلاقية والسياسية ، ولم نعد نستخدم صورة أصيلة جماهيرية لفضائل الانسان والمجتمع المتعددة ، ولم نعد نرى الانسان فى مواجهة خلفية من القيم ، أو الوقائع التى تتجاوزها • بل نصور الانسان كإرادة شجاعة محضة ، محاطة بعالم تجريبي مفهوم وسهل ، واستبدلنا فكرة الحقيقة الثابتة الصلبة ، بفكرة سطحية عن الاخلاص • والذى لم نحصل عليه بالطبع هو نظرية متحررة مقنعة للشخصية ، نظرية الانسان الحر المستقل والمرتبطة بعالم غنى ومعقد ، عليه أن يتعلم منه الكثير • لقد قبلنا بالنظرية الليبرالية كما هى ، لتشجيع الناس على أن يظنوا أنهم أحرار على حساب التنازل عن ماضيهم الانسانى •

ولم نحل أبدا مشاكل الشخصية الانسانية كما طرحها عصر التنوير ، ووسط المفاهيم المختلفة التى بين أيدينا ، ضاع منا السؤال الحقيقى ، والآن ، وبطريقة غريبة ، فان موقفنا مشابه لموقف القرن الثامن عشر • ونعتمد ، بتفاؤل عقلى ، على النتائج المفيدة للتعليم أو بالأحرى التكنولوجيا ، وربطنا ذلك بمفهوم رومانسى عن الوضع الانسانى ، وصورة سلبية ومنعزلة للانسان ، وهو تصور اكتسب منذ هتلر شدة وكثافة مفيدة •

كان القرن الثامن عشر عصر القصص العقلية المجازية والحكايات الأخلاقية • وكان القرن التاسع عشر - بشكل عام - عصر الرواية الكبير ، وازدهرت الرواية بدمجها الفعال فكرة الفرد بفكرة الطبقة • ولأن القرن التاسع عشر كان فصلا ومهما • ولأن - ولنستخدم معنى ماركسيا - النموذج والفرد يمكن رؤيتهما مندمجين معا ، فان حل المشكلة التى أثارها القرن الثامن عشر يمكن أن يؤجل ، وظل الحل مؤجلا حتى الآن • والآن حيث ان بنية المجتمع أقل حيوية واثارة مما كانت عليه فى القرن التاسع عشر ، وحيث ان اقتصاد الرفاهية أزاح نمطا معيننا من التفكير ، وحيث ان قيم العلم لها الكلمة الأخيرة فى الفعل والاقتداء ، فاننا نواجه فى وضع

مظلم ومضطرب مأزقا رافقنا ، ضمنا ، منذ عصر التنوير ، أو منذ بداية العالم الجديد المتحرر مهما كان الوقت الذى بدأ فيه .

وإذا نظرنا الى أدب القرن التاسع عشر . مقارنة بأدب القرن العشرين ، فإننا نلاحظ تناقضات معينة ذات دلالة . أقول ذلك من وجهة نظر القرن الثامن عشر ، عصر القصص العقلية المجازية والحكايات الأخلاقية ، العصر الذى كانت فيه فكرة الطبيعة البشرية متكاملة وفريدة .

رواية القرن التاسع عشر (أستخدم هذه الاصطلاحات بجرأة وعمومية لكن هناك استثناءات بالطبع) لم تكن مهتمة بالوضع الانسانى ، كانت متهمة بأفراد مختلفين وحقيقيين يتصارعون فى المجتمع . ورواية القرن العشرين عادة ، اما رواية شفافة Crystalline أو رواية صحفية بمعنى انها أنهيها رواية قصيرة شبه مجازية تصور الوضع الانسانى ولا تحتوى على شخصيات بالمعنى المفهوم للشخصيات فى القرن التاسع عشر ، أو رواية كبيرة بلا شكل . شبه وثائقية ، النسل المنحل والمتفسخ لرواية القرن التاسع عشر . تتحدث من خلال شخصيات تقليدية باهنة عن قصة أو حكاية عادية مفعمة بالحقائق الاستقرائية . وليست لهذين النوعين من الأدب علاقة بالمشكلة التى سبق أن ذكرتها .

ويمكننى القول على الفور ، انه اذا كان نثرنا الروائى شفافا أو صحفيا ، فان الرواية الشفافة هي الأفضل ، وهى النوع الذى يفضل الكتاب الجادون ابداعه . ويمكننا أن نرجع المثل الأعلى للجذب الذى نشارك به للحركة الرمزية ، ولكتاب مثل تى . اى . هيلم ، وت . اس . اليوت وبول فاليرى وفتجنشتين . هذا الجذب (الصغر ، الوضوح ، الذاتية المتضمنة) هو لعنة الرومانسية ، رومانسية فى صيغة متأخرة . ان الرمز النقى ، الصافى ، المحتوى على الذات ، القدوة الذى طالب كانت Kant خليفة الليبرالية والرومانسية ، أن يكون الفن عليه هو المائل للفرد الوحيد المنطوى على ذاته . هو ما خلفته الرومانسية من اهتمام بالشئون الدنيوية ، حين فقدت العناصر الانسانية والثورية المضطربة قوتها . ان اغراء الفن ، الاغراء الذى يستسلم له كل عمل فنى عند الأعمال العظيمة ، هو أن يسلى ويواسى ، ان الكاتب المعاصر الخائف من التكنولوجيا : والبعيد عن الفلسفة فى انجلترا ، والمزكى بنظريات درامية بسيطة فى فرنسا ، يحاول تسليتنا بالأساطير أو القصص .

اجمالا ، فان حقيقته هي الاخلاص ، وخياله هو الوهم ، وهم يتعامل اما مع أحلام يقظة بلا شكل (القصة الصحفية) ، أو مع خرافات صغيرة

أو لعب وبلورات ، وكل بطريقته ينتج نوعا من الحلم - الضرورة ، لا يتعلق بالواقع ، حيث الوهم لا يكون خيالا .

فالمكان الصحيح للرمز ، بالمعنى الرمزي الحقيقي ، هو الشعر ، وحتى هنا يمكنه أن يلعب دورا مزدوجا أو ملتبسا ، حيث يكمن في الرمزية شيء عدائي تجاه الكلمات التي تبني منها القصائد . وبالتأكيد فان غزو مساحات أخرى غير شعرية ، التي يمكن تسميتها اختصارا « بالنماذج الرمزية » ساعدت على انحدار النثر ، فأضحت الفصاحة موضوعة قديمة ، حتى الاسلوب - عدا المعنى الصارم لهذا المصطلح - أصبح موضوعة قديمة .

ان تـ . اسـ . اليوت وجان بول سارتر على تباينهما الكبير كمفكرين ، حاولا تبخيس النثر وانكار أية وظيفة خيالية . فالشعر هو ابداع علم اللغة ، والنثر ما هو الا شارح وعارض ، انه في الأساس تعليمي ، وثائقي ، ومعلوماتي ، فالنثر نموذج للوضوح ، وهو أفضل ما يمكن أن يكتب بالكلمات ، والكاتب ذو الاسلوب الحديث والتأثير الكبير هو همنجواي ، ومن الصعب تقريبا ، أن نتخيل الآن أحدا يكتب مثل لاندور Landor ، ومعظم الروايات الانجليزية الحديثة ليست مكتوبة روائيا ، ويشعر المرء انها يمكن أن تنزلق الى وسط آخر غير الرواية دون أن تفقد الكثير ، واحتاج الأمر الى أجنبي كـ Nabokov أو إيرلندي كـ Beckett لينعش لغة النثر ويحولها الى أداة للخيال بشكله الصحيح .

ان تولستوى الذي قال ان الفن تعبير عن التصور الديني للعصر ، كان أقرب الى الحقيقة من كانت Kant الذي رأى في الفن خيالا يلهو في دروب الفهم . ولقد تراخت العلاقة بين الفن والحياة الأخلاقية لأننا نفقد احساسنا بالشكل والتركيب في العالم الأخلاقي نفسه . فان علم اللغة ، والسلوك الوجودي ، وفلسفتنا الرومانسية قد قلصت مفرداتنا ، وسطخت وأفقرت رؤيتنا للحياة الداخلية . ومن الطبيعي ألا يهتم المجتمع الليبرالي الديمقراطي بتقنيات التحسن ، وينكر أن تكون الفضيلة نوعا من المعرفة ، ويؤكد على اختيار الانسان على حساب الرؤية ، وتضعف دولة الرفاهية الحوافز والبواعث في سبيل تحقيق قواعد المجتمع الديمقراطي الليبرالي ، ولأسباب سياسية شجعنا على التفكير لأنفسنا كأننا أحرار تماما ومستولون ، نعرف ما نحتاج معرفته من أجل الأهداف المهمة للحياة . ولكن هذا أحد الأشياء التي قال عنها هيوم انها قد تكون حقيقية في السياسة . لكنها زائفة في الواقع . لكن أهي حقيقية فعلا في السياسة ؟ نحن نحتاج ليبرالية غير رومانسية تتجاوز الكانتية (نسبة لكانت) وبتصور مختلف عن الحرية .

وتقنية أن تصبح حرا ، أكثر صعوبة مما تخيل جون ستيوارت مل ، نحن نحتاج الى مفاهيم أكثر مما زودنا به فلاسفتنا ، نحتاج أن يساعدنا أحد ما فى أن نفكر فى مصطلحات لدرجات الحرية ، وأن تصور ، بمعنى غير غيبى ، غير استبدادى ، وغير دينى ، تجاوز الواقع والسموم عليه . فالإيمان العقلى الساذج مع الافتراض بأننا جميعا عقلانيون وأحرار . يولد نقصا خطيرا فى فضولنا نحو معرفة العالم الحقيقى ، ويعجزنا على تقدير الصعوبات التى تعترضنا لمعرفة . نحن نحتاج إلى العودة عن التصور المتمركز حول الذات والمتمثل فى الاخلاص ، الى التصور المركزى الآخر المتمثل فى الحقيقة . نحن لسنا مختارين أحرارا معزولين ، أسبياد كل ما نفعله ، ولكننا مخلوقات واهمة غارقة فى واقع تغرى طبيعته دائما لأن تشوه بالوهم ، وتصورنا المعاصر عن الحرية يشجع السهولة والبساطة التى تشبه الحلم ، بينما ما نحتاجه هو احساس متجدد بصعوبة وتقيد الحياة الأخلاقية وعدم شفافية الناس . نحتاج الى مفاهيم أكثر لمصطلحات قصور مادة وجودنا ، ومن خلال اثراء وتعميق هذه المفاهيم يأخذ التقدم الأخلاقى والأدبى مجراه . ولقد قال سسيمون فييل *Cimone Weil* ان الإبداعية والأخلاقية مسألة انتباه واهتمام لا مسألة ارادة ، ونحن نحتاج مفردات جديدة للانتباه والاهتمام .

ومن هنا يكون الأدب مهما ، خاصة اذا اهتم ببعض أعماله انجزتها الفلسفة فى البداية . ومن خلال الأدب نستطيع عادة اكتشاف معنى لازدحام حياتنا . ويمكن للأدب أن يقوينا فى مواجهة التسلية والوهم ، ويساعدنا على الشفاء من علل الرومانسية . واذا كان للأدب دور ، فانه بالتأكيد هذا الدور . أما اذا كان الأمر قضية تقويم وصلاح ، فعلى البشر أن يستعيد مجده السابق ، وتعود له فصاحته وخطابه السابق . ويمكننا هنا ربط البلاغة بمحاولة قول الحقيقة . وأفكر هنا بأعمال ألبير كامو ، فكل أعماله مكتوبة جيدا ، عند العمل الأخير ، فهو أقل إثارة ونجاحا من العاملين السابقين ، وينتدو لي أنه محاولة أكثر جدية لتخطى الحقيقة ، وذلك يصور ما أعنيه بالبلاغة أو الفصاحة .

ومن المدهش أن الأدب الحديث ، المعنى كثيرا بالعنف ، يحتوى على صور قليلة مقنعة للشر . وعجزنا عن تخيل الشر هو نتيجة لتصورنا الدرامى المتفائل والساذج عن أنفسنا التى نكتب عنها ، والصعوبة التى تواجهنا حول الشكل الروائى ، والصور من التشبيه والاستعارة . - وميلنا لإبداع أعمال شفافة أو صحفية - هى أحد أعراض وضعنا الأدبى الحالى . الشكل الروائى نفسه يمكن أن يشكل اغراء فى حله ذاته ، حيث يجعل من العمل الأدبى أسطورة صغيرة تتضمن الذات ، وفردا مكثفيا

بذاته فى الواقع . . نحتاج الى أن نبعد اهتمامنا عن ضرورة ذلك الحلم
المسلى للرومانسية ، بعيدا عن الرمز المجذب ، الفرد المفتعل ، والكل
المزيف ، ونسعى نحو الانسان الصلب الحقيقى ، ونرى فى ذلك الانسان
الجوهري الأساسى الصلب غير المحدد ، قيمة تفوق كل معتقدات الليبرالية
الأساسية .

ومن هنا ، يمكن للمرء أن ينتقد خواء فكرة الليبرالية عن الحرية ،
فمهما تحدث المرء بالمصطلحات عن استعادة الوحدة الضائعة ، فانه على
خلاف دائم مع الماركسية ، فالواقع ليس كلامعطى ، وإن فهم هذا مع
احترام المصادفة وغير المتوقع ، يعتبر أساسيا للخيال فى مواجهة الوهم .
وإن احساسنا بالشكل الذى هو أحد أركان رغبتنا للتسلية والمواساة ،
يمكن أن يكون خطرا على احساسنا بالواقع كخلفية خصبة منحسرة .

وفى مواجهة تسليات الشكل ، والعمل الشفاف النقى ، والأسطورة
الوهمية المبسطة . يجب أن نثير القوة المدمرة لفكرة الشخصية الطبيعية
غير المؤطرة فى موضحة معينة .

الناس الواقعيون مدمرون للأسطورة ، والشيء الطارىء أو محتمل
الوقوع مدمر للوهم ويفتح الطريق للخيال . فكر فى الكتاب الروس سادة
الطارىء ، وبالطبع فإن الكثير من الشيء الطارىء والعارض فى الرواية قد
يحول الفن الى صحافة ، ولكن حيث ان الواقع غير كامل ، فعلى الأدب
ألا يخاف كثيرا من عدم الكمال . وعلى الأدب أن يقدم دائما صراعا بين
الناس فى الواقع والناس فى الرواية الخيالية ، والمطلوب الآن مفهوم أكثر
قوة وتعقيدا من السابق . لقد عرينا أنفسنا من المفاهيم فى الأخلاق
والسياسة ، والأدب ، فى معالجته لأمراضه الخاصة ، يمكن أن يمدنا
بمفردات جديدة للتجربة ، وبصورة أصدق للحرية . بهذا ، ونحن نجدد
احساسنا بالمسافة ، يمكن أن نذكر أنفسنا أن الفن أيضا يعيش فى
منطقة يبدو فيها كل الجهد الانسانى فاشلا ، ربما شكسبير وحده استطاع
أن يخلق على المستوى الأعلى ناسا وصورا ، وحتى هاملت تبدو فى المرتبة
الثانية اذا قورنت بالملك لير . والفن العظيم فقط هو الذى ينعش بلا عزاء ،
ويهزم محاولتنا حين نستخدمه كسحر على حد تعبير الشاعر أودن
W. H. Auden.

كتابة الرواية الأمريكية

فيليب روث

منذ عدة سنوات ، حين كنت أعيش في شيكاغو ، صدمت المدينة وأصابتها الحيرة بسبب وفاة فتانين في العشرينات من العمر ، وحسب ما أعلم فقد ظل الرأي العام مرتبكا فترة طويلة ، بالنسبة للصدمة ، فشيكاجو هي شيكاغو ، ومصائب الاسبوع تتلاشى في مصائب الاسبوع الذي يليه ، لكن الضحايا في هذه الحالة كانتا شقيقتين ، خرجتا ذات مساء في ديسمبر لتشاهدنا فيلما لألفيس بريسلي للمرة السادسة أو السابعة ، كما عرفنا ، ولم تعودا الى البيت أبدا . ومرت عشرة أيام ، ثم خمسة عشر يوما فعشرون يوما ، خرج خلالها كل شارع في المدينة الحزينة ، وكل زقاق ، ليبحث عن الفتاتين باتى وبابز جريمز . قالت إحدى صديقاتهما انها شاهدتهما في السينما ، وقالت مجموعة من الأولاد انهم شاهدوا الفتاتين تركبان عربة بويك سوداء بعد انتهاء عرض الفيلم ، بينما قالت مجموعة أخرى ان العربة كانت شيفروليه خضراء ، وهكذا . . . حتى ذاب الثلج يوما ، واكتشفت جثتا الفتاتين عاريتين في فندق على جانب الطريق قرب غابة تقع غرب شيكاغو ، قال المحقق انه لا يعرف سبب الوفاة ، ثم تولت الصحافة الأمر . ونشرت إحدى الصحف رسما للفتاتين على صفحتها الأخيرة بحجم كبير وألوان أربعة ، وبكت والدته الفتاتين بين ذراعى محررة في صحيفة محلية ، وضعت آلتها الكاتبة في الشرفة الأمامية لمنزل الفتاتين ، وبدأت تكتب عنهما عمودا يوميا ، وقالت فيما قالت ان الفتاتين كانتا طبيبتين ، مجتهدتين وعاديتين ، وتذهبان الى الكنيسة بانتظام . . . الخ ، وفي المساء ، كان المرء يرى على شاشة التلفزيون مقابلات مع زملاء في المدرسة وأصدقاء للفتاتين ، تبدو فيها الفتيات الصغيرات وهن ينظرن حولهن كأنهن على وشك الانفجار في الضحك ، بينما يجلس الفتيان متصلبين بستراتهم الجلدية « آه أعرف بابز . . . كانت فتاة طيبة » « آه . . . كانت محبوبة عند الجميع » . . . واستمر الحال هكذا . . . حتى حدث اعتراف . فقد اعترف متشرد يقيم في حي فقير في المدينة حيث يتجمع العاطلون والسكراني ، وهو شخص فاشل عمل كغاسل أطباق وقاطع طريق في الخامسة والثلاثين من العمر يدعى « بنى بدويل » ، بأنه قتل الفتاتين بعد أن عاشرهما مع زميل له في عدة

قنادق حقيرة • حين سمعت الأم هذه الأخبار ، قالت للمحررة ان الرجل يكذب ، وأن ابنتيهما - وهي تصر على ذلك - قد قتلتا في الليلة التي التي ذهبتا فيها الى السينما ، وظل المحقق يدافع عن الفتاتين - بتأثير من الصحافة - ويقول بأنه لم يظهر عليهما ما يشير الى ممارسات جنسية ، كان كل شخص في شيكاغو يشتري أربع صحف يوميا ، بينما ألقى المتشرد في السجن ، بعد ما زود البوليس بتاريخ مغامراته مع الفتاتين ساعة بساعة • وبحث رجال الصحافة عن راهبتين كانتا تدرسان للفتاتين في المدرسة ، وحاصروهما بالأسئلة ، حتى أوضحت احدهن الأمر كله ، وقالت ان الفتاتين ليستا متميزتين ولم تكن لديهما أية هوايات • وفي الوقت ذاته ، بحث بعض الأشخاص عن والدته المتشردة ، ورتب لقاء بين المرأة العجوز ووالدة الفتاتين المذبوحتين • وأخذت صيورتيهما معا ، سيدتان أمريكيتان بدينتان منهكتان من العمل ، مرتبكتان تمايا ، ولكنهما تجلسان باستقامة من أجل التصوير ، اعتذرت أم المتشرد عن ابنها قائلة : « لم أفكر يوما بأن يفعل أحد أبنائي مثل هذا العمل » • بعد اسبوعين أو ثلاثة أفرج عن ابنها بكفالة ، وقد خرج يرتدى حلة جديدة ويتباهى بأن عدة مجامين قد دافعوا عنه ، وقد أخرج من السجن يركب عربة كاديلاك قرنفلية الى فندق خارج المدينة ، ليعقد مؤتمرا صحفيا يقول فيه محاموه : « انه ضحية قسوة الشرطة ، وأنه ليس بقاتل ، ربما يكون منحلا ، لكن حتى هذه فقد اعتزم أن يغيرها ويسبب صبح تجارا في جيش الخلاص » • وعرض عليه أن يغنى (فهو يعزف على الجيتار) في ملهى ليلي في شيكاغو مقابل ٢٠٠٠ دولار في الاسبوع وربما عشرة آلاف دولار فلست أذكر ، كل ما أذكره أن هناك سؤالا يقفز الى عقل المشاهد أو القارئ هل كل ذلك نوع من العلاقات العامة ؟ أو الدعاية ، اكن. بالطبع لا • • فهناك فتاتان قد قتلتا ، وهناك أغنية تنتشر بين الناس للمتشرد الصعلوك ، وأعلنت إحدى الصحف عن مسابقة أسبوعية موضوعها « كيف تظن أن الأختين جريمز قد قتلتا ؟ » ورصدت جائزة لأحسن حل يراه الحكام ، وبدأت النقود تتدفق ، مئات التبرعات بدأت تصل للسيدة جريمز والدة الفتاتين من كل أنحاء الولاية ، لماذا هذه التبرعات ؟ ومن الذي يقدمها ؟ معظمهم متجهولون فقط هناك الدولارات ، مئات ، آلاف الدولارات ، وظلت صحيفة « سن تايمز » تزودنا بأجمالى المبالغ التي تم التبرع بها ، عشرة آلاف ، خمسة عشر ألفا ، الخ وبدأت السيدة جريمز فى إعادة اعمار بيتها ، وتقديم لها شخص يدعى سفارتز أو شولتز - لا أذكر بالضبط - وقدم لها مطبخا كاملا جديدا ، والتفتت السيدة جريمز والسعادة تغمرها الى ابنتها الباقية على قيد الحياة ، لتقول لها : « تخيلي وأنا فى هذا المطبخ » ، وأخيرا اشترت المزامير ببغاوين - أو ربما أهذاهما لها السيد شولتز - وتسمت أحدهما بابز والثانى باتى على اسم ابنتيهما ، بينما كان المتشرد - الذى

أشك أنه يعرف كيف يدق مسمارا بشكل سليم - قد سلم الى ولاية فلوريدا بتهمة اغتصاب فتاة فى الثانية عشرة من عمرها . بعد ذلك بقليل غادرت شيكاغو وكل ما أعلمه عن الموضوع أن السيدة جريمن قد فقدت ابنتيها وكسبت مغسلة أطباق وطائرين صغيرين .

ما هى الحكمة من هذه الحكاية ؟ ببساطة ان الروائي الأمريكى فى الثلث الأخير من القرن العشرين ، قد غلب عليه أمره ، فى محاولة للفهم والوصف ، ثم إبداع عمل معقول يعبر عن الواقع الأمريكى ، انه واقع يمرض ويذهل ويغيظ ، ويشكل نوعا من الحيرة لخيال المرء الضئيل . فالواقع الفعلى يتغلب دوما على موهبة الكاتب ، والحضارة الأمريكية تقذف كل يوم تقريبا بشخصيات يحسدونها عليها أى روائى ، من مثلا يمكن أن يبتدع شخصيات مثل شارلز فان دورين أو روى كوهين أو ديفيد شاين أو شيرمان آدمز أو برنارد جولدفن أو حتى ادوايت ايزنهاور ؟

منذ فترة استمعت معظم البلاد الى أحد مرشحي الرئاسة الأمريكية يقول شيئا معناه « اذا أحسستهم بأن السناتور كيندى على حق فانى أعتقد مخلصا أنكم يجب أن تصوتوا له ، واذا شعرتهم أنى على حق ، فبتواضع فانى أعتقد باخلاص أنه يجب عليكم أن تصوتوا لى ، والآن أنا أشعر من وجهة نظر شخصية مؤكدة أنى على حق » وهكذا .

ومع أن الأمر لم يبد كذلك لجموع الناخبين ، بل ومن السهل أن نسخر قليلا من السيد نيكسون صاحب ذلك القول ، لكن ليس ذلك هو الهدف الذى كلفت نفسى بسببه ايراد بعض ما قاله ، واذا عجب المرء فى البداية ، فانه يصاب بعد ذلك بدهشة تامة . لو كان ذلك إبداعا أدبيا ساخرا ربما بدا مقنعا ، لكن أن أشاهد ذلك على شاشة التليفزيون ، يقوله شخص حقيقى كحقيقة سياسية ، فانه عقلى يرفض استيعابه . كذلك ما تشيره بداخل المناقشات التليفزيونية ، من ضمن ما تشيره ، الحسد المهنى ، كل آليات الماكياج، ووقت المواجهة بين المرشحين، هل ينظر نيكسون الى كيندى وهو يرد عليه أو ينظر بعيدا . . كل هذا الإخراج بدا لى خياليا وسحريا وملهشا حتى اننى بدأت أتمنى لو أنى أنا الذى أبتدع كل ذلك ، لكن آنذاك لا يحتاج المرء أن يكون روائيا ، لأن شخصا ما ابتدع ذلك فعلا وأنه حقيقى وموجود بيننا .

والصباح اليومية ، تملؤنا بالغريب والمروع والممرض والباعث على اليأس أيضا « هل هذا ممكن ؟ هل يحدث هذا ؟ » . الفضائح والجنون ،

البلادة والورع ، الأكاذيب والضوضاء . . لقد كتب بنيامين ديموت منذ فترة في مجلة « كومينترى Commentary » يقول : « الشك العميق الموجود في عصرنا هو أن الأحداث والأفراد ليسوا واقعيين . وأن تلك القوة التي تغير مجرى العصر ، حياتي وحياتك ، هي في الواقع في اللامكان . وهناك على ما يبدو نوع من الانحدار العالمى نحو اللاواقعية » .

ليلة أول أمس - لاعطاء مثال حميد على الانحدار نحو اللاواقعية - فتحت زوجتى المذيع . فسمعت المذيع يعلن عن سلسلة من الجوائز المالية النقدية لأفضل ثلاث تمثيلات تليفزيونية مدة كل منها خمس دقائق كتبها الأطفال . انه من الصعب فى هذه اللحظات أن تجد طريقك الى المطبخ ، بعد أيام قليلة قال الناقد ادموند ويلسون بعد قراءته لمجلة « لايف life » : « انه لا ينتمى الى البلد الذى نتحدث عنه المجلة . وانه لا يعيش فى هذا البلد » . وقد فهمت ما يعنيه تماما .

أن يشعر روائي بأنه لا يعيش حقيقة فى بلده الذى تقدمه له مجلة « لايف » أو ما يراه ويخبره حين يخرج من بيته ، ليلبدو عائقا خطيرا يشغله . لأنه لمن سيكتب موضوعه ؟ وما هى الأرضية التى سيعمل عليها ؟ قد يظن المرء أن الروايات التاريخية بسخرية معاصرة ، ستكون لها الحصة الكبرى فى الاصدارات الروائية ، أو لا شيء . لا كتب . لكن مع ذلك يجد المرء اسبوعيا تقريبا وسط الكتب الأكثر رواجاً ، رواية تدور أحداثها فى نيويورك أو واشنطن أو ماماروتيك ، تتحرك شخصياتها وسط عالم من غسالات الأطباق وأجهزة التليفزيون ووكالات الاعلانات وتحقيقات مجلس الشيوخ ، ويبدو كل ذلك وكأن الكتاب يصدر عن روايات عن عالمنا المعاصر ، روايات مثل « الرجل ذو البذلة الصوفية الرمادية » لكاش ماکول ، أو « معسكر العدو » أو « التضحية والقبول » لمارجورى مورننج ستار وهكذا ، ولكن الجدير بالملاحظة أن كل هذه الكتب ليست جيدة ، ليس بسبب أن الكتاب ليسوا بالكفاءة فى تصوير رعب المشهد بحيث لا يناسبنى . بل على العكس . فهم مهتمون تماما بالعالم حولهم ، ومع ذلك فهم لا يتخيلون مدى الفساد والفظاظة والسوقية والخيانة فى الحياة الأمريكية العامة ، بعمق أكثر كالأذى يتخيلونه فى الشخصية الأمريكية ذاتها أى فى الحياة الأمريكية الخاصة . فكل القضايا عندهم لها حل ، ويرون أن الرعب أو الرهبة لا تصدمهم كما يصدمهم بعض الجدل الموضوعى . وكلمة « جدلى » هى كلمة عادية فى لغة النقد الأدبى كما هى فى لغة منتجى برامج التليفزيون .

وانه لشيء مزعج ، أن نرى كثيراً ، فى الروايات الأكثر رواجاً ، أن البطل يتوصل فى النهاية الى معرفة نفسه وما يريد ، وتجد فى مسرحية

على مسارح برودواي ، شخصا ما يقول : « لماذا لا يحب كل منكما الآخر ؟ »
ويضرب البطل على جبهته قائلا : « يا الهى ! لماذا لم أفكر بذلك من قبل ! »
وقبل أن يقع فعل الحب يكون كل شيء قد انهار : الحقيقة ، ومحاكاة
القصة للواقع ، والاهتمام . ذلك مثل « شاطئ دوفر » تنتهى بالنسبة
لماتيو ارنولد ولنا بسعادة ، لأن الشاعر يقف فى النافذة مع امرأة تفهمه !
إذا كان البحث الأدبى فى عصرنا سيكون فقط ملكا لأمثال هؤلاء الكتاب
أو لأولاد برودواي أصحاب عبارة « الحب يهزم كل شيء » فسيكون ذلك
من سوء الحظ مثلما نسلم أمور الجنس الى الاباحيين فقط .

لكن العصر لم يسلم أموره ، بعد ، كليا ، الى أصحاب العقول
والمواهب الضئيلة ، هناك نورمان ميلر Norman Mailer وهو مثل
منير لكاتب يتحدى به عصرنا هذا القرف الكبير ، وهو يتعامل معه روائيا
بما يعادل تعامله معه فى نقاط أخرى . لقد أصبح ممثلا فى دراما العصر
الثقافية ، التى تتمثل صعوبتها فى انها لا تتيح للمرء فرصة أن يكون
كاتبا ، فلكى تتحدى مثلا ، سلطات الدفاع المدنى وتجاربها الذرية ، فعليك
أن تضيع فرصة الكتابة صباحا ، وتخرج لتقف احتجاجا أمام مبنى
البلدية ، وإذا كنت محظوظا وقذفوا بك فى السجن . فستضيع ليلة خارج
البيت وصباح اليوم التالى أيضا . ولكى تتحدى « مايك والاس » أو
عدوانه اللاأخلاقى ، فعليك أن تكون أولا ضيفا فى برنامج ، وهكذا تضيع
عليك ليلة ، وقد تقضى أسبوعين تكره نفسك لأنك ذهبت ، وأسبوعين
آخرين لكتابة مقال تشرح فيه سبب ذهابك وكيف كان الأمر .

تقول شخصية فى رواية « وليم ستايرون » الجديدة : « انه عصر
السذج ، وما لم نحترس فسيجروننا الى الهاوية » . . . وجرنا الى الهاوية
قد يأخذ أشكالا عدة . لدينا مثلا كتاب « نورمان ميلر » المسمى « اعلانات
من أجل نفسى » وهو فى معظمه تسجيل لماذا فعل بعض الأشياء ؟ وكيف
فعلها ؟ ومن أجل من فعلها : أصبحت حياته بدىلا لرواياته . كتاب
يفيظ ، منغمس بالذات ، عادى يشبه معظم الاعلانات التى نعانى منها ،
لكن لو أخذناه ككل ، فهو مؤثر بدرجة كبيرة فى بوحه البائس ، وتبدو
عظمة الرجل فى أنه ترك القيام بهجوم خيالى على التجربة الأمريكية ،
ليصبح بطلا لنوع من الانتقام الشعبى . ومع ذلك فان ما يفعله البطل
يوما ما قد يكون سببا فى أن يصبح ضحية له فى اليوم التالى . ومن
كتب مرة « اعلانات عن نفسى » أرى أنه لا يمكنه أن يكتب مثله ثانية .
ومن المحتمل أن « ميلر » يجد نفسه الآن فى موقف لا يحسد عليه ،
اما أن يقدم واما أن يحجم ، من يدري ، ربما هو أراد أن يكون فى هذا
الموقف . شعورى هو أن العصر يكون صعبا على كاتب الرواية حين يكتب

مقالات الى جريدته بدل أن يكتب تلك الموضوعات المعقدة والموهمة الى نفسه
التي نسميها قصصا .

ولا أقصد بذلك أن أكون متكلفا في حكمي ، أو متواضعا أو كريما ،
فمهما تشكك المرء بطريقة ميلر ودوافعه ، فانه يتعاطف مع الدافع الذي
يقوده ليصبح ناقدًا أو محررا أو عالما للاجتماع أو صحفيا أو حتى عمدة
لنيويورك ، لأن ما هو صعب بالفعل في عصرنا هو الكتابة عن هذه الأشياء
كروائي و قصاص جاد . فالكثير قد تم انجازه ، وعلى أيدي الكتاب
أنفسهم ، في ضوء الحقيقة التي تقول ان الكاتب الروائي الأمريكي ليس
له احترام ولا منزلة أو مكانة ولا جمهور ، وأنا أشير هنا الى خسارة أكثر
أهمية للعمل نفسه ، خسارة أو فقدان الموضوع ، أو بمعنى آخر الانسحاب
التطوعي للروائي من الاهتمام ببعض الظواهر الاجتماعية والسياسية
الكبرى في عصرنا .

بالطبع ، هناك كتاب حاولوا التصدي لهذه الظواهر وجها لوجه ،
ولقد قرأت كتبا وقصصا كثيرة في السنوات القليلة الماضية فيها شخصية
أو أكثر تتحدث عن « القنبلة الذرية » ، ويتركني الحديث عادة أقل
اقتناعا ، وفي بعض الحالات يتعاطف مع الغبار الذري المتساقط . ان
الأمر يشبه الشخصيات في الروايات التي تدور حول الجامعة ، حين
يتحدثون في حوارات طويلة عن طبيعة الجيل الذي ينتمون اليه ، لكن
ماذا بعد ؟ ما الذي يمكن أن يفعله الكاتب بهذا الواقع الموجود ؟ هل
الامكانية الوحيدة أن تكون جريجوري كورسو وتحك أنفك بالموضوع فقط ؟
موقف جيل الغضب من الكتاب - اذا كان لهذه الجملة معنى - ليس
مرفوضا كليا ، فكل شيء نكتة ، حسب رأيهم ، لكن ذلك لا يقيم مسافة
بينهم وبين عدوهم اللدود ، فكلاهما وجهان لعملية واحدة ، لأن أمريكا
النكتة ليست الا أمريكا نفسها واقفة على رأسها ١٩

ربما أبالغ في طريقة استجابة الكاتب لمازقنا الثقافي ، وعدم قدرته
أو استعداده لأن يتعامل معه بشكل روائي ، ويبدو لي أن هناك القليل
في النهاية لنبرهن به بشكل مؤكد حول نفسية كتاب الأمة ، خارج كتبهم
نفسها ، وفي هذه الحالة ، لسوء الحظ ، فان حجم الدليل ليس في الكتب
التي صدرت بالفعل ، ولكن في تلك الكتب التي تركت دون اتصال ، أو لم
يعتبرها أصحابها تستحق محاولة الاكمال . ومع ذلك فهناك اشارات أدبية
معينة تؤيد فكرة أن الواقع الاجتماعي لم يعد موضوعا مناسباً أو قابلاً
للمعالجة الروائية كما كان من قبل .

لأبدأ هنا بكلمات عن كاتب العصر ، على الأقل بسبب صيته ، فان استجابة طلبة الجامعة لرواية ج . د . سالنجر تشير الى أنه أكثر من أى كاتب آخر مواجهة للعصر ، فهو لم يدر ظهره لعصره بل استطاع أن يضع أصابعه على الصراع ذى المعنى الذى يدور اليوم بين الذات والثقافة ، فروايتة « صياد فى حقل الجودار » *The Catcher in the Rye* وقصصه الأخرى التى تتعلق بعائلة « جلاس *Glass* » من المؤكد أن أحداثها تقع فى العصر الحالى ، لكن ماذا عن الذات ؟ ماذا عن البطل ؟

والسؤال ذو أهمية خاصة هنا ، فعند سالنجر أصبحت شخصية الكاتب أخيرا على خط واحد مباشر مع رؤية القارئ ، أكثر من أى كاتب آخر من معاصريه . ونشأت علاقة بين موقف الراوى فى كتاباته وبين الروائى نفسه .

لكن ماذا عن أبطال روايات سالنجر ؟ ان هولدن كولفيلد بطل رواية « صياد فى حقل الجودار » ينتهى أمره فى مصحة مكلفة ، وسيمور جلاس ينتحر فى آخر الأمر ، لكن قبل ذلك كان قرّة عين أخيه ، ولم كان كذلك ؟ لأنه تعلم أن يعيش فى هذا العالم ، ولكن كيف ؟ ألا يعيش فيه . عن طريق تقبيل باطن أقسام الفتيات والقساء الحجارة على رأس محبوبته ، واضح أنه قديس ، ولكن بما أن الجنون غير مرغوب عند معظمنا ، والرهبة غير واردة ، فانه لم يجب على كيفية الحياة فى هذا العالم الا اذا كانت الاجابة اننا لا نستطيع ، والنصيحة الوحيدة التى نحصل عليها من سالنجر هى أن نكون سعداء ونحن فى طريقنا الى صفيحة الزبالة . بالطبع ، فان سالنجر ليس مضطرا أن يقدم نصائح من أى نوع للقراء أو الكتاب ، ومع ذلك فانى أشعر أكثر وأكثر بمزيد من الفضول حول هذا الكاتب الحزين ، وكيف أبدع شخصية « بدي جلاس » الذى تدبر أمره وعاش حياته وسط أذرع الجنون .

تكن فى أعمال سالنجر فكرة أن الصوقية طريق ممكن للخلاص ، على الأقل ، بعض من شخصياته تستجيب جيدا لايمان دينى عاطفى مكثف ، ولأن قراءاتى فى فلسفة الزن الهندية ضئيلة ، فان ما فهمته من سالنجر أنه كلما تعمقنا أكثر فى هذا العالم ، استطعنا أن نبتعد عنه أكثر . لأنك اذا تأملت حبة البطاطس مدة طويلة جدا ، فانها تفقد كونها حبة بطاطس بالمعنى العادى ، ولكن لسوء الحظ فان علينا ان نتعامل مع هذا العالم بالمعنى العادى من يوم ليوم . ويبدو لى فى معالجات سالنجر لشخصياته فى قصصه ورواياته أن هناك ازدراء للحياة كما نعيشها فى عالمنا الحالى ، وأن هذا المكان والزمان قد صورا وكأنهما لا يساويان شيئا

عند هذه القلة التمينة من الناس الذين وجدوا فيه فقط كى يصيبهم الجنون أو تدمر شخصياتهم .

وهناك ازدراء لعالمنا - وان كان بشكل مختلف - يحدث فى أعمال واحد من أكثر كتابنا موهبة : برنارد ملامود . حتى وهو يكتب روايته « الطبيعى » حول لعبة « البيسبول » ، فهى ليست اللعبة التى تلعب فى الملاعب الأمريكية ، ولكنها مباراة متوحشة حمقاء . يترك فيها اللاعبون الكرة ليتصارعوا صراعا وحشيا ، وبرغم أن رواية الطبيعى ليست أنجح أعمال ملامود ، لكنها تقدمنا لعالمه الذى هو نسخة طبق الأصل من عالمنا . هناك أشياء فى الواقع تدعى لاعبي البيسبول ، وهناك أشياء واقعية تدعى باليهود ، وهناك تشابه فى الأهداف النهائية . فاليهود فى مجموعة « البرميل السحري » أو فى رواية المساعد ليسوا هم يهود نيويورك أو شيكاغو . انهم يهود من ابتكار ملامود . استعارات لأنواع مختلفة من البشر لتدل على وعود واحتمالات معينة ، وأنا أميل لتصديق ذلك ، خاصة حين أقرأ مقولة ترجع الى ملامود تقول : « كل الرجال يهود » ، ونحن ندرك فى الواقع ان ذلك ليس صحيحا ، فحتى اليهود لا نستطيع أن نتأكد اذا كانوا يهودا أم لا ، لكن ملامود كروائى ، لم يبد اهتماما خاصا بفساد وقلق ومأزق اليهودى الأمريكى المعاصر ، ذلك الذى تعتبره ممثلا للعصر ، ويعيش فى كآبة دائما ، ومكانه اللامكان ، فى مجتمع ليس مرسرا ، وسط أزمة ليست ثقافية .

أنا أقول ، ولا أستطيع قول ذلك بالنسبة للامود - انه ازدرى الحياة ومصاعبها ، وما يجعله انسانيا ، وما يجعله حنونا هو اهتمامه العميق ، ما أود أن أشير اليه أنه لم يجد - أو لم يجد بعد ، المشهد المعاصر ، أو الستارة الصحيحة المقنعة التى يعرض عليها رواياته عن وجع القلب والقسوة والمعاناة والانبعاث الجديد .

ولا يمكن للامود أو سالنجر أن يتحدثا نيابة عن كل كتاب أمريكا ، وبالتالي فان استجابتهما للعالم من حولهما - ما اختارا أن يؤكدوا عليه أو يتجاهلاه - تهمنى لأنهما روائيان من أفضل الروائيين .

بالطبع هناك الكثير من الكتاب القادرين أيضا ، الذين لا يساقرون على الشرق نفسها ، وحتى وسط هؤلاء الآخرين أتساءل لماذا لا يمكن مشاهدة استجابة للعصر حتى أقل درامية من الروابط الاجتماعية عند سالنجر ولامود .

دعنا ننتقل الى قضية أسلوب النشر . لماذا كل هذه الضجة المثاره فجأة من الجميع حول الأسلوب ؟ أولئك الذين يقرءون سول بيلو ،

وهربرت جولد ، وآرثر جرانيث ، وتوماس برجر ، وجريس بيلي يدركون ما أشير اليه • لقد كتب « هارفي سوادوس » في مجلة « هيدسون ريفيو » منذ فترة قريبة قائلاً انه رأى تطور ونمو نشر عصبي بليغ يناسب تماماً مقتضيات عصر يبدو للوهلة الأولى مربعاً وساخر ، وذلك على يد كتاب من سكان المدن ، معظمهم من اليهود ، تخصصوا في كتابة نوع من النشر الشعري الذي يعتمد في تأثيره على كيفية صياغته أو كيفية وجوده على الصفحة المطبوعة أكثر من اعتماده على الموضوع الذي يعبر عنه • وهذه مخاطرة في عملية الكتابة ، وربما في هذه المخاطرة تكمن إمكانية التفسير • وأنا أود هنا أن أقارن بين فقرتين قصيرتين وصفيتين ، أحدهما من رواية سول بيلو « مغامرات أوجي مارش » والأخرى من رواية هربرت جولد الجديدة « اذن كن جسوراً » على أمل أن نستفيد من الاختلافات التي نكتشفها •

وكما أشار العديد من القراء ، فإن لغة « أوجي مارش » تضفر التعقيد الأدبي مع المحادثة السهلة ، وتربط المصطلحات الأكاديمية مع تعبيرات الشوارع (بعض الشوارع) ، أسلوبها خاص ومتميز ، حيوي وأحياناً قد يكون متفككا ، وهو على العموم يخدم عبقرية سول بيلو ، خذ مثلاً وصفه للجنة لاوش :

« بمبسم السيجارة في فمها الأدرد الأسمر الصغير ، حيث تصدر أوامرهم ومكرها وسوء نيتها ، كان لديها أفضل الأفكار عما تريد ، كانت مجمعة كحقيبة ورقية قديمة ، مستبدة ، سفسطائية ، ناشفة الرأس ، كضفر بلشفي عجوز ، قدمها الصغيرتان المربوطتان بشريط رمادي ، ثابتتان على مسند الحذاء والكرسي الطويل اللذين صنعهما سيمون في فصل التدريب اليدوي ، والكلب وينى ذو الصوف القذر الذي ملأت رائحته العفنة الشقة يقعد على الكنب بجانبها • وإذا كان الظرف والسخط لا يتفقان بالضرورة • فذلك ما لم أتعلمه من المرأة العجوز • »

وكذلك فإن لغة هربرت جولد لغة خاصة وحيوية بشكل واضح ، ويلاحظ المرء في الفترة التالية من رواية « اذن كن جسوراً » أن الكاتب يبدأ أيضاً ، بإدراك التشابه الجسماني بين الشخصية التي يصفها وبين شيء كرهه ، ومن هنا ، كما في فقرة بيلو السابقة ، يحاول من خلال الجسد اكتشاف طبيعة النفس • الشخصية الموصوفة هنا تدعى « تشك هاستنجز » :

« هو يشبه المومياء من بعض النواحي • الجلد الأصفر الذابل ، اليدان والرأس على الجسيم المنهك كبيرة الحجم • محجر العينين الغائر

بالفكر فيما وراء النيل ، ولكن تفاحة آدم النحيفة واصبعه التي يحركها مهتما بالأمر ، جعلاه أشبه بالسباح في بحر الجحيم ، كلب يجذف متجها الى الآثار القبطية المنسية ، لا كتلميذ مثقف في مدرسة عليا يخجل من الفتيات الصغيرات ذوات العيون المستديرة » . أولا النحو هنا محير . « محجر العينين الغائر بالفكر فيما وراء النيل » ، هل الفكر هو الذي فيما وراء النيل ، أو أنه خاص بمحجر العينين ؟ ثم ماذا تعنى فيما وراء النيل على كل حال ؟ هذا التعقيد النحوي لا نجده في وصف سول بيلو الساخر ، انه يصف العجوز بالمستبعدة والمتزمتة والسفسطائية كصقر عجوز بلشفي - وصف خيالي بالتأكيد ، خشن لكنه دقيق وغير استعراضي . ومن الثاني نرى أن « تفاحة آدم النحيفة واصبعه الممتدة جعلاه أشبه بـ كلب يجذف في اتجاه الآثار القبطية المنسية » الخ ، هل اللغة هنا في خدمة السرد أو التردى الأدبي في خدمة الأنا ؟

في مراجعة حديثه لرواية « اذن فلتكن جسورا » استشهد الناقد جرانفل هيجز بالفقرة نفسها التي اخترتها لمذح أسلوب هيربرت جولد ، فيقول : « هذا وصف على درجة عالية من الجودة والمهم أن جولد يواصله ويستمر فيه على طول الرواية » .

التلاعب اللفظي الجنسي في الرواية ليس مقصودا بحد ذاته ومع ذلك فهو يذكرنا بأن الاستعراضية والحب ليسا شيئا واحدا . مو لدينا هنا ليس قوة الاحتمال والحيوية والصبر ، ولكن الواقعية تجلس في المقعد الخلفي للشخصية ، وليست الشخصية المتخيلة ، ولكن الكاتب الذي يقوم بالتخيل . فوصف بيلو صادر عن قوة قبضة الكاتب على شخصيته ، ولكن عند جولد يبدو لي أن هناك شيئا آخر . . فهو موجود في نصه كأنه يقول لك . . انظر الى . . أنا أكتب .

وجهة نظري هنا أن هذا النثر العصبى العضلي الذي يتحدث عنه « سوادوس » ربما له صلة بالعلاقة غير الودية بين الكاتب وثقافة عصره . يرى « سوادوس » أن النثر يناسب العصر وأنا أتساءل وأرى انه لا يناسبه على الأقل جزئيا ، لأنه يرفضه . ان الكاتب يقذف أمام أعيننا - بأسلوبه المتميز - بكل مميزات الشخصية وعيوبها ، وبالطبع فان غموض الشخصية قد لا يكون الا اهتمام الكاتب الأساسي ، وبالتأكيد حين يكشف النثر البليغ عن شخصية ما وبيئتها المثيرة للعواطف ، - كما في رواية أوجي مارش - يمكن أن يكون ذا تأثير رائع ، وفي أسوأ الحالات كشكل من أشكال الاستمناء الذاتي الأدبي Literary Onanism ، فانه يستبعد الامكانيات الخيالية ، وقد يبدو كعرض لفقدان الكاتب علاقته بالمجتمع ، أو بما هو

خارج نفسه فى الموضوع الذى يكتب عنه • ويمكن فهم الأسلوب الحيوى
النشط بطرق أخرى أيضا • وانه ليس من المدهش أن كل الروائيين
الذين أشار اليهم « سوادوس » من اليهود ، فحين يشعر الكاتب أنه
لا تربطه علاقة وثيقة بلورد شسترفيلد يبدأ فى الإدراك بأنه ليس مضطرا
بالفعل أن يكتب بطريقة ذلك الأسلوبى العتيق المتميز ، وأنه من الأفضل
أن يكتب بأسلوب مرن عصرى ، ثم هناك مسألة اللغة المنطوقة التى يسمعها
هؤلاء الكتاب على لسان رجال الدولة • وفى المدارس ، والمنازل والكنائس
والمعابد • ويمكننى أنؤكد بأنه حين يكون الأسلوب ليس محاولة لبليلة
القارىء ، ولكن لسمج الايقاع والفروق الدقيقة ولغة المهاجرين فى النشر
الأدبى الأمريكى ، فقد تكون النتيجة لغة رقيقة دقيقة خصبة ومؤثرة ،
ممزوجة بنوع من السحر والسخرية ، كما فى كتاب جريس بيل « مزعجات
الانسان الصغيرة » •

ولكن هناك نقطة أخرى مهمة ، سواء أكان الروائى هو سول بيلو
أم هربرت جولد أم جريس بيل ، نقطة تتعلق بهذا الأسلوب المرن : انه
يعبر فى النهاية عن السعادة • فاذا كان عالما غير حقيقى ومتفسخ كما
أشعر أنه يغدو يوما بعد يوم ، واذا كان المرء يشعر بأنه يفقد مقاسومته
تدرجيا فى مواجهة هذا العالم الزائف ، واذا كانت النهاية الحتمية هى
الدمار ، اذا لم يكن للحياة كلها فللكثير مما هو ثمين ومتحضر فيها ، اذن
لماذا بالله عليكم يشعر الكتاب بالسعادة ؟ لماذا لا يودع كل أبطال الروايات
الخيالية فى مصحات كما حدث لهولدن كولفيلد ؟ أو ينتحرون كسيمور
جلاس ؟ لماذا معظم هؤلاء الأبطال ينتهون بالتاكيد على ايجابية الحياة ؟
الجو معبأ بكثافة لتأكيد الايجابية ، ومنحصر بلا شك على حصتنا
السنوية من مجلة لايف فى عرضها ودعوتها لهذه الروايات الايجابية ،
وفى الواقع أن كتبا كثيرة تصدر لكتاب جادين تنتهى بشكل احتفالى ،
ولا يقتصر مسرحها على نغمة أو أسلوب الرواية بل على أخلاقياتها أيضا •
ففى رواية « المتفائل » وهى رواية أخرى لجولد فان بطلها بعد أن أخذ
نصيبه يصرخ فى آخر سطر من الرواية « أكثر أكثر أكثر » ، فى رواية
كيرتز هارناك « صنعة يد قديمة » تنتهى بالبطل وهو مملوء بالطرب
والنشوة والأمل ، ويقول بصوت عال « آمنت بالله » • وفى رواية سول
بيلو « هندرسون ملك الأمطار » خصصت كلها للاحتفال بانبعث قلب
ودم وصحة البطل من جديد • ومع أن الرواية لها أهمية خاصة ، الا أننى
أعتقد ان انبعث البطل فيها يحدث فى عالم خيالى تماما ، ان المكان ليس
افريقيا الصاخبة التى نقرأ عنها فى الصحف ، وتدور حولها
المناقشات فى الأمم المتحدة ، فلا يوجد هنا شيء عن القومية ، أو الطقوس
الافريقية أو التفرقة العنصرية ، والتساؤل لماذا ينبغى أن يوجد ذلك ؟

فهناك العالم وهناك الذات ، وحين يلتفت الكاتب الى الذات ، فكل انتباهه وموهبته تنكشف له بوجودها المكثف وتصرخ فيه أنا حقيقية ، أنا موجودة ، ثم تلقى بنظرة طويلة لطيفة اليه قائلة وأنا جميلة ، فلماذا يلتفت الى العالم اذن ؟

فى نهاية رواية سول بيلو فان بطله هندرسون وهو مليونير ضخم قدر ، يعود الى أمريكا من رحلة الى أفريقيا حيث كان هناك يقاوم الطاعون ويروض الأسود ويصنع المطر ، يعود ومعه أسد حقيقى ، وعلى متن الطائرة يتصادق مع غلام ايزابى لا يفهم لغته ، وحين تهبط الطائرة فى « نيوفوندلاند » يأخذ هندرسون الولد بين ذراعيه ويهبط من الطائرة و « يدور ويدور راكضا حول جسم الطائرة اللامع الجاثم وراء عربات الوقود . وجوه سوداء كانت تتطلع من الداخل ، المراوح الكبيرة الجميلة كانت ثابتة . المراوح الأربع ، وشعرت بأن على أن أتحرك ، وهكذا مضبت جريا ، قفزا ، قفزا ، يدق بقدمه ويشعر بوخز فوق الخطوط البيضاء الناصعة للصبغ الرمادى للقطب الشمالى » .

وهكذا ، نترك هندرسون ، وهو سعيد جدا وأين ؟ فى القطب الشمالى . ظلت هذه الصورة عالقة بذهنى منذ قرأت الكتاب ، رجل يجد المرح والفرح فى أفريقيا متخيلة ويحتفل بذلك فى منطقة شاسعة محاطة بالثلج غير مسكونة !

فى رواية ستايرون Styron الجديدة « أشعلوا هذا البيت » فان بطله يشبه بطل بيلو ، فهو يحدثنا عن إعادة انبعاث شخص أمريكى ترك بلده فترة ليعيش بعيدا ، لكن بينما عالم هندرسون وحشى وغريب عنا ، فان عالم كينسولفنج بطل ستايرون يسكن مكانا نعرفه تماما . الرواية مملوءة جدا بالتفاصيل حتى انها بعد عشرين عاما ستحتاج الى هوامش كثيرة حتى يتمكن القراء من فهمها جيدا . البطل رسام أمريكى يأخذ عائلته ليعيش فى مدينة صغيرة على ساحل « أمالفى » . البطل يحتقر أمريكا ويحتقر نفسه ، وخلال الكتاب كله يتعرض البطل لتهكم واهانة واغراء زميل ريفى قاس وغبى ، ولطبيعة العلاقة بينهما ، فان البطل يقضى معظم رحلته فى الرواية يختار بين الحياة أو الموت ، وعند نقطة معينة ، وفى نغمة تمثيلية ، يتحدث البطل عن اغترابه وهجرته قائلا : « الرجل الذى جئت الى أوروبا لأهرب منه (لماذا هو ؟) ، الرجل الذى يظهر فى كل اعلانات السيارات ، أنت تعرفه ، ذلك الذى يلوح بيده هناك - يبدو جميلا ومتعلما وكل شيء ، بابتسامة بعرض لوحة الاعلانات على الطرق ، وينذهب الى أماكن ، أعنى الكترونيات ، سياسة . ماذا يسمون المواصلات ؟

اعلانات • مبيعات ، الفضاء الخارجي ، والله يعلم ماذا أيضا ، وهو جاهل
كفلاح البستاني » •

وبالرغم من استمرازه بما تفعله الحياة الأمريكية العامة بحياة
الانسان الخاصة ، فانه مثل هندرسون يعود الى أمريكا في النهاية مؤثرا
الوجود • ولكن أمريكا التي وجدها تبدو لي أنها أمريكا طفولته (بطريقة
استعارية) بل وأمريكا طفولة كل واحد منا ، وهو يحكى قصته بينما
يصطاد في قارب في نهر كارولينا ، وجاءت نهاية روايته ليست كما عند
جولد في طلب بطله الحصول على المزيد « أكثر أكثر » أو نهاية سامية كما
عند هارناك « آمنت بالله » أو مرحلة مثل تواب هندرسون على أرض
مطار نيوفوندلاند ، يقول بطله كنسولفنج : « أتمنى لو استطعت اخباركم
أنى قد وجدت بعد الايمان بعض الصخور •• لكن لكى أكون صادقا
فانى أقول لكم : بالنسبة للوجود أو العدم فان الشيء الذى عرفته اذا
خيرنا بينهما أن نختار ببساطة الوجود • الحياة • ليس أين يعيش المرء
أو مع من يعيش •• ولكن فقط أن يعيش » •

وماذا يضيف ذلك إلينا ؟ من القسوة والتبسيط الشديد أن نرى
أن الفن الروائي عند بيرو وجولد قد نشأ بشكل لا يمكن تجنبه نتيجة
لمازقنا الثقافى والسياسى المحزن • ومع ذلك فان المازق العام الذى نحن
فيه مكرب ، ويضغط على الكاتب ربما أكثر من جاره ، لأن المجتمع بالنسبة
للكاتب هو الموضوع والجمهور ، وحين يتبع هذا الوضع ليس فقط مشاعر
الاستمزاز والقرف والغشيان والغضب والكآبة بل أيضا مشاعر العجز ،
فانه خلى بالكاتب أن تشبط همته ويتحول نهائيا الى أمور أخرى ، فيبنى
عوالم خيالية تماما ، وقيم احتفالية لذاته ، التى قد تصبح بطرق مختلفة ،
موضوعه المفضل ، والدافع الذى يقيم عليه حدود تقنيته • وما أحاول
أن أشير إليه أن رؤية الذات كشىء حصين وقوى ، ذات متخيلة كالشئ
الحقيقى الوحيد فى بيئة تبدو غير حقيقية ، أعطت بعض كتابنا المرح
والراحة والعزاء والصحة ، وبالتأكيد فان دخول صراع شخصى جاد من
أجل أن تعيش فقط أمر لا يوضح لنا أى شئ ، وربما لهذا السبب
يحاول بطل ستايرون أن يشد تعاطفنا معه حتى النهاية • وما زال الأمر
إذا كان الكائن الحى لا يستطيع الاختيار الا أن يكون زاهدا ، وحين لا يمكن
الاحتفاء بالذات الا بإبتعادها عن المجتمع ، أو بحياتها فى عوالم خيالية ،
اذن فليس لدينا كثير من الأسباب التى تدفعنا لنكون سعداء •

وأخيرا ، هناك شئ غير مقنع بالنسبة لى حول انبعاث هندرسون
على الخطوط البيضاء الناصعة للعالم ، راقصا حول طائرة لامعة ، وهكذا

فليس بهذا الشهيد ينبغي أن أنهى مقالى هذا ، ولكن بدل ذلك أقدم صورة
بطل رالف اليسون فى نهاية روايته « الرجل الخفى » ، فهنا أيضا قد
ترك البطل مع الحقيقة البسيطة العارية لنفسه . هو وحيد كما يجب أن
تكون وحدة الانسان ، ليس لأنه لم يسح فى هذا العالم ، بل لأنه قد ساح
فيه وساح وساح . ولكنه اختار فى النهاية أن ينزل تحت الأرض ،
ليعيش هناك وينتظر ، ولم يبد له ذلك مدعاة للاحتفال أيضا .

الرواية كبحث

ميشيل بوتور

الرواية شكل خاص من أشكال السرد .

والسرد القصصى ظاهرة تتجاوز مجال الأدب بكثير ، فهو أحد المقومات الأساسية لفهمنا للواقع ، فمنذ نبدأ فى فهم الكلام وحتى موتنا ، فإن القصص تحيطنا بشكل دائم ، فى الأسرة والمدرسة ، خلال لقائنا مع الآخرين وعبر القراءة .

وما نعرفه عن الآخرين ، لا نستقيه فقط مما رايناه بعيوننا ، بل أيضا بما أخبرنا به البعض عنهم ، وبما أخبرونا به هم عن أنفسهم ، كما لا يقتصر الأمر على الذين نعرفهم ، بل أيضا على كل من وصلتنا أخبارهم ، يسرى على الأشياء والأماكن كما سرى على الناس .

هذا السرد القصصى الذى يحيطنا يتخذ أشكالا مختلفة ، من التقاليد العائلية حين نتبادل الحديث على العشاء حول ما فعلناه خلال اليوم ، الى التقارير الصحفية أو الأعمال التاريخية وغيرها ، وكل هذه الحكايات الحقيقية التى نسمعها تشترك فى خاصية واحدة وهى أنها جميعا يمكن التحقق من صدقها أو كذبها ، عن طريق اللجوء الى مصدر آخر للمعلومات حولها ، ألا اذا كان المرء يتعامل مع معلومة خاطئة أو عمل روائى .

ووسط كل هذه الحكايات التى تكون قسما كبيرا من عالمنا ، هناك حكايات يختلقها البعض عمدا ، واذا أردنا تجنب سوء الفهم ، فيجب أن نضع تصنيفا معيناً للأحداث المختلفة لنميزها عن تلك التى تحدث فى الواقع ونراها بأعيننا . آنذاك يمكننا التعامل بسهولة مع الأدب والخيال والأساطير والحكايات وما شابه ، فالروائى يقدم لنا أحداثا تشبه أحداث حياتنا اليومية ، ويحاول أن يضيف عليها مظهر الواقع بقدر ما يستطيع ، مما قد يصل به الى درجة الخداع كما يقول ديفو .

لكن ما يرويهِ الروائي لا يمكن التحقق من صحته ، وبالتالي فإن ما يقوله يتخذ مظهر الحقيقة فقط ، فإذا قابلت صديقا وحدثني بحكاية غريبة ، فانه كى يقنعني بصحتها يردد على مسامعي أن فلانا وفلانا كانوا ستهودا على ذلك . من ناحية أخرى فانه فى اللحظة التى يضع فيها الكاتب كلمة « رواية » على غلاف كتابه ، فانه يعلن أن من العبث التحقق من صحة أحداث ما يرويهِ ، وأن اقتناعنا بشخصياته يقتصر على ما يرويهِ لنا عنها ، حتى لو كانت موجودة فى الواقع .

لنفترض أننا عثرنا على رسالة أرسلها شخص لآخر يخبره فيها أنه يعرف « الأب جوريو » معرفة جيدة ، وأنه لا يشبه على الإطلاق تلك الشخصية التى وضعها « بلزاك » فى روايته ، وأن هناك أخطاء فادحة فى الصفحات رقم كذا وكذا ، فإن ذلك لا يشكل أهمية بالنسبة لنا ، فإن الأب جوريو هو ما وصفه لنا بلزاك (وكل ما يمكننا قوله عنه لا يتعدى ذلك الوصف) ، لكن قد نرى أن بلزاك قد أخطأ فى حكمه على الشخصية التى ابتدعها ، أو نزع أن الشخصية قد أفلتت منه ، ونبرر ذلك فقط بالرجوع الى النص الذى ورد فى الرواية وليس لأى شاهد آخر خارج العمل نفسه .

وبينما تعتمد الحكاية الحقيقية ، دائما ، على وقائع خارجية واضحة ، فإن الرواية تخلق الأحداث التى ترويها لنا ولا يمكن ان نطبق عليها الوقائع الخارجية الفعلية ، ولذا فالرواية هى أفضل الأجناس الأدبية لدراسة كيفية تحول الواقع الى خيال ، وهى تعتبر بحق مختبر السرد الروائى للأحداث :



وبالتالى فإن الاهتمام بالشكل الروائى يتطلب أهمية كبرى .
وحين تصبح الرواية كلاسيكية ولها جمهورها ، فانها تصنف وتنظم حسب مبادئ معينة (ينطبق هذا على ما يعرف اليوم بالرواية التقليدية) . ان فهمنا الأولى للشكل الروائى ، قد حل محله مفهوم آخر ، أقل غنى ، ويرفض بشكل منهجى جوانب معينة ، ليغطى بالتدرج التجربة الحقيقية ، ليحل نفسه محلها ، محققا فى النهاية خدعة عامة .

ان دراسة الأشكال المختلفة للرواية ، تساعدنا فى أن نكتشف ما هو عارض أو طارئ فى الشكل الروائى ، بحيث يمكننا أن نعرية ، ونحرر منه ، ويسمح لنا بإعادة اكتشاف ما يخفيه أو يحاول تمريره

ضمنا : وهو الشكل الحقيقي لما يجب أن يكون عليه السرد القصصى
الأساسى الذى يغمر حياتنا كلها .

وبما أن الشكل الروائى هو مسألة اختيار فى النهاية (لاحظ أن
الأسلوب هو أحد أركان الشكل ، فهو الوسيلة التى تربط جزئيات الكلام
بالحدث ، وهو الذى يحدد سبب اختيار كلمة ما أو عبارة بدل أخرى)
فإن الأشكال الجديدة للرواية ستكشف عن أشياء جديدة وعلاقات جديدة
فى الواقع الفعلى ، ومن الطبيعى أنه كلما ازداد تأكيدنا واستخدامنا لهذه
الأشكال الروائية المترابطة داخليا نسبة الى الأشكال الأخرى ، فإنها تصبح
دقيقة جدا ومناسبة تماما .

وليس معنى ذلك أن نتفق على شكل واحد معين للرواية ، بل على
العكس ، فإن الوقائع المختلفة التى تعالجها الروايات يجب أن تتوافق
معها أشكال مختلفة من السرد الروائى . فمن الواضح الآن أن العالم الذى
نعيشه يتغير بسرعة كبيرة ، وتقنيات السرد الروائى التقليدية لم تعد
قادرة على استيعاب كل العلاقات الجديدة الناشئة عن هذا التغير ، ويؤدى
هذا الى الاحساس بقلق دائم ، ويصبح من المستحيل على وعينا ان ينظم
كل المعلومات الهابطة عليه ، لأنه يفتقد الأدوات المناسبة لذلك .

لذا فإن البحث عن أشكال روائية جديدة ذات قوة استيعابية كبيرة ،
يلعب دورا ثلاثيا فى علاقته بوعينا وبالواقع حولنا من ناحية تعريته
وتوضيحه ، ثم اكتشافه ومن ثم تطويره .

إن الروائى الذى يفرض القيام بذلك ، ويرفض نبذ العادات القديمة
فى القرض ، ولا يطلب من قارئه جهدا خاصا عند قراءته للعمل ، ولا يواجه
نفسه ويتساءل حول صحة بعض المواقف التى اكتسبت ثباتا لمدة طويلة ،
سيتمتع بنجاح سريع ، ولكنه يصبح متواطئا فى خلق ذلك القلق العميق ،
وذلك الظلام الذى نتخبط فيه ، ويزيد من تحجز استجابتنا للجديد ،
ويصعب علينا صحتنا ، ويشارك فى خنق وعينا ، وحتى لو كانت ثباته
سليمة ، فإن عمله فى النهاية لن يكون سوى سم زعاف .

إن الابتكار الشكلى فى الرواية ، لا يناقض الواقعية على الإطلاق ،
كما يدعى بعض قصار النظر من النقاد ، بل إنه شرط ضرورى للوصول
لواقعية أكبر .

ولكن علاقة الرواية بالواقع الذي يحيطنا ، لا تقتصر على حقيقة أن ما تقدمه لنا ما هو الا جزء خادع من ذلك الواقع ، معزول تماما ويمكن دراسته عن قرب بسهولة . ان الفرق بين أحداث الرواية وأحداث الحياة الواقعية لا يقتصر على أننا نستطيع التثبت من أحداث الحياة الواقعية ، بينما لا نعرف حقيقة أحداث الرواية الا من خلال النص الذي قدمها لنا ، بل في أن أحداث الرواية أكثر تشويقا من الأحداث الحقيقية ، فوجود هذه الروايات يلبي حاجة ويحقق هدفا . والأشخاص الخياليون في الروايات يملأون فراغا في واقعنا ويضيئون لنا بعض جوانبه .

كما أن إبداع الرواية لا يشكل حلم يقظة لكاتبها فقط ، بل للقارئ أيضا ، ومن هنا جاء تأثير الرواية الكبير بالتحليل النفسي . ومن ناحية أخرى ، اذا رغبت أن أشرح نظرية ما سواء أكانت نفسية أم اجتماعية أم أخلاقية أو مهما كانت ، فمن المقنع ، في الغالب ، أن أضرب مثلا من عمل روائي . ان شخصيات العمل الروائي ستوضح ما أريد قوله بشكل تام ، كما سأتعرف على هذه الشخصيات بين أصدقاء ومعارف ، حيث يمكنني توضيح سلوكهم بالاعتماد على مغامرات وتصرفات هذه الشخصيات الروائية وهكذا .

ان تطبيق الرواية على الواقع ، مسألة معقدة تماما ، وان واقعية الرواية ، وكونها تقدم جزءا وهميا لحياتنا اليومية ، هي أحد جوانب هذا التطبيق . وهو الجانب الذي يسمح لنا بتصنيف الرواية كنوع أدبي .

وانى أطلق كلمة « رمزية » في الرواية على مجموعة ما تصفه وتصوره من علاقات تتعلق بالواقع الذي نعرفه . هذه العلاقات ليست واحدة في كل الروايات ، ويبدو لي أن وظيفة الناقد الأساسية ، هي تحليل هذه العلاقات وتوضيحها ليتمكن القارئ من استخلاص الدروس الكاملة لكل عمل أدبي .

ولكن ، بما أننا عند إبداع رواية ما ، ثم عند إبداعها ثانية بقراءتها قراءة واعية ، نتعرض الى نظام معقد من العلاقات ذات المعاني المتعددة ، فإذا حاول الروائي مخلصا إشراكنا في تجربته ، واذا بلغت واقعيته درجة كبيرة من الدقة ، واذا كان الشكل الذي يستخدمه مناسباً تماما لموضوعه ، فإنه بالضرورة سيأخذ في اعتباره هذه النماذج من العلاقات المتباينة داخل عمله . ان الرمزية الخارجية لرواية ما تهدف أساساً الى الانعكاس الى رمزية داخلية ، وذلك حين تلعب بعض الأجزاء بعلاقتها بالعمل ككل ، الدور ذاته الذي يلعبه العمل ككل في علاقته بالواقع .

وهذه العلاقة العامة بالواقع التي تقدمها الرواية لحياتنا التي نعيشها هي بوضوح العلاقة التي تحدد ما نسميه عموما بموضوع الرواية الذي يبدو كاستجابة لحالة معينة من الوعي . وهذا الموضوع لا يمكن فصله عن الطريقة التي يقدم بها ، ولا عن الشكل الذي اتخذته الرواية للتعبير عنه ، ولا عن حالة الوعي الجديدة التي أفرزته ، أو حالة الإدراك لماهية الرواية ، وعلاقتها بالواقع ، ووضعها بالنسبة للموضوعات الجديدة ، والأشكال الجديدة على كل المستويات : اللغوية والأسلوبية والتقنية والتأليف والبنية .

وعلى العكس أيضا ، فإن البحث عن أشكال جديدة يكشف بالتالي عن موضوعات جديدة وعلاقات جديدة ، وبعد تفكير قليل ، نجد أن الواقعية والشكلية والرمزية في الرواية تبدو وكأنها تكون وحدة واحدة ، والرواية بطبيعتها تهدف الى توضيح نفسها ، ويجب أن تفعل ذلك ، لكننا نعرف أن هناك بعض حالات الوعي التي تتصف بعدم القدرة على الانعكاس على ذاتها لتوضيحها ، حالات تقوم فقط على وهم تدعيه ، وإلى هذه الحالات ينتمي الروائيون الذين يرفضون التساؤل حول طبيعة عملهم أو صلاحية الأشكال التي يستخدمونها ، هذه الأشكال التي لا يمكن أن تنعكس على ذاتها دون أن تكشف ، على الفور ، تصورها وعدم مناسبتها وصدقها ، هذه الأشكال الروائية التي تقدم لنا صورة للواقع تناقض بشكل صارخ الواقع الذي اعتمدت عليه ، وتحاول أن تتجاوزه بصمت . هناك خداع يجب على الناقد أن يكشفه ، لأن أعمالا كهذه ، رغم سحرها وجدارتها ، تكرر وتعمق الظلام ، وتسجن الوعي داخل حدود تناقضاته وعماء ، الذي قد يقوده الى فوضى قاتلة .

ونتيجة لذلك ، فإن كل تغير حقيقى في الشكل الروائي ، وأى بحث مثمر فى هذا الموضوع . لا يمكن أن يقوم الا من خلال تغير لمفهوم الرواية نفسها الذى يتطور ببطء ولكن بشكل حتمى (كما تشهد على ذلك كل روايات القرن العشرين العظيمة) نحو نوع جديد من الشعر الملحمى والتعليمى أيضا ، ضمن تغير فكرة الأدب ذاتها ، الذى لم يعد موضوع تسلية وترفيه بل له دور أساسى كتجربة منظمة لبناء عمل المجتمع .

ملاحظات حول الرواية الأمريكية المعاصرة

سول بيلو

قالت الروائية « جرتروود شتاين » لهنجواي ان « الملاحظات ليست أدبا » ، وأنا أقدم هنا بعض الملاحظات ولا أزعم أنها أدب أو أى شىء آخر ، لكن وجهة نظر كاتب ما فى أعمال زملائه من الكتاب ، قد تكون لها أهمية ما ، مع ملاحظة أنه يقرأ ما يكتبونه بوجهة نظر خاصة تقريبا ، وإذا كان روائيا ، فحتى رواياته تكون رد فعل وتعليقا على معاصريه ، وتكشف عن تأييده أو معارضته لاتجاهات معينة ، يدعم ويساند ما يعتبره ضروريا فى رأيه ، وينتقد ما يراه افراطا بلا معنى ، أو خطأ عن طريق الإهمال وعدم التعرض له .

وأعتمد هنا أن أوضح وجهة نظر الروائيين والقصاصين الأمريكيين المعاصرين ، فى الفرد والمجتمع ، وأود أن أبدأ بعنوان الكتاب الجديد الذى أصدره ويلى سيفير Wylie Sypher « ضياع الذات فى الفن والأدب الحديث » ، ولا اعتزم مناقشة الكتاب ، ولكن أود لفت النظر الى العنوان ، لأنه فى ذاته ، يخبرنا بالكثير عن القبول العام لما وصفه الناقد الأسباني « اورتيجا كاسيت Ortega y Casset » منذ سنوات « بتجريد الفنون من صفتها الانسانية » ، وهناك فصل خصصه المؤلف لجيل الغضب من الكتاب الأمريكيين ، لكن فى معظم الكتاب يرى « سيفير » ان فكرة افناء الذات « ووصف الحياة غير الأصيلة التى لا تعطى أى معنى ، فكرة أوروبية فى الغالب ، وخاصة فرنسية ، والكتاب الذين يستشهد بهم كثيرا هم أندريه جيد ، سارتر ، صمويل بيكيت ، ناتالى ساروت ، وآلان روب جرييه ، وهم كتاب نبعت رواياتهم ومسرحياتهم من نظريات متعددة تستند الى وضع انسانى تاريخى ، وتستجيب ، خاصة ، للنظريات العلمية والنفسية والفلسفية الجديدة . لكن الكتاب الأمريكيين المتأثرين بروح الرفض ذاتها واحتقار الذات ، من النادر أن ينقل كاهلهم بمثل هذا الزخم النقاقى ، وهذه الحقيقة تسعد الكتاب المعاصرين الأوروبين الذين يجدون فيها قبولا طبيعيا وحشيا للحقيقة العالمية الجديدة ، من عقول متحررة وغير مثقلة بالثقافة .

في أوائل العشرينيات من هذا القرن ، عبر د . هـ . لورنس عن
سعادته حين وجد في القصص الأولى لهمنجواي تأثيرا بدائيا فظا ، وبعد
عشرين سنة مدح أندريه جيد الكاتب الأمريكي « داشيل هاميت » بقوله :
انه همجى جيد .

يستمد الكتاب الأوروبيون القوة من الفلسفة الظاهرانية الألمانية .
ومن مفهوم التحول الداخلي ومعيار التكرار في العلوم الحديثة ، لمهاجمة
الفكرة الرومانسية عن الذات الانسانية ، وهي الفكرة التي كانت لها
الغلبة في القرن التاسع عشر . ولم تعد تطاق في القرن العشرين ، ويكاد
الشعور نحو هذه الفكرة أن يكون عالميا ، فالحرب العالمية الأولى بمآسيها
وبملايين الجثث التي خلفتها ، أصابت الناس بالرعب من التقدير المبالغ
فيه للذات ، كما كان قادة الثورة الروسية قساة في كراهيتهم للبرجوازية
الفردية ، وقد ضحى بالملايين في البلاد الشيوعية في سبيل اقامة
الاشتراكية ، وعلى القادة اللينينيين والستالينيين تقريبا الذين اتخذوا
القرارات ، كانوا يتخذونها خدمة للأغلبية وللمستقبل ، رافضين المشاعر
الانسانية الرقيقة الركيكة التي بذلت قصارى جهدها لمعارضة التقدم في
رأيهم .

كذلك هناك عدوان آخر على الذات المنعزلة نشأ في ألمانيا سنة
١٩٣٦ ، وأن تحويل ملايين البشر الى أكوام من العظام وتلال من الكهنة ،
أثار التساؤلات حول معنى الحياة . ومعنى الرحمة والعدالة ، وعن الفرد
وجوده الخاص ، وأهمية أن يكون الانسان نفسه .

وسيكون من الغريب ، لو لم يكن لهذه الأحداث التاريخية تأثير على
الكاتب الأمريكي ، حتى لو لم تتخذ استجابتهم صيغة تاريخية أو نظرية
كلية ، فهم يتميزون بالاعتماد على ملاحظاتهم الخاصة التي تظهر أحيانا
بشكل تجريبي يصرون عليه .

ولكن الأعمال الأخيرة لكتاب مثل : جيمس جونز ، جيمس بلدوين ،
فيليب روث ، جون أوهارا ، وباورز ، وجوزيف بينيت ، ورايت موريس
وغيرهم ، تظهر الفرد في العالم المعاصر وهو يقع تحت ضغط واجهاد
كبيرين ، يعمل لاعالة نفسه ، والمحافظة عليها ، أو ربما عن الفكرة التي
يعرفها عن نفسه (وغالبا فكرة غير واضحة) ، وهو يشعر بضغط الجموع
الخفية عليه ، والتي تقزمه كفرد ولكنها تتيح لها أن يكون عملاقا في
الكراهية والوهم داخل العمل الأدبي ، في مثل هذه الظروف ، يحزن

ويسكو ، يغضب ويضحك ، وهو يعي افتقاره للقوة ، وعجزه الأخلاقي ، وللضغط الباعث على الغثيان لوسائل الاتصال الجماهيرى ، بثقلها المالى وتنظيمها ، وبالحرب الباردة وقسوة الدعاوى العرقية .

وبتطبيق نظرية « جريشام Gresham » ، فى العلوم الرياضية ، على الوضع الأدبى ، يمكن للمرء أن يقول ان الحياة العامة تدفع الحياة الخاصة الى الاختفاء ، وبدأ الناس يحتفظون بقيمهم العالية ، فقد أصبحت الاضطرابات العامة قسرية وليست ايجابية ، فهى تضعنا فى موقف سلبي ، فليس بيدنا الكثير لنفعله تجاه مآسى السياسة العالمية . والثورات فى آسيا وافريقيا ، والتحولات الجماهيرية ، فالقرارات التكنولوجية والسياسية ، والقوى الخفية ، والأسرار التى لا يعرفها الا الصفوة ، تجعل من الارادة الخاصة ارادة عاجزة ، وتقود الفرد الى أشكال غريبة من السلوك فى مجالته الخاص بحياة العامة ، الاضطرابات الصاخبة ، والأخبار والشعارات والنداءات الحرب والمآسى الغامضة ، والأوضاع اللامعقولة نسبيًا ، أذابت الترابط والتماسك عند الجميع ، عدا العقول الصامدة ، وحتى لمثل هذه العقول ، فليس الأمر مؤكدا دائما بأن لهذا الصمود أو المقاومة نتيجة ايجابية . المخدرات ، مثلا ، أصبحت عند بعض الدوائر علامة على التمرد الثورى والاستقلالية ، وحرق المزارعات الخاصة يكون عند البعض أحيانا التصرف الشريف الوحيد ، لم تعد هناك ثوابت للشوار يرجعون اليها عند القيام بثورتهم ، بدت الثوابت وكأنها تختفى ، حتى الذات الانسانية فقدت مظهرها الثابت .

احدى الروايات الأمريكية تتعامل بوضوح ووعى مع هذه المشاكل . فرواية « الخط الأحمر الرفيع » لجيمس جونز تصف الأوضاع المميتة والبدائية لقتال الغابة ، وتحافظ على توازن حساس مدهش ، ولا تزعجنا بمجرد سرد قائمة من الأمور المربعة . وما يراه « جونز » بدقة هو التذبذب فى قيمة الحياة عند الفرد الجندى ، فالطفولة قد تنتهى - فى بعض الحالات - عند الرجل المقاتل حين يتقبل درس الواقعية ، فموقف الشاويش « سنورم » أحد المجندين القدامى تجاه « فيفى » المجند الحديث الأصغر منه . يصفه جونز بالشكل التالى :

« كان فيفى شابا طيبا جدا ، يمكث فى البيت فترات طويلة ، بينما « سنورم » الذى بدأ حياة التسكع منذ كان فى الرابعة عشرة من العمر ، لم يكن يهتم بمثل هؤلاء الأولاد ، لكنه كان يصبر على « فيفى » غير المجرب ، ولكن لم يكن الصول « ويلش » يتحلى بمثل هذا الصبر ،

ولا يستطيع أن يلتزم بالمرونة وعدم الواقعية ، وهو يلقي أتباعه غير الناضجين ، الدرس الصعب بالعقاب والقسوة ، فهو يرى أن المعرفة الحقيقية معرفة قاسية وبالتالي يجب أن يتعلمها المرء بالألم والقسوة . أما جوهر الدرس فهو في رأيه لا يهم الا قليلا أو لا يهم على الإطلاق . سواء عاش الفرد أو مات ، وهو لا يقدم أى تساهل أو غفران لأحد ولا يطلب ذلك حتى لنفسه ، ورسالته الى الجنس البشرى أن على المرء أن يتقبل الحياة والموت بنظرة باردة » .

ويتفهم « جونز » بدهاء أن فلسفة « ويلش » ليست قاسية في النهاية ، فهو تجاه نفسه ليس متطرفا في قسوته ، وخشونته تفشى درجة كبيرة من الاشفاق على الذات . وما يصفه « جونز » هنا هو التخلي عن الفضيلة الزائفة التي تعود للطفولة أو الانوثة ، وهو يحتقرها لأنها لا تستطيع أن تصمد في مواجهة اختبار الحياة . وفي ادراكهم لهذه الحقيقة فإن جنود « جونز » المقاتلين يتعلمون الحقيقة القاسية ، وهم ، في حقيقتهم ، يثأرون في قتالهم لأنفسهم من المفهوم المدني التافه والسهل للذات ، قسوة الحقيقة الجديدة تهاجم الواقع القديم ، معرضة بخواتم وتقليديته . وبعدها يجتاز الصغير « فيفى » الاختبار الصعب ، يقتل مثل الآخرين ، ويصبح مشاكسا ، يشرب الخمر ويتشاجر مع الآخرين ، وينبذ تروده . وحرصه وطفولته المملوءة بالشكوى .

وهناك نوع آخر من الروايات ، يدور في مجال سلمى بعيدا عن الانفجارات وبقر البطون ، مثلا رواية « جيه . اف . باورز » « موت اربان » ، وهي رواية ليست دراسة مهمة بحيوات القساوسة التابعين لطائفة سانت كليمنت ، ولكنها تدور حول الأب « اربان » ، وهو واعظ مشهور وموهوب ، نقل لأسباب ليست واضحة ، من شيكاغو حيث كان يعمل بشكل فعال ومؤثر ، الى مؤسسة جديدة للطائفة في « ويسترهاوس » ، وكان هذا النقل بالنسبة اليه ، هو القسيس الاجتماعي المتحضر ، ما هو الا ابعاد أو نفى غامض . ولقد وصف المؤلف القسيس وهو ينظر من نافذة القطار على الريف الخالي في طريقه لمقر عمله الجديد : « مسطح بلا أشجار ، كأنه « الينوى » لكن بلا سكان ، أرض لا تشهد الانسان البها ، انه يرى مجارى للمياه أكثر مما في « الينوى » ، لكنها مجار بلا ماء ، نوفمبر هو الشتاء هنا ، بيوت كثيرة بيضاء ليست جديدة ولا قديمة ، ليست من نوع البيوت التي اعتاد زيارتها في عيد الشكر أو الميلاد . أدوات صدئة ، قذارة بنية اللون . سماء رمادية ، جليد ولا ثلج ، دار كلام كثير في القطار حول هذا ، نأى بنفسه عنه بعد ساعة أو أكثر قليلا ،

وصل « ويسترهاوس » فى الحادية عشرة الا بضع دقائق ذلك الصباح ،
وكان المسافر الوحيد الذى نزل من القطار هناك » .

ولقد صور الأب اربان كمسافر وحيد بأكثر من طريقة . كان فى
المؤسسة الجديدة ، يعيش فى موقع معزول بلا شكوى ، وكان المستول
عن المؤسسة الأب ويلفريد « الذى بسبب أنفه العريض وخديه المنتفخين
أطلق عليه أرنب تحت الاعداد للرهبنة » . وكانت اهتماماته كلها ذات
طبيعة عملية ، اهتمامات أى أمريكى فى الغرب الأوسط ، عليه أن يدير
مكانا بكفاءة ، ويراجع فواتير الوقود ، ويهتم بالعربة نصف النقل ، بتكلفة
طلاب المباني ، ويحرص على أن تكون له علاقات عامة جيدة . يصف المؤلف
هنا ، النظام الدينى كأنه مجتمع للمستهلكين ، كأنه أراد أن يقدم لنا
النشاطات الأمريكية الاجتماعية المعتدلة التى يكون هدفها النهائى هدفا
دينيا . ان لغته جافة ، وواقعية ، وهو ينقل لنا مناقشات القساوسة ،
الذين عليهم أن يدفثوا ويدهنوا ويجددوا مبانيهم ، يصقلون الأرضيات ،
وينزعون المشمع القديم ، ويضعون قوالب جديدة من الطوب فى الحمامات ،
وهذه الكوميديا الخفيفة والمجدبة لا يمكن المحافظة عليها خلال هذا الكم
من المجهود لملء الفراغ بنشاط بلا هدف مقنع ، وقد عبر الأب « اربان »
عن تدينه بالثبات والصبر والتحمل وليس فى القوة المتقدمة ، وقد صورت
مقاومته لهذا الجذب الطويل والعمل الشاغل الذى بلا جدوى ، لهذا النظام
الأمريكى الدقيق بروح من الشهادة المعتدلة اللطيفة ، وفى الواقع فان
الشخص الوحيد العنيف والعاطفى فى الوقت نفسه . فى الرواية كلها ،
هو « بيللى كوسجروف » ، وهو شخص غنى وكريم ، يتبرع بسخاء
للطائفة ، لكنه يتوقع أن يترك ليفعل ما يريد دائما ، يأكل مع الأب
« اربان » الشيش كباب ويشربان الشمبانيا ، ويلعبان الجولف ، ويخرجان
للصيد ، ومعه يمكن للمرء أن يتحدث عن السيارات واليخوت ، وسارت
العلاقة بين الأب وبيللى المفسد العريذ على ما يرام ، حتى حاول
« بيللى » ذات يوم أن يغرق غزالا فى البحيرة التى كانا يصطادان فيها ،
كان حظ بيللى سيئا لذا كان مزاجه مشاكسا ، وحين رأى أحد الأيائل
يسبح فى البحيرة ، قرر أن يمسكه من قروئه ويجعل رأسه تحت الماء ،
بالشهوة نفسها التى تغترى الجنود للغنائم فى رواية « الخط الأحمر
الرفيع » ، ولم يستطع الأب تحمل قسوته ، فأدار محرك القارب ، ليقع
بيللى فى الماء ، وبسبب ذلك لم يسامحه أبدا .

ما كان يفكر فيه الأب ، قبل ظهور الغزال مباشرة ، أن هناك
- تأكيدا زائدا فى الكنيسة على فكرة الموت فى سبيل العقيدة والفوز بمزمنة

الشهيد ، « وماذا عن الحياة لا الموت في سبيل العقيدة ؟ فلننظر الى لافرانك أو وليم الفاتح وقد كتب عنه (في الموسوعة الكاثوليكية ، ومفكرة الأب أربان من أجل كتاب يأمل أن يكتبه يوما) أنه كان طيبا مع رجال الله ويصرخ بقوة فوق طاقته في أولئك الذين يعترضون ارادته » .

واحتل « بيللي كوسجروف » مكانة الفاتح ، وهو يصرخ بقوة فوق طاقته ، ولم يعد « أربان » يرى وجهه ، كما أنه لم يقدر له أن يكتب كتابه . واتجه للاعداد للرهبنة كالأب بروفنسال ، وليتعامل مع الأمور العملية قدر جهده . لكنه خضع لجراحة في المخ نتيجة لاصابته في رأسه من ضربة كرة وهو يلعب الجولف ، وبدأ يتعرض لنوبات من الدوخة ، ويبدو أن مرتبة الشهيد تنتظره في نهاية الرواية .

ان المؤلف (باورز) لا ينظر الى قضية الذات المفردة والحشد الغفير بعريهما كما يفعل جونز ، ومن الحسارة أنه لم يفعل ذلك ، فقد كان قادرا على تقديم تطور أكثر دقة وحذقا للموضوع من جونز ، كان سيبحث ما يدعوه « سيفير » ضياع الذات من وجهة نظر مسيحية ، بمعنى من وجهة نظر انسان يعتقد في وجود شيء أكثر عمقا من الفكرة الرومانسية أو العملية عن النفس . وهي الروح ، لكن الملفت للنظر أن هناك قليلا من الحديث عن الروح في كتاب بطله قسيس . فقيمة الكتاب الروحية ضئيلة ، وربما ذلك ما قصد اليه المؤلف . وحتى في اللعب فإن الأب أربان يخدم الكنيسة . واذا كانت قد ضربت رأسه كرة جولف ، فربما أمكننا أن نستنتج من ذلك أن العصر الحديث يصور كفصل في التاريخ الروحي للبشرية ! فهنا المعاناة الكبيرة نفهمها بغموض حتى لمن لديه الاستعداد الأكبر لخدمة الله . عموما ان ذلك غير مقنع بالنسبة لي ، ولست متأكدا أنني أستطيع الاعجاب بهذه الوداعة في الرواية ، الانسان قد يكون وديعا في اهتماماته الخاصة ، لكنه يحتم بشدة عند مثل هذا الاستخدام السيئ للروح ، ويتشوق ليظهر كل ما هو ايجابي وقوي في ايمانه ، ان الافتقاد لمثل هذه القوة يضيف ظلالا على الايمان نفسه ، ويعبر عن لزوجة غامضة للنفس أكثر منه اقتناعا روحيا ، وبهذا المعنى فإن كتاب السيد باورز مخيب للآمال .

ان الفرد في الرواية الأمريكية المعاصرة يبقى حيا بالنسبة لنا عند كتاب الحساسية خاصة . فيكون كالمستعمر الذي أرسل الى مكان بعيد ، لالاسكا الروح لو استعملنا التشبيه ، وما يحصله بعد هذه الرحلة ، فراغا خاويا داخل نفسه ، وهذا ما يفعله كتاب الحساسية منذ فترة

ومازالوا يفعلونه • وآخر من يستعرض براعته بنجاح غير عادي في هذا الموضوع هو جون ابدايك John Updike الذي عنون مجموعته القصصية الجديدة « بريش الحمام » •

« حين انتقلوا الى فريتاون • كانت الأمور مضطربة ، مقلوبة ، ويعاد ترتيبها » •

اعادة ترتيب الاشياء في عزلة جديدة وعدوانية ، فكرة عامة عند كتاب الحساسية • « ديفيد » الابن الوحيد لعائلة انتقلت الى الريف • هاجمه الرعب حين قرأ في كتاب هـ • ج • ويلز « معالم التاريخ » ، « أن السيد المسيح لم يكن الا شيوعيا من الجليل ، ومحرضا سياسيا غامضا ، وأحد المتشردين في مستعمرة رومانية صغيرة » ان تأثير هذا على ديفيد أثار عنده التساؤل حول الموت والخلود ، ولم يقتنع بالاجابات التي قدمها له الأب دويسون الموقر أو والداه • كان لا يستطيع فهم السرور الذي يغمر والدته في نزهاتها الخلوية المنفردة على أطراف الغابة ، فكل ما تثيره فيه هذه الامتدادات الجذباء من الأرض في ارتفاعها وانخفاضها البطيء على حواف الغابة ، هو تعبير عن الانهاك فقط •

وتسأله أمه : « ماذا تريد ، بحق السماء ، أن تكون ؟ » •

« أصبح غاضبا ، وهو يشعر بدهشتها منه ، لقد افترضت أن السماء قد تلاشت من ذهنه منذ فترة طويلة ، وتخيلت أنه دخل بالفعل مملكة الصمت ، ويدرك أن المؤامرة تحيط به من كل مكان » •

لكن الصغير ديفيد يحل المشكلة بنفسه في النهاية وبشكل جمالي ، حين يعجب بريش الحمام يشعر بالعزاء وباحساس ان العناية الالهية ترعاه ، فالله الذي سخا بهذه الصنعة على هذه الطيور قليلة القيمة ، لا يمكن أن يدمر خلقه كله ، ويرفض أن يمده في عمره • وتنتهي القصة بسخرية معتدلة على حساب الصبي ، ومع ذلك لا شيء يمكن رؤيته في هذا العمل سوى اتكال المؤلف على عمل جميل ، بأسلوب ونظام جمالي خاص • فالحساسية في مثل هذه الأشكال الأدبية تبعث في الآخرين الكراهية لأنها فطنة وحاذقة في الأمور الداخلية للنفس ، وفيما عدا ذلك فهي عمياء لا ترى ، اننا قد نتهمها بتحجر القلب ، فهي تؤدي وظيفتها بسلاسة في العزلة ، فكاتب الحساسية يفترض أن النبش داخل النفس وأحوالها هو الممكن الوحيد ، وأن الأمور العسامة الأخرى ثابتة وغير قابلة للحل أو الذوبان في عمل أدبي •

نحن نتعامل مع مواقف حديثة تجاه الفكرة القديمة عن الفرد وعن الكثرة ، عن الذات المفردة وسط الجماهير أو النوع البشرى ، وقد ارتبطت فكرة الذات المتفردة فى العصور الحديثة باسم روسو ، ووجد نيتشه بين الذات وبين الاله أبولو ، أو اله النور ، أو التناسق أو الموسيقى ، أو العلة والمعلول ، كما وجد بين الكثرة والقبيلة والنوع والغريزة والعواطف بالاله « ديونيسوس » وبين هذين المبدأين ، الفرد والنوع ، من المفترض أن يبنى الإنسان والحضارات أمجادهما ، كما يعود مفهومنا للرجل الأخير the last man بمعنى الإنسان الكامل فى تطوره ، الى نيتشه أيضا ، فرجله الأخير هو نعى للنفس المتوحدة المكتفية بذاتها التى نتجت عن حضارة برجوازية صناعية فخورة بنفسها . وإنسان ديستوفسكى الذى يعيش تحت الأرض شخص مشابه ، فالاحاد والعقلانية ، والنفعية والثورة كلها علامات لمرض مميت فى الروح الانسانية ، كما يراها فى تخطيطه لنظام الأشياء ، فالأنفس الضائعة التى دمرت أرواحها ، يراها كجمع غفير ، تميزهم الروح الحية بوضوح ، ويرجع هذا التنوير الى المسيح المخلص ، ولو تفاءلنا لتخيلنا مع الشاعر الأمريكى والت ويتمان أن النفس الوحيدة والجماهير الشعبية قد يكمل أحدهما الآخر ، ولكن على هذا الجانب من المحيط الأطلسي ، فإن ثورو يصف الرجال كقادة الى ياس هادى ، بقبول حياة عامة مميتة : فالمرء يتقاعد من المجتمع ليحدد أو يعيد تحديد احتياجاته الحقيقية فى عزلة غنى مكان بعيد .

وبعد ذلك جاءنا شاعر فرنسى ليقول لنا أن « الأنا هى الآخر » ، وأطلق رامبو وجارى قنابلهما على مملكة النفس البرجوازية الصغيرة الضيقة ، تلك السلطة المطلقة الحساسة ، وأفسد دارون والانتروبولوجيون الأوائل ، عن غير قصد ، سلطته ، بشكل سيئ . ثم جاء علماء النفس بأن « أنا هذا الإنسان His ego » ما هى الا مأوى تافه فى مواجهة الاعاصير العاتية فى الواقع الخارجى ، ثم جاء بعدهم علماء الطبيعة وأصحاب المنطق ليقولوا لنا أن « الأنا » ما هى الا تعبير نحوى ، ويخبرنا الشاعر الفرنسى « فاليرى » بأن الذات ما هى الا شيء ملفق بائس . شيء متغير ، وأن الضمير لا يهتم الا بكل ما هو ثابت وخالد . وابتعد روائيون مثل « جويس » عن الفردية بمعناها الانسانى والرومانسى ، ليتأملوا ما يوجد

فى الأحلام ويخص النوع كله - فاير ويكر (بطل رواية فينجازويك) هو كل شخص منا - بينما كتاب مثل سارتر ويونيسكو وبيكيت ووليم بوروز وآلان جنسبرج ، هم قلة بين النشطين فى هذه الجبهة المرتدة ضد الذات ، ويرغب المرء فى أن يسأل هؤلاء المعاصرين : وماذا بعد هذا العرى ؟ وماذا بعد هذا العبث ؟

ولكن ، على العموم ، فإن الروايات الأمريكية مملوءة بالشكوى من سوء حظ الذات صاحبة السلطة ، ولقد ورث الكتاب نغمة من القسوة من القصائد والروايات العظيمة لهذا القرن . والكثير منها يأسى لمرور وانتهاء عصر أكثر ثباتا وجمالا ، وقد حطمه التدخل الهمجى لمجتمع صناعى مدنى ، روض الجماهير ، بعد عدة ثورات مفاجئة ، على يد البيروقراطيين والاوليجاركيين .

هذه الأعمال ، فى النصف الاول من القرن العشرين ، أنعشت مخيلة الكتاب المعاصرين ، وأمدتهم بخلفية أسلوبية من الصحوة والمرأى .

وهناك كتاب معاصرون يأخذون كل هذا كقضية مسلم بها ، منبثة وموجودة ضمنا فى الوضع الانسانى ، يشكون باستمرار كما يكتبون ، يصورون الحياة المعاصرة بقسوة هم أنفسهم لا يفهمونها ، هذه المرارة والقسوة غير المستحقة هى التى سأتكلم عنها . ما هو غريب حقا أن الكاتب غالبا ما يستخف بالحياة المعاصرة بشكل آلى . وهو يعبئ عفونتها بشكل فنى ، ولكن يبدو أنه لا يحتاج الى دراستها ، ويكفيه فقط أنها لا تسمح لحساسياته أن تزدهر ، وأنها تفتح شهيته للنباله والصفات الروحية .

لكن ما يبدو على الكاتب الأمريكى غالبا ، هو احساسه بسوء حظه الخاص ، فاذا كانت الحياة همجية وجاهلة ، واذا سيطرت على العالم البيرة ومعلبات اللحم المحفوظ ، أو لوئت أجواءه الأكاسيد السامة ، فالظلم آنذاك قد وقع على موهبته الأدبية ، هذا بوضوح هو الظلم الوحيد الذى يحسه ، وهو يهاجم هذا الظلم مباشرة وبحرارة ، لا من أجل نفسه ولا من أجل زملائه ولكن ببساطة من أجل حساسيته الأدبية .

قد يكون سبب هذا ، الرخاء والازدهار والأمان النسبى الذى تتمتع به الطبقة الوسطى التى جاء منها معظم الكتاب . فهذه الطبقة حين تعلم أبنائها توفر لهم التعاليم الراديكالية لكل العصور ، ولكثرة هذه التعاليم

فان بعضها يلغى الآخر . كما أنها تدرب كتابها على السلبية والانصياع ، وعلى المتعة المزدوجة المتمثلة فى الأنانية والإرادة الطيبة ، وتعلم هؤلاء الأبناء أنهم يستطيعون امتلاك الاثنين معا ، وفى الواقع لقد تعلموا أن يتوقعوا الاستمتاع بكل ما تقدمه الحياة ، أن يعيشوا فى خطر وهم يتدبرون أمرهم أن يظلوا فى أمان ، أن يكونوا بيروقراطيين وبوهيمين فى الوقت نفسه ، أن يكونوا أصحاب سلطة تنفيذية ويستخدمون الإبريق والأدوات الشعبية ، يقيمون عائلات محترمة ، وفى الوقت نفسه يتمتعون بالبوهيمية الجنسية ، يحترمون القانون بينما فى قلوبهم ومواقفهم الاجتماعية يمكنهم أن يخربوا كما يشاعون ، أنهم محافظون وراديكاليون ، ولم يتعلموا أن يهتموا أو يراعوا بأصالة أى انسان أو أية قضية .

وتمثل هذا خير تمثيل رواية فيليب روث « دعوة للذهاب أو دع الأمور تجرى فى أعنتها Letting go » فبطل الرواية جبرائيل الذى تعلم لينجح فى هذه الحياة ويعيش حياة طيبة برغم أى ظروف صعبة ، غير مستريح بسبب أنانيته ، وهو يريد نصيبه كما يقول المثل ، ويحصل عليه ، لكن شعورا غامضا ينتابه بتواضع ذاته البرجوازية الخاصة ، فهو ابن لطبيب أسنان تعيش لكنه ناجح ، وأن الحياة الشخصية بمشاكلها فى التوافق الشخصى والمسئولية الشخصية والسعادة الشخصية ، وحساباتها العادية للربح والخسارة ، والسلامة والخطر ، والشهرة والاحتراس ، هى مصدر للخجل والعار . لكن والديه أرسلاه فى الحياة ليحقق النجاح وذلك ما فعله بالضبط بعقليته العنيدة ، وأصبح خجله موضع حساسيته ، وهو شيء يمكنه أن يفخر به مادام يفعل ما يريد .

ان بطل روث يتشبث بالأمل فى معرفة الذات والتطور الشخصى ، وينهى ذلك بكل أخطائه . فهو مازال يحب نفسه ، وحياته الداخلية اذا كان له مثل هذه الحياة ، تافهة ، وقد تقوده الى توافق أكثر اقناعا لكنى اشبهها بالضوء الذى يشعله الدليل فى مسرح مظلم ليقود المتفرج الى مقعده . يفترض المؤلف أن القارئ سيشعر بحساسية بطله غير العادية ، ولكن ما نراه شابا عنيدا لا يمكن أن يخدع ، وأنه سوف يخوض تجربة الحياة التى تبعث على الجنون أو تقضى على كل شاب ذى حساسية أصيلة .

أود الآن أن أسجل المقولات المختلفة التى أثارتها فى ذهنى قراءتى للروايات المعاصرة : وثائقية جيمس جونز ، المدخل المسيحى الجزئى لباورز ، حساسية أباديك ، وشكوى فيليب روث واحساسه بالظلم ،

ولا أترجع عما قررته سابقا ، بأن نغمة السكوى تسود فى الرواية الأمريكية المعاصرة .

ان الحياة العامة وهى تنتهك الحياة الخاصة ، فانها تقلل بشكل منتظم قوى الفرد ، لكنها لا تستطيع أن توصلها لدرجة اليأس ، وهو أى الفرد أحيانا يستفيد من ذلك كل الاستفادة . فهناك عدة طرق يمكن السير فيها : الرواقية ، الغضب العدمى والكوميديا ، وأحيانا تمتزج الرواقية بالكوميديا كما فى أعمال الكاتب الألماني برتولد بريشت ، ولكن رواقيتنا الأمريكية الخاصة جاءتنا من همنجواى ، وممثلها الأكبر الآن هو جون اوهارا John O'Hara .

وأوهارا نافذ الصبر تماما مع أولئك الذين يعانون بشدة من أنفسهم . ان الشخصيات فى مجموعته القصصية الأخيرة « قارب شحن كيب كود Cape Cod Lighter » تبدو كأنها شخصيات طبيعية تعرف كيف تتحمل الألم وتظهر احساسا واقعيا بدائها من الشرف ، ومخادعة أيضا .

فحين علم « بانج بورن » فى قصة « الأساتذة » أنه ظلم زميله « جاك فيش » ، وعرف أخيرا أن سلوك « فيش » كان رجوليا ومهذبا ، فقد تأثر وأراد أن يعتذر له ، ولكنه لم يعرف ماذا يقول :

« قد يرفض المجاملة ، وكلمة الشفقة لا أفكر بها ، وفى الواقع أن المجاملة قد قدمت لبانج بورن ، فقد شرفه فيش بثقته ، ومنحه هذا الشرف أكثر حذقا وصدقا من السؤال عن أسباب صمته » .

الأحاسيس التى نستشعرها هنا تصبح ممكنة بالتحكم ، ويدفن الاعلان عن الذات أو تأكيدها فى أعماق النفس . ونسترجع حشمة أيامه المدرسة وأخلاق الفروسية القديمة والأصول العسكرية ، وتلك فضيلة الصمت ، والسلبية . نحن نتحمل ، ونكافأ برؤية المصاعب المتبادلة لدى الآخرين ، ولكن ليس هناك امكانية للازدهار والنمو أو للبلاغة أو لآى شيء يمكن أن يجعل أى ادعاء أو زعم شخصى ، غير ملائم أو ضرورى .

لم تعد الذات هى تلك الذات صاحبة السيادة عند الرومانسيين ، ولكنها الذات الوديعه عند كبلنج ، التى تجده ارتياحها الكامل فى أن تدرك وجود أكبر عدد من الآخرين ، وهذه الكثرة من الآخرين تقلل من الأهمية

الشخصية للفرد ، لكن الواقعية والكرامة تتطلبان منا أن نتقبل هذا النقص في الأهمية . ورواقية الانفصال هذه ، هي نقيض للحساسية بمزاعمها الكبيرة لتطور الغنى الداخلي للفرد .

ولكن شخصية أوهارا تشبه بدرجة غريبة شخصية « أبدأيك » على الأقل في جانب واحد منها . فالاثنان من الصنّاع المهرة في حرفة الكتابة ، يمتازان بدقة كتابتهما بشكل غير عادي ، لا شيء غير واقعي ، غير طبيعي ، أو فاحش أو زائد يعانيان من كتابته ، فأوهارا يصر على حرفية عالية في لغته التي نذكر المرء بشخصياته الشفافة ، صحيح أن هناك خشونة عنده ، قد تجعل من كتاب الحساسية بالنسبة له « عياقا غنادير » . ان الذات عند أوهارا تتطابق مع الرجل العامل ، العادي ، مع الناس البسطاء ، وربما يشعر هو نفسه بأنه جزء من الأغلبية ، بمعنى أنه فرد عادي من الجمهور الغفير . وهو لا يعبر بذلك عن رد فعله تجاه ما يراه مفهوما خاطئا للفرد ، بل يكره بعنف هذا المفهوم الخاطيء ، ووجهة نظره في أعمال الحساسية أو الخصوصية المعقدة والتسامح مع النفس ، سلبية تماما ، مثل همنجواي في روايته والشمس تشرق أيضا . وهو يرى الذات الرومانسية بعين الجمهور ، والجمهور هو المقيم الوحيد ، وهو يبحث عن الشخص العادي ماعدا ذلك الشخص المقدس عند وتيمان .

ان الفردية الخالصة التي أفرزها عصر التنوير قد سقطت : والكتاب المعاصرون مثل بيكيت وبريشت وجيل الغضب الأمريكي والأحدث منهم والأكثر بشاعة مثل وليم بوروز في روايته « الغداء العاري » أنكروا هذه الفردية وتبرءوا منها بروح من العنف ، وبعضهم سخر منها بقسوة ، والبعض كتب بحقد وعدمية قاسية ، ومنهم من يستجمع كل قواه ليطلقها بشكل مدمر على هذه الفردية التي سقطت بالفعل وتشوهت سمعتها . وهم بذلك يقللون الأحزاب الكبرى والدول التي تتعزى بآلاتها الحربية والعلمية كمصدر للقوة . انهم باختصار يتصرفون مثل أولئك الذين يقبضون على السلطة الحقيقية في المجتمع ، سادة اللويثان . ولكن كل هذا مجرد تقليد ، فهم يأملون أن يبينوا للآخرين أنهم ليسوا أقل من هؤلاء الذين يقودون العالم الحديث ، رؤساء المصالح والبنّاجون مثلا لديهم القوة ليؤثروا في الجماهير بالشكل الذي يريدونه ، ولكن هناك كتابا لا يعتبرون أنفسهم من هذه الجماهير التابعة ، ويهدفون الى البرهنة على قوتهم المستقلة المساوية للقوى العظمى . وهم لذلك حين يضربون ، يوجهون لكماتهم بشوق غير عادي ، وبقوة وعنّف كأنهم يوجهونها ضد عدو ، وهذا العدو هو مفهوم الذات الذي صاغته المسيحية وأتباعها في عصر التنوير . ان الأدب الحديث لا يقتنع بسهولة باستبعاد مفهوم الذات الذي

لا يتفق مع المزاج العام ، عن طريق الحقد العميق ، فيلعنها ، ويكرهها ويمزقها ويهلكها ، اذ يفضل أن يقع في فوضى مجنونة يستنجد بها ، بدلا من مفهوم زائف للحياة . ولكن ماذا بعد هذا التدمير للذات ؟

تكلمت عن الرواقية ، والشكوى ، والحساسية ، والغضب العدمي ، وأود الآن أن أتناول الكتاب الأمريكيين المعاصرين الذين تحولوا الى الكوميديا . فمن الواضح أن الكوميديا الحديثة لها علاقة بتفكك الذات الانسانية القيمة . لقد عمل البطل البرجوازي في عصر أسبق ، الكثير من أجل تطور الحضارة الحديثة ، فذلك البرجوازي الرزين والحريص والذكي الذي بنى المصانع والطرق ، حفر القنوات وابتدع نظام الصرف وذهب ليستعمر أرضا أخرى ، اتهم بضحاياه الفكرية ونفاقه ودناءة وسائله . والكاتب المسيحي الحق يتنصل منه ومن أعماله (تصوير ديستوفسكي للوشين في الجريمة والعقاب ، وتصوير مالجان لبرنارد شو في منزل القلوب المحطمة) ، كما وجهت الحرب العالمية الأولى الى هيئته واحترامه ، ضربة لم يشف منها بعد . كما أثارت الدادية والسريالية عاصفة من الضحك عليه ، وفي السينما كشف رينيه كلير وشارلي شابلن حقيقته ، وأصبح الشخص الضئيل المحترم ، الجوال المحترم . وأتى الشعراء أصحاب الميول المدمرة العميقة ، كموظفي البنوك في حفلة ساخرة .

والحيلة ما زالت صالحة ، كما وضع جيه . بي . بريستلي في روايته « رجل الزنجبيل The Ginger man » ، فبطله الوغد المطارد يقدم نفسه بشكل مؤثر ساخر ، كمواطن محترم جدا يستحق التكريم ، شخص لا يعلم ماذا يعنى اغتصاب أملاك الآخرين من أجل ثمن الشراب .

الحياة الخاصة والداخلية للفرد ، والتي كانت موضوع كتب جادة حتى وقت قريب ، بدأ ينظر اليها على أنها قديمة وباعثة على الضحك ، ان اجتهاد بروس تبحاه نفسه . يبدو الآن موضحة قديمة ، وفي الواقع ، فان اتالو سفيفو ، المعاصر لبروست ، استخدم في كتابه « اعترافات زينو » فكرة الاستبطان والعصاب ومعرفة الذات موضوعا لسخريته الكوميديية . فرفاهيتي ، وتوافقى مع الآخرين ، وزواجى وعائلتي ، كل هذه الموضوعات ستجعل القارئ المعاصر يضحك من كل قلبه ، قد لا يتفق الكتاب تماما مع برتراند رسل في قوله ان « الأنا » ليست الا تعبيرا نحويا ، لكن قد يرون في بعض ادعاءات « الأنا » موضوعات كوميديية ، بل لقد حدث بالفعل أن ستندال في القرن التاسع عشر ، قد ضجر من التركيز على « الأنا » . وأدان ذلك في اصطلاحات مميزة .

قد يمكن تصوير التغيرات التي حدثت بالمقارنة بين رواية توماس مان القصيرة « الموت في فينيسيا » ، ورواية فلاديمير نابوكوف « لوليتا » ، في القصتين هناك رجل عجوز تغلبه الشهوة الجنسية تجاه شخص أصغر منه ، هذا الحادث المؤسف يشتمل على ابولو وديونييسيوس . فبطل توماس مان ، جوستاف ايشنباخ رجل متحضر جدا ، نفر من غرائزه التي طالبتة بلا توقع بحقوقها ، وتمادت فدخلت منطقة المرض والانحراف ثم جرفها الطاعون ، وهذه فكرة نيتشيه (نسبة الى نيتشه) تماما ، ولكن في « لوليتا » فان الحياة الداخلية لبطلها همبرت قد أصبحت نكتة ، وهو كشخصية لا يشبه ايشنباخ الشخصية الكبيرة في الأدب الأوروبي ، هو شخصية من الدرجة الرابعة أو الخامسة ، ولا يستطيع أن يكون جادا في عواطفه ، أما بالنسبة لوالدة لوليتا ، فان المسكينة تجعله يضحك حين يعرف أنها وقعت في حبه - قائلا انها امرأة مبتذلة . ولحد ما فان حكمه عليها جاء بسبب انخفاض مستوى ثقافتها . وابتذالها جعلها ضحية مناسبة تماما . ولو لم تكن كلماتها عن الحب والرغبة كأنها خارجة من صفيحة قمامة ، التي يرى فيها الجمهور الأمريكي تعبيرا مناسباً لوصف احتياجاتها النفسية والشخصية ، فانها كانت ستعامل بجدية أكبر . ان جدية مان حول الحب والموت ، فكرة عمرها قرون عديدة ، بينما الموضوع نفسه تحول للأسف الى كوميديا وعن قصد في « لوليتا » . حتى شخصية كويلتي في الرواية لم تأخذ موتها الخاص بطريقة جادة . وبينما يقتل على يد همبرت فان يسخر من موقفه ، وكذلك يفعل همبرت ، ويفقد في النهاية حياة لم يكن يستحق أن يعيشها . ان ايشنباخ المعاصر لا ينكر رغباته ، ولكنه ليس بكرامة الرجل القديم ، فهو دائما على حافة العبث . ان رايت موريس في روايته الجديدة « ياله من طريق » يسخر بوضوح من فكرة الموت في فينيسيا . ان أساتذته الأمريكيين يناقشون الموت في البندقية طوال الوقت ، ويشعرون أن هناك أملا ضئيلا باقيا لهم ، يعتقدون أن عصرهم قد انتهى ، وأنهم لا يناسبون العصر الجديد ، وينسحبون بنكتة .

ويجب أن نذكر أنفسنا ، بأنه اذا وجد اليوم عدد كبير من الناس يستمتعون أو يستهجنون بالحياة الفردية ، فذلك لأن المنظمات العامة الهائلة - علمية وصناعية وسياسية - تضخ للجماهير الضخمة بأفراد جدد كل يوم . هذه المنظمات هي التي تحدد التطور الخاص للفرد . أنا نفسي غير مقتنع أن هناك وجودا شبيخيا للفرد أقل مما كان في السابق ، كما أني غير متأكد من أن هناك من يستطيع أن يعبر عن القضية بشكل

صحيح . وكل ما أفعله ، ببساطة ، أنى أسجل مواقف الكتاب المعاصرين ، بما فيهم الكتاب فى أمريكا ، المقتنعين بأن هدهدة النفس قد انتهت .

ما هى الذات الحديثة فى أرض اليوت الخراب ؟ انها أولئك الكثرة التى تعبر الجسر فى مدينة عصرية حديثة ولا تدرى أن الموت قد طواها بالفعل ، انها الموظف المدمل (من الدمى) الذى يمارس حريته الجنسية مع السيدة المحبوبة على فترات قصيرة ، وبعد أن انحطت الى هذه الدرجة من الحماسة ، وضعت أسطوانة على الجرامفون .

ما هى الذات الانسانية عند الروائيين الفرنسيين بعد الحرب الأولى . من أمثال لويس فرديناند سيلين ؟ أو البير كامو أو كيرزيو مالا بارت بعد الحرب الثانية ؟ ان الانسان فى رواية الغريب لكامو مثلاً ، هو مخلوق بين البدائى وبين المتحضر ، ذات خالية من العمق ، لقد قطعنا شوطاً بعيداً عن « مونتانيه Montaigne » واعتقاده بالذات الكاملة ، الذات العازقة بذاتها .

كثيرة هى الروايات الأمريكية التى تناولت الحياة الخاصة بتمعن وبشكل كوميدى ، لوليتا لنابوكوف ، رجل الزنجبيل البريستلى ، وكم الثمن لبليخمان ، أو ستيرن لفريدمان ، وكلها كمن يختبر قول سقراط ، بأن الحياة التى لا نتمتع فيها جيداً لا تستحق أن نعيش ، ومن الواضح أنهم وجدوا أن الحياة بذلك الشكل مضحكة أيضاً ، والبعض لم يجد أصلاً الحياة التى يمكن أن يتمتع بها . ان قوة الحياة الصامتة أصبحت كبيرة وخطيرة حتى لم تعد الحياة الخاصة قادرة على المحافظة أو الدفاع عن مظهر أهميتها . وضعنا المدمر موجود فى ذهن كل واحد منا ، خضوعنا واستسلامنا يبدو أنه أحد مطالب قبح مدننا العام ، بالهراء التليفزيونى الذى يهدد بتحويل أمخاينا الى « بالوظة » داخل رهوسنا بمثل هذه التفاهات التى يقدمها . مطلوب من الذات أن تهيب نفسها للتوضيحية بها ، وهذا هو الوضع الذى تعكسه الرواية الأمريكية المعاصرة .

بالنسبة للمستقبل ، فهو لن يصدمننا بعد أن فعلنا كل ما يمكن لفضح أنفسنا . لقد عرينا تماماً زيف الفكرة القديمة عن الذات ، ويصعب علينا الآن السير فى الطريق نفسه . والآن ، وقد طرحنا جانباً المفاهيم الخاطئة ، قد تخبرنا بعض القوى داخلنا عن نكون نحن ؟ لا يمكننا أن نفكر أن الانسان لم يعد كما كان يظن به منذ قرن مضى . ومع ذلك يبقى السؤال . ما هو الانسان الآن ؟

يبدو لي أن الكتاب المعاصرين أجابوا على هذا السؤال بشكل
هزيل . لقد أخبرونا بسخط أو بعدمية أو بسخرية كم هو كبير خطأنا ،
أما بالنسبة للباقيين فلم يقدموا الا القليل . الواقع أن خطيئة الكتاب
المعاصرين تكمن في أنهم يفترضون أنهم يعرفون ، كما يعتقدون أن العلوم
تعرف الاجابة وكذلك التاريخ ، ان موضوع الروائي لا يمكن ادراكه بمثل
هذه الطرق . اللغز يتزايد غموضه ، ولا يتضاءل ، والنماذج الأدبية
يصيبها البلى ، ولغز الانسان قائم يتحدى .

أدب الاستنزاف

جون بارد

« الحقيقة أن كل كاتب يبدع ريادته الخاصة ، أن عمله يعدل مفهومنا للماضي ، ويصف لنا المستقبل أيضا »

خورخي لويس بورخس

• في « التيه » •

« أنتم يا من تصفون •• أعطوني حياة على سبيل المجاز
ولن أحملكم المسؤولية • كلماتي الأولى ليست هي الأولى •
أرغب لو بدأت بشكل مختلف »

جون بارد

• في رواية « ضائع في بيت المتعة » •

أريد أن أناقش ثلاثة أشياء متشابهة مرة واحدة ، أولها بعض الأسئلة القديمة أثارتها فنون التواصل الجديدة ، وثانيها بعض الجوانب الفنية للكاتب الأرجنتيني « خورخي لويس بورخس » الذي أعجب به كثيرا ، وثالثها بعض اهتماماتي الخاصة بفن القصة ، وعلاقتها بهذه القضايا الأخرى ، وبما أسميه أدب « القدرات المنهكة » أو بتعبير أكثر أناقة : أدب الاستنزاف •

ولا أعني بكلمة « استنزاف » أي تعب يتعلق مثلا بالانهك الجسدي أو التفكير الأخلاقي أو الثقافي ، بل أعني استنفاد أشكال أو قدرات معينة في التعبير الأدبي • وذلك على أية حال ليس سببا يدعو لليأس • لقد تنازع كثير من الفنانين الغربيين ولسنوات عديدة ، حول تعريف وسائل الاتصال الفنية ، والأنواع الأدبية ، وأشكال غنية عن التسمية كالفن الشعبي ، والأحداث الدرامية والموسيقية ، وسلسلة كاملة من فن وسائل الاتصال أو الفن المختلط ، التي تحمل أحدث الدلائل لتقاليد التمرد ضد

التقاليد • مثلا ، استلمت نشرة في البريد منذ فترة ، يعلن صاحبها روبرت فليو باصطلاحات كهذه « طعام وفير للفكر الغبي » مع صندوق مملوء بقصاصات مكتوب عليها بوضوح « أسئلة ليس لها معنى » يرسلها المشتري لمن يرى أنها تناسبه ، وذات مرة أرسل « راي جونسون » الى مجموعة من الأصدقاء المختلفين ، مجموعة كتابات غريبة لاذعة في معظمها تحت اسم « الشعبان الورقي » (تقول النشرة انها رسالة من مدرسة نيويورك للأدب بالمراسلة) ، أو ما أرسله « دانيال سبوير » بعنوان حكايات طبعت بالمصادفة ، وهي في ظاهرها وصف لكل الأشياء التي قد تكون على مكتب الصالة للمؤلف ، وفي حقيقتها اعلان عن وجوده •

في الظاهر ، على الأقل ، فانه الوثيقة التي تشمل هذه المواد عبارة عن نشرة من « الصحافة الأخرى » ، أشياء معدة لأغراض مختلفة • وأنا أعرف منهم « مدرسة نيويورك للاعلان الأدبي » ، وعلى أية حال ، فان بضاعتهم تستحق أن يقرأ عنها المرء ، ويدير حولها حوارا ممتعا في فصول تعلم كتابة الرواية مثلا ، حيث نناقش هناك روايات متحررة مازالت في الأدراج ، بصفحات غير مرقمة ، عشوائية ، ومقترحات طريفة كطباعة رواية فينجازويك على بكرة ورق طويلة • من الأسهل طبعا ، والأكثر قبولا أن نتحدث عن التكنيك ، بدل أن نكتب الفن • والمكان الذي تدور فيه أحداث رواية ما ، وما شابهه يثير مناقشات حول علم الجمال ، والواقع ، وهل التصوير كان دراميا ، وما شابهه من نقاط حيوية حول طبيعة الفن وتعريف مصطلحاته وأنواعه •

واللافت للنظر ، على سبيل المثال ، حول فنون وسائل الاتصال الحديثة ، ميلها لاقصاء ليس فقط الجمهور التقليدي الذي يتذوق الفن الجيد ، بل أيضا الأفكار التقليدية للفنان : العامل الأرسطي الذي يحقق مع التكنيك والحيلة الأثر الذي يرجوه المؤلف في الجمهور ، بكلمات أخرى اقصاء الشخص صاحب الموهبة غير العادية • المتطور أكثر من غيره • والذي يستطيع تنظيم الموهبة المنوحة له الى فن رائع • انها فكرة وجيئة في ظاهرها ، وقد تشوق الغرب الديمقراطي لاستخدامها ، فإدان ليس فقط المؤلف الخبير بالرواية التقليدية ، ولكن أيضا المؤلف الصانع المسيطر على فنه ، الذي اعتبر رجعا بل وفاشيا •

وأنا شخصيا ، لكوني صاحب مزاج يختار أن يتمرد ضمن حدود التقليدية ، فاني أفضل نوع الأدب الذي لا يستطيعه الآخرون : النوع الذي يحتاج الخبرة والاطلاع والاتقان الفني بالإضافة الى احتوائه على فكرة جمالية أو الهام •

فانا استمتع بالفن الشعبي ، لكنني أتناثر بدرجة أكبر بعروض الجواة ولاعبى الاكروبات فى مسرح المنوعات ، حيث اعتدت الذهاب عند كل عرض جديد ، فهؤلاء فنانون عباقرة ، يقومون بأشياء يحلم بالقيام بها كل امرئ ، ولكن لا أحد يستطيع القيام بها تقريبا .

افترض أن التمييز يجب أن يكون بين الأشياء التى تستحق التثويه بها ، والأشياء التى تستحق أن يفعلها المرء . كأن يقول المرء منلا « على الانسان أن يكتب رواية بمشاهد تقفز من الكتاب كما فى كتب الأطفال » مع التلميح بأن المرء لن يكلف نفسه كتابة مثل هذا العمل .

ومع ذلك فانه الفن وأشكاله وتقنياته تسير مع التاريخ ، وهى لذلك تتغير بالتأكيد . وأنا أتفق مع ملاحظة قالها سول بيلو بأن التقنيات الروائية المعاصرة هى أقل الصفات أهمية بالنسبة للروائي المعاصر ، ولكنني أضيف أن هذه الصفة الأقل أهمية قد تكون مع ذلك أساسية . وعلى أية حال اذا كان الروائي غير متوافق تقنيا مع العصر معناه أن هناك نقصا فى موهبته أو أنه عاجز فنيا . ان السيمفونية السادسة لبيتهوفن لو أنجزت فى هذا العصر لكانت مخرجة . وهناك كثير من الروائيين المعاصرين يكتبون الرواية بنقنيات أوائل القرن ، بلغة منتصف القرن عن أناس وقضايا معاصرة ، وهذا يجعلهم أقل رونقا (فى نظرى) من الكتاب الممتازين المعاصرين تقنيا مثل جويس وكافكا فى زمنهم وزمننا ، أو بيكيت وخورخى بورخس . أود أن أقول ان الفنون التى تقدمها وسائل الاتصال الحديثة تميل الى الوساطة ، بين الميادين التقليدية الجمالية من ناحية والابداع الفنى من ناحية أخرى ، وأعتقد أن الفنان العاقل أو المواطن العاقل سينظر اليها بالجديّة التى ينظر بها الى حديث جيد فى دكان بقالة ، فهو سيصغى بعناية ، ان لم يكن متحدثا ، ويظل متابعاً حتى ولو بطرف عينه ، فربما يسمع اقتراحا يساعد على فهم أو صنع الأعمال العظيمة للفن المعاصر .



الرجل الذى أود الحديث عنه هنا ، هو خورخى لويس بورخس ، الذى صور جيدا الفرق بين الفنان التقليدى تقنيا ، والمواطن المعاصر ، والفنان المعاصر تقنيا . فى مقولتى الأولى فانى أضع كل الروائيين الجيد منهم والردىء الذين يكتبون ليس فقط كأن القرن العشرين لم يأت بعد . ولكن كما لو أن الكتاب العظيم فى هذا القرن لم يوجدوا قط (ملاحظة : وقد قرب هذا القرن على الانتهاء فمن المرعب أن نرى كثيرا جدا من كتابنا

يتبعون خطى ديستوفسكي أو تولستوي أو فلوير أو يلزاك ، في حين أن السؤال الحقيقي يبدو لي أنه كيف نتبع ليس جويس ولا كافكا ولكن أولئك الذين أتوا بعدهما وهم الآن في أواخر عمرهم وابداعاتهم .
أضعهم جميعا في حقيبة واحدة . وفي مقولتي الثانية : أضع جميع من يشبهون أحد جيراني في « بافالو » الذي يبتدع موضحة ما يصنعها من سقط المتاع - من قماش مزيت مختلط بالرمل - ويخوزقها على خازوق أو يعلقها من الرقبة - في سلة واحدة . وفي مقولتي الثالثة أضع القلة القليلة ، التي لا تكاد شهرتهم الفنية تعادل شهرة روائي فرنسي تجريبي معاصر ، والذين يخاطبون قلوبنا ووضعنا الذي مازال انسانيا ، بفصاحة وتأثير ، كما يفعل الفنانون الكبار دائما . اثنان من هذه القلة ، يعتبران من أروع من عرفت ، صمويل بيكيت ، وخورخي بورخس . وهما المعاصران الوحيدان تقريبا اللذان أقرأ لهما ، ويمكن أن نضعهما مع عمالقة الرواية في القرن العشرين . في تاريخ الجوائز العالمية غير المنير ، منحت جائزة النابشرين الدولية سنة ١٩٦١ الى بيكيت وبورخس معا ، وهو استثناء سعيد في الواقع .

من حادثة هذين الروائيين ، أنه في عصر الحلول النهائية والقول الفصل - على الأقل يشعر المرء أنه القول الفصل في كل شيء من التسليح الى علم اللاهوت ، الى الاحتفال بعدم انسانية المجتمع ، وتاريخ الرواية - فان عملهما - كل بطريقته - يعكس حالة العصر ويتعامل معه بالقول الفصل تقنيا وفكريا وموضوعيا (من الموضوع) ، مثل ما فعلت رواية يقظة فينيجان بطريقتهما المختلفة .

ومن العجيب أن يلاحظ المرء - مهما كان الأمر عرضيا - أن جويس كان شبه أعمى بالفعل في نهاية حياته ، وبورخس كان أعمى بمعنى الكلمة ، بينما بيكيت أصبح كالأخرس ، وقد انتقل من اسلوب الجملة الانجليزية رائعة التركيب ، الى تركيبة أكثر اختصارا ووافية بالغرض باللغة الفرنسية ، الى نشر دون علامات ترقيم أو علاقات نحوية في روايته « كيف يكون الأمر ؟ » وأخيرا الى لغة التمثيل الصامت . على المرء أن يستنبط منهجا نظريا لاسلوب بيكيت ، فاللغة أخيرا تتكون من الصمت كما تتكون من الصوت ، والتمثيل الصامت مازال أداة توصيل ، ولقد زمجر في وجهي ذات مرة طالب في جامعة ييل معلقا على كلمتي السابقة . تلك فكرة كانت موجودة في القرن التاسع عشر : أداة توصيل بلغة الحركة . لكن لغة الحركة تتكون من سكون وحركة ، وبيكيت في تطور عمله وجد أن النص الثابت والشخص الصامت مازالا لا يشكلان القول الفصل ، ما رأيكم في خشبة مسرح خالية صامتة اذن ، أو صفحات بيضاء ليس فيها حرف واحد ؟ أو حادثة لا يحدث فيها شيء ، كما حدث في مسرحية « كيبج Cage » .

« ٢٣ ' ٤ » ، لكن التواصل الدرامي يحتاج لغياب وحضور الممثلين ، وحتى هذا بالنسبة لبيكيت ليس الكلمة الأخيرة ، افترض أن الذى يرضيه هو اللاشئ ، لكن العدم هو خلفية ضرورية ومعقدة للوجود ، وعند هذه النقطة ، بالنسبة لبيكيت فإن التوقف عن الاستمرار فى عملية الخلق الأدبى يبدو منطقيا ، تتويجا لكلمته الأخيرة .

يا له من ركن يحشر المرء نفسه فيه ! يقول «أرسين» الخادم فى الرواية « وات » « لن تسمع صوتى ثانية » انه الصمت الذى يتحدث عنه مولوى ، « الصمت الذى خلق منه الكون » .

وأضيف ، بالنيابة عن الجميع ، أنه من المعقول أن نعيد اكتشاف براعة قدرات اللغة والأدب - مثل النحو والترقيم ، حتى رسم الشخصيات والحبكة - وإذا سار الانسان بشكل صحيح فإنه سيعى ما كان السلف يسعى اليه .

ان خورخى بورخس يعى كل هذه الأشياء . ففى العقود العظيمة للتجريب الأدبى كان مرتبطا بمجلة برزما Prisma التى كانت تنشر موادها على الحوائط ولوحات الاعلانات ، فأعماله « فى التيه » و « قصص » لا تسبق فقط أكثر الأفكار تجريبية عند جمهور الصحافة الأخرى ، ولكنها أيضا كانت أعمالا أدبية رائعة « تصور بطريقة بسيطة الفرق بين حقيقة علم الجمال واستخدامها الفنى ، وبالتالي فإن الفنان الحقيقى ليس مجرد متحدث عن الحقائق الأساسية والأخيرة فى الابداع ، ولكن مستخدم جيد لها .

لنأخذ قصته « بير مينارد مؤلف كيشوت » وهو بطل محنك ، واسع الخيال بشكل مدهش ، من طراز الرمزيين الفرنسيين فى أول القرن ، يبدع - لا يستنسخ أو يقلد بل يؤلف - عدة فضول من رواية « سرفانتيس » .

يخبرنا بطل بورخس « انها لمفاجأة وكشف للحقيقة ، ان نقارن دون كيشوت الذى أبدعه مينارد بالآخر الذى أبدعه سرفانتيس . يقول الأخير فى روايته - الجزء الأول ، الفصل التاسع :

« الحقيقة ، التى أهمها التاريخ ، الذى هو منافس للزمان ، ومستودع الأفعال ، شاهد على الماضى ، ومثال الحاضر وناصحه ، ومستشار المستقبل » .

كتب هذه العبقرى سرفانتيس فى القرن السابع عشر ، وهذا السرد هو مجرد تعبير بلاغى فى مدح التاريخ .

ويكتب مينارد فيقول :

« الحقيقة ، التى أمها التاريخ ، الذى هو منافس للزمان ، ومستودع الأفعال ، شاهد على الماضى ، ومثال الحاضر وناصحه ، ومستشار المستقبل » - الجملة نفسها عند سرفانتيس - .

التاريخ أم الحقيقة ، فكرة مدهشة ، فينارد المعاصر لوليم جيمس لا يعرف التاريخ كتساؤل عن الحقيقة ولكن كأصل لها . . . الخ .

انها فكرة طريفة ، ذات شرعية ثقافية تؤخذ فى الاعتبار ، لقد ذكرت من قبل أن السيمفونية السادسة لبيتهوفن لو ألفت الآن لسببت لنا الارباك ، لكنها لن تكون كذلك لو ألفها موسيقار بقصد السخرية . وهو يعنى تماما أين كنا وماذا أصبحنا . ان أهميتها ستكون - على أحسن الأحوال أو أسوأها - كاهمية الاعلانات التليفزيونية ، والفرق هو أنك هنا تعيد انتاج عمل فنى بدلا من انتاج غير فنى ، والسخرية ستكون من نصيب الأدب وتاريخ الفن مباشرة بدلا من الوضع الثقافى . وفى الواقع ، لا يحتاج امرء لاعادة تأليف السيمفونية السادسة ، أكثر من حاجة « مينسارد » الفعلية لابداع دون كيشوت ، كان يكفي أن ينسب الرواية لنفسه ليحصل على عمل جديد من وجهة نظر الحياة الثقافية . ان بورخس يلعب فى قصص عديدة على هذه الفكرة ذاتها ، وأستطيع أن أتخيل رواية بيكيت القادمة بتشابهها مع رواية لتوم جونز ، بالضبط كما كانت رواية « نابوكوف » ، الأخيرة بنصها وشروحها المتعددة اعادة انتاج لرواية لبوشكين ، وأما نفسى فقد تفت لكتابة ألف ليلة وليلة بمجلداتها الاثنى عشر وشروحها التى ترجمها « ريتشارد برتون » ، ولأسباب ثقافية لم أعد أرغب فى ذلك ، وكم من الأمسيات قضيناها ، ونحن نشرب البيرة ، ونتناقش فى « البارثينون » التى كتبها « سارينين » ، أو مرتفعات ويدرلج التى كتبها د . هط . لورنس ، أو ادارة جونسون لروبرت راوشنبرج . كلها اعادة انتاج أعمال سابقة .

أكرر ان الفكرة جادة وخطيرة ثقافيا ، مثل أفكار بورخس المتميزة الأخرى ، وكلها ذات طبيعة غيبية أكثر منها جمالية . ولكن من المهم أن نلاحظ أن بورخس لا ينسب رواية دون كيشوت لنفسه ، أو أعاد تأليفها مثل بطله مينارد ، ولكنه أنتج عملا أدبيا أصيلا ، يتضمن فى ذاته

صعوبة وعدم ضرورة إعادة كتابة الأعمال الأساسية في الأدب . ان انتصار بورخس الفني ، هو مواجهته الطريق الثقافي المسدود ، واستخدام هذا الطريق ضد نفسه لانتاج وانجاز عمل انساني جديد ، واذا تطابق هذا مع ما تصنعه الصوفية ، حيث يقول كيركجارد « كل لحظة تقفز الى اللانهائي تسقط بالتأكيد في المحدود والنهائي » ، فانه نطابق يعبر عن جانب آخر من ذلك التناظر القديم ، وبتعبير شائع أنها قضية القاء ماء الاستحمام دون ان نفقد الطفل لحظة واحدة .

وطريقة أخرى للنظر الى انجازات بورخس ، تتضح في اصطلاحين من اصطلاحاته الخاصة والمحبة : الجبر (رياضيات) والنار . في قصته الطويلة الجامعة « طولون الأكبر » . يتخيل عالما مفترضا وخياليا تماما ، يجمع فيه مجموعة سرية من الباحثين للقيام بتأليف دائرة معارف بصورة خفية . دائرة المعارف هذه ترسم تخطيطا بديلا لعالمنا من كل النواحي من جبره الى ناره ، ويخبرنا بورخس بقوة تخيلية أنه اذا تحقق هذا مرة ، فان الفكرة ستتوغل لتحل أخيرا محل واقعنا السابق . وجهة نظري أنه لا النار ولا الجبر - اتكلم مجازيا - يمكن أن تحقق هذه النتيجة وحدها . وجبر بورخس ، وهو الذي أقيم له وزنا - ثم ان الحديث عن الجبر أسهل من الحديث عن النار - لا يمكن أن يعادله أي مثقف عملاق . ان مؤلفي دائرة معارف طولون الأول ليسوا فنانيين ، برغم أن عملهم بشكله الروائي سيرحب به أي ناشر في نيويورك الآن . ان مؤلف « طولون الأكبر » الذي أشار مجرد اشارة الى دائرة المعارف الساحرة الفاتنة ، فنان ، والذي يجعله فنانا من الدرجة الأولى ، مثل كافكا ، هو تضيفه تلك الرؤية الثقافية العميقة مع بعد نظر انساني ، بلغة شاعرية قوية ، وسيطرة كاملة على وسائله التي يستخدمها ، مما يجعله عظيما في أي قرن الا قرننا .

منذ فترة قريبة ، وفي هامش لطبعة مدرسية من كتاب توماس براون « دفن الجرة » ، وقعت على معلومات استدلالية عن بورخس تذكرنا بوعى طولون بنفسه : القضية الحقيقية لكتاب « الأفاكون الثلاثة » الذي أشار اليه براون اشارة عابرة في أحد كتبه السابقة ، « الأفاكون الثلاثة » رسالة تجديفية غير موجودة ضد الأنبياء ، وشاخ في القرن السابع عشر انها موجودة أو كانت موجودة . وقد نسبها الشارحون ، بدرجات مختلفة الى بوكاشيو ، وبير ارتينو ، جياردانو برونو ، والى توماس كامبينيللا ، ويضيف براون لا أحد رأى نسخة منها برغم الاستشهاد بها كثيرا ، وتفنيدها وشجبها ومناقشتها وكان كل واحد قد قرأها ، حتى ظهر بالفعل كتاب منحول في القرن الثامن عشر بتاريخ مزيف ١٥٩٨ بعنوان « الأفاكون الثلاثة » . ومن العجيب أن بورخس لم يشر الى هذا العمل ، فهو يبدو أنه

قرأ كل شئ . بما فيه الكتب التي لم توجد ، « وبراون » هو أحد الكتاب
المفضلين لديه .

يعلن راوى « طولون الأكبر » في النهاية :

« ان الانجليزية والفرنسية والأسبانية ستختفى من الكرة الأرضية .
وسيكون العالم « طولون » لا يهمني كل هذا ، وأمضى في مراجعتي - في
الأيام الراكدة في فندق اندروجي - لترجمة غير مؤكدة - لا اعتزم نشرها -
لكتاب براون « دفن الجرة » » .

(الأدهى ، انى عند إعادة قراءة « طولون الأكبر » وجدت ملاحظة
أقسم انها لم تكن موجودة في العام الماضي تقول « ان المليونير الأمريكي
غريب الأطوار الذي يمول دائرة معارف طولون ، اشترط ألا يقيم العمل
أية علاقة مع يسوع المسيح ») .

ان « ثلويث الواقع بالحلم » كما يقول بورخس ، هو أحد أساليبه
المألوفة ، والتعليق على هذا التلوث هو أحد وسائله الروائية المحببة .
ومثل غيره من الكتاب العظام ، فهذه الوسائل اسلوب الكاتب أو الشكل
الذي يستخدمه الى استعارة تخدمه ، كما تفعل اليوميات الختامية « لصورة
الفنان في شبابه » أو البناء الدائري « ليقظة فينيجان » . وفي حالة
بورخس فان قصة « طولون الأكبر » هي قطعة حقيقية من الواقع الخيالي
في عالمنا ، متناظرة مع كل الأشياء الطولونية المختلفة التي تتخيل انها
تعيش في وجود حقيقي . انها نماذج نفسها ، أو استعارة لنفسها ، ليس
فقط في الشكل الذي صيبت به القصة ، ولكن حقيقة أنها قصة رمزية
« وسيلة الاتصال هي الرسالة » .

ومثل كل أعمال بورخس ، فان القصة تصور في جواتبها الأخرى
الموضوع الذي أعنيه : كيف يمكن لكاتب في عصرنا أن يحول الحقائق
الإنسانية الأخيرة لعصرنا الى مادة لعمله بمفارقة وعلى نحو غير مألوف ؟
ولو عمل ذلك بمفارقة فانه يتسلسل أو يتجاوز ما بدا أنه الغباء له .
بالطريقة نفسها التي يتجاوز فيها الصوفي المحدود ليتمكن من الحياة
روحياً وجسدياً في العالم المحدود . افترض أنك كاتب موهوب ، وشعرت
أن الرواية ان لم يكن النشر الأدبي عموماً أو كل الكلمات المطبوعة ، قد
أفرغت كل ما عندها كما يزعم ليسلى فيدلر وآخرون ، فماذا عليك أن
تفعل ؟

وأنا أميل الى موافقة من يزعم ذلك لكن مع بعض التحفظات والاعتراضات ، فالأشكال الأدبية لها ظروفها التاريخية المختلفة التى أنشأتها ، وربما يكون زمن الرواية العظيمة قد انتهى ، مثل زمن التراجيديات التاريخية أو الأوبرات الكبرى ، فلا ضرورة للانزعاج من ذلك - ربما ينزعج بعض الروائيين - والطريقة الوحيدة لمعالجة مثل هذا الاحساس قد تكمن فى كتابة رواية عنه . وإذا كانت الرواية تاريخيا تسلم الروح أو تقاوم فذلك لا يهمنى ، وإذا شعر كاتب ونقاد كثيرون بإمكانية التنبؤ بمستقبل الرواية ، فإن شعورهم سيصبح حقيقة ثقافية لها وزنها ، مثل الاحساس بأن الحضارة الغربية والعالم أجمع فى طريقه للنهاية ، وإذا أخذت حشدا من الناس الى الصحراء بحجة أنه العالم سينتهى ، ثم لم ينته العالم فستعود الى البيت خجلا ، ولكن الشكل الفنى الذى يصمد ويقاوم لا يلغى أو يضعف عملا فنيا أبداع فى البيئة التنبؤية المشابهة . وتلك إحدى الفوائد الهامشية لكون المرء فنانا لا نبيا . لو حدث أنك مثل فلاديمير نابوكوف لواجعت ذلك الاحساس بالنهاية بكتابة « نار شاحبة » وهى رواية جميلة يكتبها متعلم متحذلق فى شكل تعليق متحذلق على قصيدة ابتدعت للغرض نفسه . ولو كنت بورخس لكتبت قصص التيه ، وهى قصص يكتبها أمين مكتبة مثقف فى شكل هوامش لكتب خيالية أو مفترضة الوجود . وأضيف ، أنك لو كنت كاتب هذه السطور لكتبت رواية « وسيط الأعشاب المخدرة The sot-weed factor » مع أنى أرى أن فكرة بورخس أكثر طرافة ، أو قد تكتب رواية مثل « راعى ماعز جايلز Giles-Goat Boy » لكاتب هذه السطور أيضا .

ولو بدا هذا التفكير منحطاً ثقافياً ، ومع ذلك فإن النوع الأدبى كله بدأ بهذا الشكل . فرواية « دون كيشوت » تقلد حكاية « أمادس الغالى » - نسبة الى بلاد الغال - وسرفانتيس نفسه يتظاهر بأنه سيدي حامد الأيل ، أو فيلدنج يقلد ريتشاردسون بتهكم . « التاريخ يكرر نفسه على شكل مسرحية هزلية » نعى بالطبع فى شكل أو اسلوب المسرحية الهزلية ، وليس بأن التاريخ هزلى . التقليد كشيء جديد وقد يكون جادا تماما ومؤثرا بالرغم من جانبه الهزلى (مثل أثر الداوية فى الأعمال التى تقدمها وسائل الاتصال) ، وهذا هو الفارق المهم بين الرواية الأصلية أو التقليد المتعمد لرواية ما أو التقليد الروائى لأنواع أخرى من الكتابات والوثائق .

المحاولات الأولى (أو تميل تاريخيا للمحاولة) لتقليد الأعمال ووسائلها التقليدية - العلة والتأثير ، الحكايات ، رسم الشخصيات ، التوثيق التنظيم والتفسير - اعترض عليها منذ زمن كأفكار عتيقة أو استعارات لأفكار قديمة ، ويخطر على الذهن هنا كتاب آلان روب جرييه

« نحو رواية جديدة » ، لكن هناك ردا على هذه الاعتراضات ليس مجال الإشارة إليها هنا ، ولكن يمكن للمرء أن يلاحظ أن الكتاب تجنبوا تلك الاعتراضات بتقليد روايات لا تقدم الحياة مباشرة ولكن تقدم احتجاجا على الحياة . والحقيقة أن هذه الروايات ليست بأقل بعدا عن الحياة من روايات ريتشاردسون أو جوته المعتمدة على المراسلات . فكلاهما يقلد الوثائق الحقيقية ، وموضوع الروايات في النهاية هو الحياة وليست الوثائق . الرواية تشبه الحياة الواقعية كثيرا كالرسالة ، والرسائل في رواية « أحزان فرتر » مثلا خيالية وليست واقعية .

قد يركب المرء خياليا مثل هذا التقليد ، لكن بورخس لا يفعل ذلك ، فهو مبهور بالفكرة . فمن أوامه الأدبية المتكررة الليلة ٦٠٢ من ليالي ألف ليلة ، حين بدأت شهرزاد بسبب خطأ من الناسخ تقص على شهریار قصص الليالي منذ البداية ، ويقاطعها الملك لحسن الحظ ، لأنه لو لم يفعل فلن تكون هناك الليلة الثالثة بعد الستمئة ، بينما كان هذا سيحل مشكلة شهرزاد - التي هي مشكلة كل راو لقصة أن ينشر أو يصمت - (أشبك أن بورخس قد حلم بهذا تماما ، ولكن ما يشير إليه لا يوجد في أية طبعة من طبعات ألف ليلة استطعت الاطلاع عليها ، وعلى كل حال فبعد قراءتي لطولون الأكبر على المرء أن يعيد التأكد من كل فصل) .

إن بورخس (الذي اتهمني شخص ما مرة بأنى اخترعته) مهتم بالليلة الثانية بعد الستمئة . لأنها تشكل حالة من القصة داخل القصة ، القصة التي تدور حول نفسها، واهتمامه بمثل هذه الحالات ذو أبعاد ثلاثة: أولها كما قال هو بنفسه : إن هذه الحالات تزعجه أو تزعجنا غيبيا ، وذلك حين تصبح الشخصيات في عمل روائي هي قارئة العمل أو مؤلفة الرواية التي هي فيها ، فذلك يذكرنا بالجانب الخيالي لوجودنا الخاص ، وهذا أحد موضوعات بورخس الرئيسية كما هو بالنسبة لشكسبير وكالديرون وأونامونو وغيرهم . وثانيا : أن الليلة الثانية بعد الستمئة هي تصوير أدبي للارتداد إلى اللا متناهي مثلها مثل معظم الصور والعناصر الرئيسية عند بورخس ، وثالثا أن الحركة الافتتاحية العارضة لشهرزاد مثلها مثل سرد بورخس في الارتداد للامتناهي هي صورة للاستنزاف أو محاولة استنفاد للقدرات التي هي هنا قدرات أدبية . وهكذا نعود إلى موضوعنا .

ما يجعل بورخس أكثر أهمية بالنسبة لي من نابوكوف أو بيكيت مثلا ، هي مقدمته المنطقية التي يقتررب بها من الأدب ، ويكلمات أحد ناشرية: « بالنسبة لبورخس لم يسع أحد للأصالة الأدبية ، فكل الأدباء تقريبا بدرجة أو بأخرى مخلصون للنماذج الأولية الأدبية سابقة الوجود » . ولذا كان ميله للتعليق على كتب خيالية غير موجودة : لأن محاولة المرء

أن يضيف بشكل سافر ولو قصة قصيرة تقليدية - دقك من الرواية - إلى كم الأدب الأصيل هو تجاسر كبير وسذاجة هائلة ، لأن الأدب قد أنجز الكثير قبله . وجهة نظر أمين مكتبة ، وكادت أن تكون فكرة معتدة بنفسها لو لم تكن جزءا من رؤية حية غنية وحميمية وقريبة منا ، وتستخدم ضد نفسها بدقة وبعد نظر لصنع أدب جديد وأصيل .

يعرف بورخس « الباروك Baroque » بأنه ذلك الأسلوب الذي يستنفد عمدا (أو يحاول استنفاد) قدراته وحدوده حول صورته السباخرة نفسها . بينما عمله الخاص ليس باروكيا إلا بالمعنى الثقافي (فالباروك لم يكن أبدا موجزا ومختصرا ومقتصدا) ، وأنه يرى أن التاريخ الأدبي الثقافي كان باروكيا ، وأنه قد استنزف بشكل تام قدرات الرواية . أن قصص بورخس ليست حواشي لنصوص خيالية ولكنها نتاج نثرى لجثة الأدب الحقيقية .

هذه المقسمة المنطقية تعطى ريننا وعلاقة بكل صورته الرئيسية ، المزايا المتوجهة في قصصه هي ارتداد ثنائي ، وإزدواجية شخصياته تشير مضاعفات شريرة مدبوخة ، تذكر المرء بملاحظة براون « بأنه كل رجل ليس نفسه فقط » فالمرء يعيش مرات ومرات » (أن ذلك سيسعد بورخس ، ويوضح وجهة نظر براون ، فلنقل أن براون سلف لبورخس ، وقد قال بورخس في كتابه عن كافكا : أن كل كاتب يبدع ريادته أو سلفه الخاص) . أن الفرقة الهرطقية المفضلة في القرن الثالث الميلادي عند بورخس هم الممثلون المسرحيون - وآمل ألا يكون قد اختلقهم - الذين يؤمنون بأن التكرار مستحيل في التاريخ ، وبالتالي يعيشون في اباحية ليظهروا المستقبل من الفضائح التي ارتكبوها ، بكلمات أخرى ليستنزفوا قدرات العالم لينجولوا بنهايته .

والكاتب الذي يذكره كثيرا بعد سرفانتيس هو شكسبير ، في لحظة أدبية يتخيل الكاتب المسرحي وهو على فراش الموت يسأل الله أن يسمح له بأن يكون هو نفسه وواحدا فقط ، بحيث أنه كل واحد ولا أحد ، ويجيبه الله من خلال الأعصار أنه هو لا أحد أيضا ، فلقد خلم بالعالم كما حلم به شكسبير وبما فيه شكسبير .

أن قصة هوميروس في الكتاب الرابع من الأوديسا التي تحكى عن منيلاوس وهو يواجه بروتئوس على شاطئ فاروس ، تتوافق بعق مع أفكار بورخس : بروتئوس « هو الذي يستنزف مظاهر الواقع » ، بينما منيلاوس يتنكر كي ينصب كميناً له . تناقض « زينو » مع أخيل ، وتجسيد

الترائواز (السلحفاة) للارتداد اللا متناهي في الوجود الذي يطبقه بورخس على التاريخ الفلسفي ، مشيرا الى أن أرسطو استخدمه لدحض نظرية افلاطون عن الأشكال الأدبية ، واستخدمه لويس كارول لدحض استنتاجات القياس المنطقي . واستخدمه وليم جيمس لدحض فكرة المرحلة المؤقتة ، واستخدمه هيوم لدحض فكرة العلة والمعلول ، وبرادلي لدحض الامكانية العامة للعلاقات المنطقية ، ويستخدمه بورخس نفسه ، مستشهدا بشوبنهاور ، كدليل على أن العالم هو حلمنا وفكرتنا نحن عن هذا « الصدى الرقيق الخالد للعقل » والذي يذكرنا بأن وجودنا كله زائف أو على الأقل خيالي .

« المكتبة اللامتناهية » الموجودة في واحدة من أعظم القصص ، هي صورة سديدة لأدب الاستنزاف « مكتبة بابل » تضم كل ما هو ممكن من أبجدية الأشخاص والأماكن ، تضم كل كتاب ممكن أن يوجد وكل حالة بما فيها حججك وبراهينك وتاريخ المستقبل ، وكل مستقبل ممكن ، ودوائر المعارف سواء لطولون أو لأية عوالم أخرى متخيلة ولم يذكرها ، وحسب كون لوكريشيوس فان عدد العناصر وتراكيبها محدود (برغم أنه كبير جدا) فان عدد حالات كل عنصر وتراكيبه لا نهائي مثل المكتبة نفسها .

وذلك يوصلنا الى الصورة المفضلة تماما لدى بورخس : التيه . وبالنسبة فان التيه هو اسم الكتاب الأساسي والحقيقي له . والدراسة الوحيدة المطولة في الانجليزية عن بورخس ، التي كتبتها أنا ماريا بارينيشيا أسمتها : « بورخس صانع التيه » .

والتيه في النهاية هو المكان الذي تتجسد فيه كل امكانيات الاختيار بشكل نموذجي ، وتستنزف قبل أن تصل الى القلب أو الجوهر (عندما الاستثناء الخاص مثل ثيسيوس) . حيث ينتظر هناك « مينا تاور » - العقل - باختيارين آخرين : الهزيمة والموت أو النصر والحرية .

في الواقع ، أن ثيسيوس الأسطوري ليس باروكيا ، وشكرا لحبل اريادن الذي مكنه من اختصار الطريق في كنوسس ، ولكن مينا لاوس على شاطئ فيروس هو باروكي عند بورخس ، ويصور أخلاقيات فنية أصيلة في أدب الاستنزاف . فمينا لاوس ضائع في التيه الأكبر للعالم ، وعليه أن يتصرف بسرعة ورجل البحر العجوز يستنزف مظاهر الواقع المخيفة ، حتى ينتزع الاتجاه الصحيح منه حين يعود بروتوريوس الى حقيقة نفسه . انه اقدام بطولي للخلاص كموضوعه - المرء يسترجع أن هدف

الممثلين المقلدين للحياة بالتعامل مع التاريخ بحيث يعود المسيح أسرع ،
وتحولات شكسبير البطولية تتوج ليس بمجرد تجلى الاله ولكن بتمجيده
أيضا .

ان ثيسسيوس فى التيه الكريتى يصبح فى النهاية الصورة الأكثر
ملاءمة لبورخس ، ولن يستطيع أن يجسد هذه الصورة أى بطل قديم
وحسب ، وهى صورة محزنة لنا نحن الديمقراطيين الليبراليين ، فالجمهور
سيظل دوما لساقدا روحه وطريقه ، انها البقية التى اخترناها ، البقية
الصالحة ، البطولة الثيسسيوسية ، التى تواجه الحقيقة الباروكية ،
والتاريخ الباروكى ، والفن الباروكى ، التى لا تحتاج الى أن تثمرن على
قدراتها على الاستنزاف ، أكثر مما يحتاج بورخس ليكتب دائرة معارف
طولون أو الكتب فى مكتبة بابل . هذا البطل الثيسسيوسى الذى بقى لنا ،
كل ما يحتاجه أن يكون واعيا بوجود كل ذلك أو امكان وجوده ، يعرف
ذلك وبمساعدة مواهب خاصة - غير عادية كقديس - أو بطولة على الأرجح
لن يجدها فى مدرسة نيويورك للأدب بالمراسلة ، وأن يتجه قدما عبر
البحيرة لإنجاز عمله .

الروائي في مفترق الطرق

ديفيد لودج

« يسأل مارفن سام اذا ما توقف عن كتابة روايته ، فيجيبه سام « مؤقتاً » ويفيد بأنه لا يجد الشكل المناسب لها ، ولا يريد كتابة رواية واقعية ، لأن الواقعية لم تعد واقعية » .

نورمان ميلر في « الرجل الذي دوس اليوجا » .

أعطى كتاب روبرت سكولز Robert Scholes الأخير « صانعو الخرافة Fabulators » سنة ١٩٦٧ دفعة جديدة للعبة التخمين القديمة : « الى أين تتجه الرواية ؟ » ، فقد حثني ، على الأقل ، على محاولة تنظيم أفكارى الخاصة حول الموضوع . ولكى أفعل ذلك ، ولفهم كتاب « صانعو الخرافة » ، لابد من العودة لكتاب سابق لسكولز كتبه بالاشتراك مع روبرت كيلوج وهو كتاب « طبيعة السرد الروائي » سنة ١٩٦٦ . عرض المؤلفان ، فى هذا الكتاب « صيغتين متباينتين للسرد الروائي : الاسلوب الاستقرائي وولأوه الأساسى للواقع ، والاسلوب الخيالى وولأوه الأول للمثالى النموذجى . وينقسم الاسلوب الاستقرائى الى التاريخ المطابق للحقيقة ، والى ، ما يسميه المؤلفان ، تقليد الواقع وهو المطابق للتجربة . والاسلوب الخيالى ينقسم الى الرومانسى الذى يفرس الجمال ويسعى الى المتعة والبهجة ، والى الرمزى الذى يفرس الخير ويسعى الى البناء . هذه النظرية للنوع الأدبى تتطابق بشكل كبير مع الصيغة الأدبية التاريخية ، فالملمحة الشفوية البدائية كانت خليطاً من الأسلوبين الاستقرائى والخيالى ، وتحت ضغوط ثقافية مختلفة (خاصة التحول من الأشكال الشفوية للاتصال الى الأشكال الكتابية) ، انقسمت الى عنصريها المختلفين . وهذا الانقسام حدث مرتين ، مرة فى الأدب الكلاسيكى فى عصره المتأخر ، ومرة ثانية فى الآداب الأوروبية البارحة ، حيث تطور هذان الأسلوبان كل واحد مستقل عن الآخر أو فى اتحاد جزئى .

في أواخر العصور الوسطى وعصر النهضة كانت هناك حركة ملموسة في السرد الأدبي لانتاج وتراكيب جديدة من الأسلوبين الاستقرائي والخيالي ، ونتج عن ذلك ظهور الرواية في القرن الثامن عشر . ويرى المؤلفان في الأساليب السردية التجريبية للكتاب المعاصرين ، وتقدم وسائل الاتصال الحديثة كالسينما مثلا ، دليلا على أن التراكيب الأسلوبية على وشك أن تذوب في بعضها ثانية .

ومع أن هذا التفكير الطموح يبدو من السهل انتقاده عند الدخول في التفاصيل ، فاني أعتقد أنه تفكير موح ومثير ، حين نحاول أن نلقى " من خلاله ، نظرة عريضة على طبيعة وتطور الرواية . انه يمنحنا مادة تؤكد الحدس الغامض لدينا ، بأن الرواية تشكل بالنسبة للحضارة الحديثة ، ما كانت تشكله الملحة للحضارة القديمة . ومن الأفضل أن نقول ان الرواية هي تركيب جديد لتقاليد سردية سابقة ، على أن نقول انها استمرار لواحد من هذه التقاليد ، أو القول انها ظاهرة جديدة غير مسبوقة ، وذلك يرجع لشكل الرواية بتنوعه الكبير وشموليته ، ومقدرتها على استمرار التقدم في اتجاه التاريخ - بما فيه السيرة الذاتية ، أو القصة الرمزية أو الخيالية ، ومع ذلك تظل بشكل أو بآخر « الرواية » . ويجب ملاحظة أنني لا أستند في ذلك الى مقولة سكولز وكوليج الرابعة والتي يسميها تقليد الواقع وأفضل تسميتها بالواقعية . فالحديث عن دفع الرواية نحو الواقعية مع بفائها بشكل ما « رواية » لا يعطي المعنى المباشر للدراك بأن هناك صراعا للاهتمامات بين الرواية والواقعية ، سواء استخدم المرء ذلك المعنى المراوغ أو المرن مبدئيا بالمعنى السابق كما فعلت ، أي للإشارة الى أسلوب معين من الكتابة التي تعالج ، على وجه التقريب ، الأحداث الخيالية كأنها نوع من التاريخ ، أو استخدمه بمعنى أكثر خصوصية للإشارة الى الجماليات الأدبية لقول الحقيقة ، وفي معظم التاريخ الروائي ، فان إحدى هذه الأفكار عن الواقعية كانت تميل دوما الى أن تتضمن المعنى الآخر داخلها . ولو لم تكن الواقعية من ابتداع روائيين القرن الثامن عشر واتباعهم من القرن التاسع عشر بالفعل ، فانها بالتأكيد تطورت واستخدمت على أياديهم بشكل غير مسبوق في العصور الماضية ، وحين تم انجاز كل المواصفات والاعتراضات الضرورية على هذا الشكل ، فقد برز معظم الروائيين مساهمتهم بهذا الشكل الواقعي بأنه استجابة الى نوع من علم الجمال الواقعي .

وهكذا ، اذا كان سكولز وكيلوج على صواب في رؤيتهما بأن الرواية هي تركيبة جديدة لأساليب السرد السابقة ، فان الصيغة المسيطرة ، والعنصر البنائي فيها هي الواقعية . فالواقعية هي التي تمسك بالتاريخ

والخيال والرمز معا في بناء غير مستقر ، مقيمة جسرا بين عالم الحقائق غير المترابطة (التاريخ) وعالم الفن والخيال المقتضد المصبوب في نماذج خيالية ورمزية .

لقد أشبعت الرواية - أسمى الأشكال الأدبية - توقنا لتنظيم التجربة في شكل له معنى ، ولم تنكر علينا استقرارنا لعشوائيتها وخصوصيتها . ولذا فهي مبنية على نوع من التسوية أو الحل الوسط ، بما يسمح لكثير من التنوع والتركيز على جانب أو آخر من ريتشاردسون وفيلدنغ الى الآن ، كما قاومت المحاولات العديدة لانهاؤها - أى الرواية الواقعية .

وكانت إحدى هذه المحاولات : الرواية القوطية Gothic التى كانت ثورة ضد الواقعية ، والتى رعاها معظم الوقت فنانون من الدرجة الثانية ، وقد قوبلت اما بالسخرية (جين أوستن مثلا) أو روضت ودجنت واستوعبت فى أسلوب أكثر واقعية (الأخوات برونتى) ، ولا ننسى أن التشويه أو التركيب الروائى كان أكثر ثباتا فى أوروبا عنه فى أمريكا ، حتى ان كتابا جذبههم التاريخ والخيال والرمز بشدة ، كان للواقعية أثر قوى عليهم ولو بشكل متقطع مثل هوثرن وملفيل ، بينما فى هكلبرى فن لمارك توين - التى استتشف فيها همنجواى كل الجيد من الأدب الأمريكى الحديث - نجد انجازا روائيا كلاسيكيا : اهتمامات ذات موضوع أسطورى ، استوعبت وعبر عنها خلال مرجع واقعى لتجربة خاصة .

واذا وافقنا على ذلك ، فان تفسخ التركيبة الروائية ينبغى أن يرتبط مع تقويض راديكالى للواقعية كصيغة روائية ، وذلك ما يزعمه بالضبط كتاب « طبيعة السرد الروائى » . ويمكن القول ان الواقعية الأدبية تصور تجربة الفرد فى عالم ظاهراتى عام ، ويشير سكولز وكوليج أن ضغط الثقافة الحديثة ، خاصة التطورات المعرفية فى ميدان علم النفس ، جعل الكاتب يتتبع واقعية تجربة الفرد الى أعماق أكثر فى اللاوعى واللاشعور ، فبدأ العالم العام المدرك يتقلص ومفهوم الشخص المتفرد يذوب ، ووجد الكاتب نفسه فى منطقة الأحلام والأساطير والرموز والنماذج الأولية التى تتطلب أسلوبا خياليا للتعبير عنها أكثر من الأسلوب الاستقرائى : فالدافع التقليدى فى توصيف ورسم الشخصيات فى الحياة الداخلية يذوب حتما فى النماذج الأسطورية والتعبيرية حين يصل الى « قلعة النفس الداخلية » ، ومن ناحية أخرى اذا سعى الكاتب لانصاف العالم الظاهرى العام ، وجد نفسه فى منافسة مع وسائل اتصال جديدة مثل الأشرطة والسينما التى تزعم بأنها تفعل ذلك بتأثير أكبر .

وهذه النقطة الأخيرة ، طورها سكولز في كتابه « صانعو الخرافة »
الكتاب الذى يعتبر أكثر جدلا وعلاقة بالوضع الروائى الراهن من سابقه
« طبيعة السرد الروائى » .

« ان السينما وجهت ضربة قاضية الى الواقعية المحتضرة فى الرواية .
ان الواقعية تعمل دائما على جعل الكلمات تابعة لما تشير اليه ، الى الأشياء
التي تدل عليها الكلمات . ان الواقعية تشيد بالحياة وتقلل الفن ، تشنى
على الأشياء وتنقص الكلمات . ولكن حين نريد تقديم الأشياء . فإن صورة
واحدة تساوى ألف كلمة ، وفيلم سينمائى واحد يعادل مليون كلمة . على
الرواية فى مواجهة السينما ، أن تتغلب عن محاولتها تقديم الواقع ، وتستند
بدرجة أكبر على قوة الكلمات لتبعث الخيال » .

يتكون قسم كبير من كتاب سكولز من دراسات قيمة حول عدد من
الروائيين المعاصرين الذين أدركوا - من وجهة نظره - زوال الواقعية
وبالتالى الرواية التقليدية ، وأنهم يستكشفون بثقافتهم الحديثة ، الصيغ
النقية الخيالية للرواية . ولكى يصف هذا النوع من السرد ، فقد أحيا
الكلمة القديمة المهجورة « صنع الخرافة » وهو تطور يرحب به ، « فإذا
كانت الرواية تحتضر فعليها ألا تخاف على المستقبل » .

الروائيون الذين يتناولهم فى كتابه بشكل رئيسى هم : ايريس
مردوخ لورنس دريل ، جون كوكس ، تيرى سودرن ، كرت فونيغت وجون
بارث . ويرى سكولز فى « رباعية الاسكندرية » استغلالا بارعا للدسائس
المعقدة ، ووضعاً مناسباً لقلب الأمور فى رواية اسكندرائية . كما يرى
أن رواية « وحيد القرن » لايريس مردوخ ، رمز متقن ذو وجوه متعددة ،
منسوجة بشكل روائى قوطى حول الصراع بين المواقف الدينية والمواقف
العلمية . ويرى فى هوكس والساخرين السوداويين سودرن وفونيغت
أهم يمارسون شكلا سرياليا من الرواية البيكاريسكية (التى تصور
حياة الصعاليك والمتشردين ومغامراتهم) كما يعتبر رواية جون بارت
« راعى غنم جايلز » بخليطها الثرى والفياض من الأسطورة والرمز والخيال ،
المثال الكامل لنظريته .

ويلاحظ سكولز ان الطريقة الصحيحة الوحيدة لمعالجة « الهدف »
فى العمل الأدبى هي من خلال احساس عال ومتميز للنوع الأدبى ذاته ،
وكلامه حول هذه النقطة مفيد ، ولكنه كتحقيق غير متميز نوعا ما . عند قراءتى
لرواية « وحيد القرن » لمردوخ ، شعرت تحت إرشادات سكولز ، أنى
فهمت ما تسعى اليه المؤلفة بشكل أكثر وضوحا ، من قراءتى السابقة

لرواياتها ، لكن الأفكار في تلك الرواية ، أو الحبكة المعقدة ، أو عملية تجزيده السابق من اللاحق ، هل تعود علينا بمتعة كبيرة أو بناء عظيم ؟
انها أمور تظل محل تساؤل ، وسكولز لا يواجه هذا التساؤل الا نادرا ، فعنده أن رفض الواقعية في سبيل الخرافية ، هو في حد ذاته ضمان للقيمة الجيدة .

لذا على القارئ الانجليزي أن يكون حذرا وواعيا في قراءته ، فهناك دلائل كثيرة أن العقل الأدبي الانجليزي يلتزم ، بصفة خاصة ، بالواقعية ، ويقاوم الأساليب الأدبية غير الواقعية لدرجة يمكن وصفها بالتحيز ، وهو نبيء عادي في التاريخ الأدبي المعاصر ، فالرواية التجريبية الحديثة التي قدمها جيمس جويس وفرجينيا وولف ود . ه . لورنس ، التي هددت بوضع حد للبناء الثابت للرواية الواقعية ، قد تبرا منها جيلان متتابعان من الروائيين الانجليز . ومن الصعب أن نتجنب ، عند مراجعة تاريخ الرواية الانجليزية في القرن العشرين ، من الربط بين استعادة التقاليد الواقعية في الرواية والانحلال الملحوظ للانتاج الفني ، وهناك حقيقة مؤكدة مزعجة ، وردت في تعليقات روبن رابينوفتش في نهاية كتابه « رد الفعل تجاه التجريب في الرواية الانجليزية في الفترة من ١٩٥٠ - ١٩٦٠ » .

« أنتج المزاج النقدي في انجلترا مناخا تنتعش فيه الروايات التقليدية ، وأي نتاج خارج عن المؤلف يوصم بأنه « تجريبي » ويهمل . ان الخوف الأكبر لدى الروائي الانجليزي أن يرتكب في عمله ما لا يجوز ، فكل خطوة يتخذها تظل ضمن حدود محسوبة ، والنتيجة مضمونة فنيا ، لكنها في النهاية عادية ، والروائيون الناجحون سرعان ما يصبحون جزءا من المؤسسة الأدبية ، وغالباً ما يستخدم الواحد منهم موقعه كناقذ ، ليصادق على الروايات التي تشبه ما يكتبه بنفسه ، ويهاجم تلك الروايات التي يرى أن مداخلها مختلفة » .

ومع أن لدى رابينوفتش القليل من الجديد والمهم حول الرواية الانجليزية في الخمسينات ، الا أنه قد نقب عميقا في الأرشيف الصحفي لتلك الفترة ، وقدم بعض الوثائق المهمة ، فمن المفيد أن نعلم أو نتذكر بأن والتر ألن قد كتب مراجعة نقدية في « نيوستيتمان » لرواية « اله الدباب » لوليم جولدنج سنة ١٩٥٤ على الشكل التالي :

« ان كل ما حكته لنا رواية « اله الدباب » يشبه نتفا من كابوس ، انها تفرض علينا قبولاً رغماً عنا : ان الارتداد من جوقة المدوسة الى قبائل

الماو ماو لا يحتاج إلا خطوة • تبدأ الصعوبة حين نشم رائحة الرمز « لا يوجد طفل ضعيف إلا وعنده صليبه الصغير ليحميه » ، ويبدو لي أن صلبان هؤلاء الأطفال ، ثقيلة بشكل غير طبيعي ، لنستخلص نتائج ما من رواية جولدنج ، وإذا كان الأمر كذلك • فالرواية مكتوبة بمهارة ألا أنها ، غير سارة وتأثيرها قليل • فالافتراضات الجاهزة - غير المحصنة - وراء هذا النقد ترى أن الرمز بالضرورة حيلة أدبية ، لأنه يجعل من حركة الرواية « غير طبيعية » ، ويضعف المعيار النقدي ، هذه الافتراضات كانت شائعة ونمطية في الأدب الانجليزي بعد الحرب الثانية ، ويبدو واضحاً الآن أن ذلك النقد كان استجابة غير موفقة لرواية « اله الذباب » (لقد اعترف والتر آلن بأكثر من هذا بامتداحه الرواية في كتابه « التراث والحلم » سنة ١٩٦٤) •

ولكن كانت الحالة نوعاً من الحذر • وقد لقيت معظم روايات جولدنج التالية اعتراضات مماثلة عند ظهورها على الأقل •

ولو انتقلنا إلى الروائيين الذين يعجب بهم سكولز ، نجد اثنين من الانجليز (ايريس ميردوخ ودريل) وهما قد نالا شهرة في الخارج أكثر مما نالاه في الوطن ، واستقبلت أعمالهما الأخيرة بقليل من الترحيب في انجلترا ، كما نجد أربعة روائيين أمريكيين ، لهم أثر ضئيل على القراء الانجليز بالمقارنة بغيرهم ، ففرونيجت ليس منتشراً في بريطانيا ، و « سودرن » برغم أنه معروف بسبب روايته الفضائحية « كاندي » ، لذلك لا يعول عليه كثيراً في السمعة الأدبية ، أما روايات « هوكس » فقد فشلت بشكل مؤسف في انجلترا لولا بعض الجهود المتعمدة من معجبين قلائل ، بينما رواية « راعي ماعز جايلز » لبارت برغم استقبالها الحار في أمريكا ، فإن مراجعي الروايات في انجلترا قد حطوا من شأنها •

إن الصورة التي نحصل عليها من كتابي سكولز ورايينوفتش ، من أن انجلترا ضيقة الأفق ولا أمل فيها وهي تدافع عن واقعية تقليدية عتيقة عفا عليها الزمن ضد غزو باعث على الحياة من الخيال والخرافة ، هي صورة مبسطة مخلة ، لسبب واحد أن اجماع الرأي الأدبي الانجليزي الذي وصفه رايينوفتش ، قد تزعزع بشكل كبير منذ سنة ١٩٦٠ ، ولسبب آخر أن صنع الخرافة ليس هو البديل الوحيد للواقعية التقليدية ، وكتابات الروائيين المعاصرين تؤكد ذلك •

وسأبدأ بالنقطة الأخيرة أولاً : قد يكون سكولز على حق في رؤيته أن الرواية هي أقرب إلى التفكك اليوم أكثر من أي وقت مضى في تاريخها دائم التغير • لكن تشخيصه لوضع الرواية في كتابه « صانعو الخرافة »

أحادي الجانب ، فهو يرى أن تركيب الصيغ الاستقرائية والخيالية لم تعد تستحق عناء التمسك بها ، ويوصي بأن السرد الروائي لابد أن يستغل الصيغ الخيالية فهو يملك ميلا خاصا وطبيعيا لها ، لكن المنطق يقول ان الأمر يتساوى لو تحركنا في الاتجاه المعاكس - نحو السرد الاستقرائي بعيدا عن الخيال ، وهذا في الواقع هو ما يحدث الآن .

اصطلاح « الرواية غير الخيالية » صكه لأول مرة ، على ما أعتقد ، الروائي الأمريكي ترومان كابوت لوصف روايته « بدم بارد » وهي عن جريمة وحشية لقتل متعدد ارتكبت في كانساس سنة ١٩٥٩ ، وكانت كل تفصييلة في الكتاب حقيقية « اكتشفها كابوت بمثابة شديدة ، فقد أمضى ، مثلا ، ساعات كثيرة مع القتلة في السجن لمعرفة طبيعة شخصياتهم وخلفياتهم الاجتماعية ، ومع ذلك فالكتاب يقرأ كرواية ، لقد كتبها روائي للامكانات الجمالية لمعطياته ، وللخواص المثيرة والرمزية للتفاصيل التي صاحبت تلك الظروف ، وللتناقض الساخر والمظهرى في البنية ، الاعتراضات الأخلاقية التي أثارها الرواية - بأن هناك شيئا ما قاسيا وغير انساني في المعالجة الأدبية لتجربة فعلية مؤلمة وقريبة الحدوث - كانت أحد المؤشرات التي أكدت الحدود الاصطلاحية بين الرواية والتحقيق الصحفي .

كذلك فان رواية نورمان ميلر « جيوش الليل » تؤكد هذه الحدود ، وذلك واضح في عنوانها الفرعى « التاريخ كرواية - والرواية كتاريخ » ، في القسم الأول « التاريخ كرواية » وهو عن المسيرة للبنتاجون للاحتجاج على حرب فيتنام سنة ١٩٦٧ ، يحكى المؤلف بشكل مفصل عن تجربته الخاصة في المسيرة ، منذ موافقته كارها على المشاركة ، وطقوس التجمع في مسرح الامباسادور في واشنطن ليلة المسيرة ، حيث أصر ميلر منتشيا على قيادة المسيرة ، فاضحا أو مصيبا الحاضرين بالحيرة ، ثم القبض عليه وسجنه ومحاكمته واطلاق سراحه ، وقد عبر ميلر عن هذا القسم بقوله : « لاشئ سوى تاريخ شخصى كتب بشكل روائى ، وهو أفضل ما فى ذاكرة المؤلف المتشكلة قربا من الحقيقة » . وهو يميزه عن كتابة السيرة الذاتية بأن كتبه بضمير الغائب ، محققا بعدا تهكميا على شخصيته المعقدة التي تشكل أحد مباحج الكتاب الرئيسية :

« فلنغن لهم أغنية يا أولاد » قال ميلر للمتظاهرين (الذين يحملهم الباص الى السجن) ، لم يستطع أن يحتمل ، فالمشعوذ داخله شعر كأنه يقوم بدور ونستون تشرشل . منذ عشر دقائق كانت أفكاره قد غاصت فى فكرة طويلة بطيئة عن زوجات أربع - والآن هو على خشبة المسرح

ثانية ويشعر أنه بطل ، وتساءل : أيمن ذلك ؟ أيمن أن يكون قد أضاع عشرين سنة من حياته كروائي وهو طوال الوقت يتوق لأن يكون ممثلاً ! »

هذه السخرية من النفس باستخدام ضمير الغائب ، أتاحت لميلر أن يصف زملاءه في المسيرة ، مثل دويت ماكدونالد وروبرت لويل ، بصراحة جارحة قد تبدو سفيهة في السيرة الذاتية التقليدية ، وأن ينغمس بدرجة أكبر في التعميم في تنبؤاته الثقافية حول أمريكا ، التي تشبه « الأفكار » في الرواية ، نحكم عليها بمنطقيتها ، وقوتها الاستعارية ، ومطابقتها لسياق الكلام ، أكثر من حكمنا عليها بمعيار المنطق الصارم. أو صحة الحوادث ، يقول مثلاً :

« المدينة الأمريكية الصغيرة .. تطورت وتضخمت تضخماً ذاتياً ، ونمت خلاياها ، وعملت في سبيل الحكومة ، ووجدت أمنها بالحرب في بلاد أجنبية ، الكوانييس التي حملتها الرياح في المدن الصغيرة العتيقة ، سافرت الآن على طرف خرطوم قاذف للهب ، ولا أحلام الآن عن شهوات الهمج ، والقرى المذبوحة ، ومعارك الدم ، لا حاجة إليها ، فالتكنولوجيا قد أخرجت الجنون من الرياح ، من غرف الأسطح ، ومن كل الأماكن البدائية ، وعلى المرء أن يجده الآن حيث توجد الحمى والقوة والآلات معا ، في لاس فيجاس » في طرق السباق ، ومباريات كرة القدم ، وطقوس انزئوج ، وعصابات الضواحي - ولا شيء منها يكفي - فعلى المرء أن يبحث عنها في فيتنام ، فقد ذهبت المدن الصغيرة الى هناك لتحصل على ركلاتها ، »

وسيجد المرء اختلافاً ذا معنى . اذا حول الكلام المباشر الحر الى صيغة المضارع البسيط الواضح لمقال تقليدي .

ومن السهل أيضاً توصيف أسس السرد في القسم الثاني من رواية جيوش الليل ، ففي بداية هذا الجزء « الرواية كتاريخ » يتحدث ميلر عن الروائي الذي يمرر أدواته للمؤرخ ، ويبدو أنه يعنى أن طريقة السرد في القسم الأول التي تمت بالطريقة الجيمسية (نسبة الى هنري جيمس) ، ستتحوّل الى طريقة المؤرخ الذي يستقى معلوماته من المصادر المختلفة ويوازن بينها ويقدم كما مترابطاً واضحاً لتتابع الأحداث المعقد .

« الجمهور الكبير الذي يحيط المسيرة بشكل غاية من الفوضى ، التي قد تعنى جهود المؤرخ ، وقد زودتنا روايتنا بالامكانية وحتى بالأداة التي نرى بها الحقائق وندرسها ونذكرها في ذلك الضوء لتنتج عملاً كصقل العدسات » .

ان البحث فى النفس فى الجزء الأول من الرواية قد عرّض وطهر
أى تحيز حتمى لأى تقرير انسانى ، وهكذا فان « الرواية » أعطت التاريخ
نوعا فريدا من المصادقية . فى منتصف الجزء الثانى تخلق ميلر عن هذا
المطلب ، وذلك حين يصل فى سرده إلى نقطة المواجهة بين قوات المشاة
والمظاهرين ، فيقول : « ان الجزء الثانى يفرض الآن كنوع من التكثيف فى
الرواية الجمعية ، حيث ان غموض الأحداث فى البنتاجون لا يمكن أن يشرح
بوسائل التاريخ ولكن فقط بغريزة المؤلف » . فهو يطلب الحرية ليعزز
سرده بخلق شيء حى ، فمثلا يتخيل الخطبة التى يلقيها الميجور على الجنود
قبل المواجهة :

« قال الميجور : يا رجال . مهمتنا هى حماية البنتاجون من المتمردين ،
وضعوا فى اعتباركم أنهم مواطنون أمريكيون يعبرون عن حقوقهم الدستورية
فى أن يحتجوا ، وذلك لا يعنى أن نتركهم يبصقون فى وجوهنا ، لكن
الدستور وثيقة معقدة دواء ، له شروطه فى كل وضع ، خذوا الأمر
بالشكل : التالى : لقد مضى الفيتكونج أصدقاؤى . نربما لا أهتم فى هذه
الدقيقة أن أعبر عن المشاعر الشخصية ، لكن خذوا فى . اعتباركم . ان
هؤلاء المظاهرين فى الخارج قد يحملون قنابل أو قذائف قاتلة ، وتذكروا
أنهم هم الذين بدءوا الصدام ، ويتمنون ألا يغادروا نيويورك الا اذا قتلتم
جميعا عند محاولة تشتيت جموعهم . نعم ، حافظوا على مؤخراتكم يسلم
من خلفكم » .

وهذا بالتأكيد يفيد موهبة الكاتب فى رسم صورة ساخرة بائتهاك
الطريقة الحديثة للمعالجة التاريخية (مع أن هذا كان مألوا جدا عند
المؤرخين الكلاسيكيين) .

ان جيوش الليل لاتعنى أن المؤلف تخلص من وهم الشكل الأدبى
فى الرواية ، بل هى تؤكد على أولوية ذلك الشكل كصيغة لتوضيح تجربة
ما ، مع ذلك فالرواية غير الخيالية ، مثلها مثل الرواية الخرافية ، غالبا
ما ترتبط بالتخلص من الوهم ، والحالة الأكثر تعبيرا عن ذلك « هى أعمال
الكاتب الانجليزى ب . س . جونسون ، الذى بدأ انفصاله عن الرواية
التقليدية واضحا جدا فى روايته :

« البرت انجيلو Albert Angelo » سنة ١٩٦٤ ، ثلاثة أرباع هذه
الرواية تحكى قصة مهندس معمارى شاب لا يستطيع ممارسة مهنته ،
ويضطر لكسب عيشه بالعمل مدرسا من الخارج فى عدد من مدارس لندن ،
وهو بطل روائى يشبه العديد من أبطال روايات ما بعد الحرب أو ما يمكن

تسميته البطل الضد ؛ شاب محبط ، لا ينتمى لاية طبقة ، جانح باعتدال ، أصيب بخيبة أمل في الحب ، ومع أن المؤلف استخدم عددا من التقنيات التجريبية المؤثرة (تقديم الحوار والفكر في عمودين مزدوجين في الصفحة في الوقت نفسه ، وثقوب في الصفحات يمكن القارئ من رؤية ما هو قادم) فإن السرد يقرأ كالرواية الواقعية ، وتأتي الصدمة في بداية الفصل الرابع :

« ليذهب الى الجحيم كل هذا الكذب ، بما أحاول كتابته في الحقيقة ، ليس كل هذه المادة عن الهندسة المعمارية ، فأنا أحاول أن أقول شيئا ما عن الكتابة ، عن كتابتي أنا بطل هذه الرواية ، ومع ذلك يا لها من تسمية بلا فائدة ، شخصيتي الأولى اذن هي محاولة قول شيء ما عني من خلاله هو البرت المهندس المعماري ، ما الفائدة من التغطية من التغطية من التغطية أو التظاهر أو التظاهر بأنني أستطيع قول أي شيء من خلاله أي شيء أنا مهتم بقوله » ...

باختصار ، ان جونسون يعرض ثم يدمر خيالية السرد التي خلقها بعناية وهو يخبرنا بالحقائق الواقعية وراء قصته - مثلا اسم الفتاة الحقيقي التي أحبها البطل ، وبينما في الرواية تتخلل الفتاة عن البرت ، ففي الواقع أن البرت هو الذي يتخلل عنها ، وبالطبع على المرء أن يصدق المؤلف في هذا الفصل بأنه يقول الحقيقة ، حتى لو شك المرء فان الرواية تظل مجردة بصراحة مما يسميه هنري جيمس « بالمصدر الموثوق للمعلومات » ، انها استراتيجية لتحقيق تأثير للأصالة والصدق ، ولكن ذلك يأتي متأخرا في العمل ، انه إشارة أكثر منه انجازا . بعد نفسه لجسوره الخيالية ، يقف المؤلف في نهاية الكتاب متمردا وهشنا على أرض الحقيقة العارية ، وفي كتبه التالية « شبكة الصيد » سنة ٦٧ ، و « التعساء » سنة ١٩٦٩ ظل يتخذ الموقف الأفلاطوني بأن «رواية القصص هي عبارة عن قص الأكاذيب» ، ولكنه في الوقت نفسه يقوم بتجارب شكلية لتجعل الكتابة في أقرب موقع من الحياة .

في رواية « التعساء » مثلا ، تتكون من سبعة عشر فصلا منفصلة غير ملصقة ببعضها ، موضوعة في علبة كرتونية ، الفصل الأول والفصل الأخير منها محددان (أي بأن هذا هو الأول وهذا هو الأخير) وبقية الفصول غير محددة وللقارئ أن يرتبها عشوائيا بأي شكل ويقرأ الرواية ، وهذا الشكل غير التقليدي بني ليقدم أسلوب عمل العقل العشوائي دون التتابع القسري لترتيب صفحات الكتاب ، ولكن هذه ليست القضية في الحقيقة ، فالتدفق العشوائي للأحاسيس والأفكار المتداخلة في عقل المؤلف ، يضعها

فى كل فصل على شكل كلمات وجمل - تكنيك تيار الوعى على طريقة جيمس جويس ، والعشوائية هنا تؤثر فقط فى وقت تقديم تيار الوعى هذا . وذلك يعطى أقصى اختيار محدد للروائى فى تقديم تتابع معين من الأحداث دون التزامها بأى اختيار . وهكذا هى طبيعة العقل البشرى ، ومع ذلك فان تحديد الفصل الأول ، يجعلنا بعد ذلك نرتب الأحداث فى نظامها المتعاقب ونحن نقرأ ، وهكذا فان عنصر اللعبة أو اللغز الذى يقدم فى تجربة القراءة يكون له التأثير (بشكل ساخر كما يرى المؤلف وأيضاً وجهة نظرى) فى وضع تجربة شخصية مؤلمة على بعد جمالى بحيث نقرأ كرواية أكثر منها كسيرة ذاتية .

بالنسبة لجونسون ، يمكن للمرء أن يرى من خلال رواياته الجهد المبذول للتخلص من ثقل التقاليد الكبيرة للرواية الواقعية ، وهو جهد يستحق التقدير .

وهناك الروائى الأمريكى فرانك كونروى Frank Conroy ، الذى لفتت روايته الأولى « وقت التوقف أو أوقفوا الوقت Stop time » الانتباه . وكما يتضح فهى رواية لا جهد فيها ، كاتب شاب من جيل سابق يكتب تجربته فى النمو بشكل سيرة ذاتية (والمعروف أن السيرة الذاتية تكتب بعد خبرة التضسج أو عند الشهرة) ولكن سيرة ذاتية على حد تعبير نورمان ميلر « صريحة حميمية دون أن يكون لها ضمان من نضج أو شهرة » فى شكل رواية « شىء آخر » وهذه عينة من ذكريات المؤلف عن والده :

« احاول أن أفكر به كأنسان عاقل . . ومع ذلك لابد من الاعتراف بأنه قام بأعمال غريبة . اشترك برقصة فى فندق بسبب فائدتها العلاجية وكان يبلل شعره بالبول ويصففه بطريقة انسان محترم . وكان يميل لخلع سرواله والقائه من النافذة (أكن بعض الاعجاب لهذا العمل) ويمكنه أن يعصف بالف دولار بلحظات ، ويختفى ليصبح صعلوكاً ، أمضى عدة أسابيع فى قلق دائم ، مقتنعا بأنى سأصبح شاذاً جنسياً ، كان عمرى وقتها ستة أشهر ، أذكر زيارتي له فى أحد الفنادق حين كنت فى الثامنة ، سرنا معاً عبر أرض خضراء منحدرية ، وحكى لى قصة ، اعتبرتها فى ذلك الوقت إحدى الأكاذيب ، عن رجل جلس على نصل سكين مغروزة فى مقعد حديقة (لماذا يا الهى يحكى قصة كهذه لابنه البالغ من العمر ثمانى سنوات »

أشار هارى ليفين Hary levin فى كتابه عن جويس « ان تاريخ الرواية الواقعية يبين أن الرواية تميل نحو السيرة الذاتية . فالمطالب

المتزينة على التفاصيل الاجتماعية والنفسية التي تضغط على الروائي ، لا يمكن اشباعها الا بالاستناد على تجربته الشخصية . كذلك فان القوى المختلفة التي تجعل منه لا منتميا تجعله يركز انتباهه على نفسه . وهذا فان جونسون وكونروي - ويمكن للمرء ان يذكر هنا هنري ميلر كسابق بهذا الشكل للرواية غير الخيالية - وصلا بهذا الشكل الى نتائج المنطقية ، فاذا كانت اعادة صياغة التجربة الشخصية بشكل خيالي يموهها ، واذا لم يعد الكاتب يشعر بالحاجة او الاضطراب لحماية خصوصياته وخصوصيات الآخرين ، فرواية السيرة الذاتية ، من هذا المنطلق ، تعتبر هامشية .

وقد ايد سكولز وكيلوج هذا الرأي في كتابهما « طبيعة السرد » :

« اذا كان هناك فرق بين السيرة الذاتية ورواية السيرة الذاتية فهو يكمن ليس في مدى اخلاص كل منهما للحقائق ، بقدر الاصالة في فهم هذه الحقائق وإدراكها والاخبار عنها ، فالأدب يوجد في المعرفة وتوصيل هذه المعرفة وليس في الحقائق » .

والجملة الأخيرة صادقة تماما . الا أنها أبهمت فكرة أن الروائي كاتب السيرة حر في أن يغير ويضيف ويعيد تنسيق الحقائق ، وان ممارسته لهذه الحرية ليست لمجرد حماية خصوصياته ، ولكن في سبيل القيم الأدبية مثل المعنى والترابط الشكلي . وعند تجربة القراءة ، نادرا ما يكون القارئ في موقع يستطيع فيه الحكم على مدى الاخلاص للحقائق في كل من السيرة الذاتية أو رواية السيرة الذاتية ، لكنه يتجاوب مع كل منهما بشكل مختلف ، ويحصل على نتائج مختلفة أيضا ، فرواية مثل « التعساء » أو « وقت التوقف » تعقد وتؤخر هذه العملية لاحتوائها على خصائص الشكليات ، لكن عاجلا أو آجلا يقرر المرء على ما اعتقد ، أن يقرأ السيرة الذاتية كرواية ، ورواية السيرة الذاتية ، كسيرة ذاتية .

ويمكن للمرء أن يكتشف في أعمال ب. س. جونسون تأثير صمويل بيكيت وبعض الروائيين الفرنسيين من كتاب الرواية الجديدة . ومع ذلك ، ففي التجربة الفرنسية في الرواية غير الخيالية ، فان الخيال الذي ينبثق من الرواية ليس مسألة شخصيات مختلفة ، أو أحداث فلسفية خيالية أو مخادعة ، وهو ما تشجعه الرواية التقليدية - بمعنى أن الكون يتأثر بالتفسير الانساني له وذلك يظهر بشكل واضح جدا في الكتابات النظرية لآلان روب جرييه ، وبشكل خاص في حديثه حول أن الواقعية التقليدية قد شوهدت الواقعية بفرض المعاني الانسانية عليها ، ذلك أنه بوصفنا لعالم الأشياء ، لسنا على استعداد للاعتراف بأنها مجرد

أشياء ، لها وجودها الخاص ، غير المبالي بنا ، نحن نؤكد الأشياء بإضفاء المعاني الانسانية عليها ، وبذلك نخلق احساسا ذاتيا من الوحدة بين الانسان والأشياء .

« فى ميدان الأدب ، فإن هذه الوحدة يعبر عنها خلال البحث المنهجى للقياس أو للعلاقات المتناظرة ، ان الاستعارة ليست شكلا بريئا للكلام . . ان اختيار كلمات متشابهة ، مهما كانت بسيطة ، يتخطى دائما اعطاء أية دالة طبيعية نقية تقيم علاقة دائمة بين الكون والانسان . ان كل اللغة الأدبية يجب أن تتغير ، الصلة المرئية أو الوصفية - الكلمة التى تتضمن نفسها قياسا وتموضعا وتحديدا وتعريفا - تشير الى اتجاه صعب ولكنه على الأرجح هو اتجاه رواية المستقبل » .

ان لغة التشابه أو المماثلة التى يعترض عليها آلان جرييه ، استخدمت بشكل جيد فى السرد غير الواقعى (.القصة البرهزية .مثلا) أكثر منه فى الرواية التى تزعم أنها شرفت عالم الأشياء أكثر من أى شكل أدبى سابق ، وذلك بفضل ما ينميه هنرى جيمس « متانة .التخصيص أو الموصفات » ، ولكن يظل جرييه على حق فى رؤيته أن الاستخدام الوصفى ، خاصة فى الرواية الواقعية ، يفترض علاقة ذات معنى بين الفرد والعالم الظاهراتى العام ، ومن وجهة نظره فإن طريقة الواقعية التقليدية تكتم هذه العلاقة وتستغلها فى الوقت نفسه - بتسلسل المعنى الاستعارى لوصف واقعى واضح للأثاث والملابس والطقس . . الخ - مما يجعلها أكثر تدميرا .

وفى محاولة « جرييه » تطهير سرده الخاص من التلميحات المتشابهة يقول سكرلز فى كتابه « صانعو الخرافة » :

« هذا لا يحل المشكلة ، لأن كل اللغة هى نتاج انساني ، ولا بد أن تؤنسب كل شيء تلمسه ، على الكاتب أن يعرف ذلك ويتقبله كأحد أدوات عمله ، أو يتحول الى فن لا يعبر عنه بالكلمة مثل السينما ، كما فعل جرييه بنجاح باهر فى مناسبة ما » .

أتفق كلية مع الجزء الأول من هذا الكلام ، ولكنى لا أستطيع قبول زعم سكولز بأن الواقعية الأدبية تجعل الكلمات تابعة للأشياء ، لا يمكنها فعل ذلك لكونها وسطا لغويا ، انها دائما تحول الأشياء الى كلمات ، وقد تخلق بالفعل . وهما بأن الكلمات تابعة للأشياء ، وقد يسبب هذا نوعا من الردع فى استغلال الموارد الأدبية للغة . ولكن الانتاج الأكثر تطرفا

نتيجة لهذا الردع عند جرييه ، والأكثر حدة عند بيكيت ، ليس نموذجاً للرواية الواقعية التي أعطت تاريخياً الكثير من الحرية لكتاب عظام كي يطوروا إمكاناتهم التعبيرية للوسط الذي يستخدمونه . ومن الصعب القول بأن جين أوستن أو جورج إليوت أو هنري جيمس أو فلوير بأنهم أقل براعة في استخدامهم للكلمات بسبب التزامهم بالواقعية .

ولست مقتنعا أيضا بأن الكاميرا في أيدي بشرية أكثر حيادية من اللغة ، أو أنها تعبر عن واقعية أدبية أكبر ، برغم استخدام « جرييه » الفيلم ليحدد ما يقصده بالواقعية الجديدة التي يريد منحها للرواية ، واستخدام روائيين آخرين للسينما في طريقة مشابهة . ان الراوى في رواية سالنجر « زوى Zoey » يصف القصة بأنها « نوع من السرد السينمائي في البيت » . بينما الشخصية الرئيسية في « المفكرة الذهبية » لدوريس ليسنج « - تلك الرواية التي احتاجت من المؤلفة كما من الجهد والألم للتعبير وتعريف وثبيت الواقعية - تجد نفسها دائما تلمح الى السينما لتشير الى الوسيلة الصادقة المقلدة للواقع التي تبحث عنها في كتاباتها ، ورؤاها الأكثر اقناعا لها في تجربتها الخاصة تأتيها على شكل هلوسة تبدو فيها أنها ترى حياتها كفيلم تخرجه بنفسها . هناك مع ذلك استراتيجية استعارية - الوسيط البصري يستعان به لتعزيز الاتصال اللغوي . ولهذا فان الفيلم يصنع للتدليل على فن مقلد للواقع بشكل عال . ولكنه شيء عادي أن تكون هناك لغة سينمائية من انتاج بشرى كاللغة اللفظية ، لغة سينمائية لها قواعدها الخاصة ، شروطها وإمكاناتها الخاصة التي يجب أن يتعلمها ويعرفها الفنان والجمهور ، لكي تجعل من المؤثرات المتنوعة غير المحدودة ممكنة ، ولا شيء من هذه القواعد والشروط « حيادي » أو موضوعي . السينما المعاصرة تستخدم ، في الواقع ، أساليب متنوعة كالمرواية المعاصرة ، من السينما غير الخيالية الى سينما قاع المجتمع الى السينما الخرافية ، مثل أفلام « ٢٠٠١ » لستانلي كوبريك أو « نهاية الأسبوع » و « الغواصة الصفراء » لجودار .

ونجد الموقف نفسه في المسرح الحديث ، حيث استبدلت المسرحية جيدة الصنع من وهم التفصيلات الدقيقة الواقعية (المعادل الدرامي للرواية الواقعية ، وهو انتاج فرعي للسيطرة الثقافية للشكل الروائي الواقعي) بدرجة كبيرة بتجارب تتواصل تقريبا مع الرواية الخرافية أو غير الخيالية في السرد . فرأينا مسرحيات تستغل الامكانيات غير الطبيعية في التقديم المسرحي لتبتدع وتتخيل بحرية مطلقة (مثل بريشت ويونيسكو ون . ف . سمبسون) ، ونرى من ناحية أخرى « مسرح الحقيقة » (هوخت وفايس) ، أو مسرحيات مشابهة من انتاج المسرح الأمريكي الحي

التي تسعى الى كسر القواعد التقليدية التي تفصل المشاهد عن الممثل ، وأن تدمج الاثنين في حدث منطلق غير مهيمن عليه ولا يمكن التنبؤ بنهايته مقدما .

يبدو أننا نعيش في فترة غير مسبوقة من الثقافة الجماعية التي تسمح لكل الفنون ، وللتنوع المدهش في الأساليب ، أن تنتعش في الوقت نفسه ، ومع ذلك فإنها ، في كثير من الحالات ، تنعارض جذريا مع بعضها على أرضية معرفية وجمالية مختلفة ، وبالتالي لم يستطع أسلوب معين أن يسيطر أو تكون له الغلبة ، في هذه الحالة ، على الناقد أن يكون متيقظا تماما ، فهو ليس مضطرا بالطبع أن يعجب بكل الأساليب بالدرجة نفسها ، لكن يجب عليه أن يتجنب الخطأ الرئيسي في الحكم على أسلوب ما بمعيار يتعلق بأسلوب آخر ، هو يحتاج الى ما يسميه سكولز « بالإحساس المتميز العالي للنوع الأدبي » ، وأما بالنسبة للفنان أو الروائي ، فإن وجود هذه الكثرة من الأساليب المحيرة يواجهه بمشاكل ليست سهلة الحل ، وينبغي ألا ندهش حين نرى كثيرا من الروائيين المعاصرين يظهرون أعراضا من عدم الأمان الشديد ، والعصبية بل وأحيانا نوعا من انفصام الشخصية .

ويمكن مقارنة الروائي اليوم برجل يقف في تقاطع طرق ، والطريق التي يقف عليها - أفكر مبدئيا في الروائي الانجليزى - هي طريق الرواية الواقعية ، الحل الوسط بين الصيغ الخيالية والصيغ الاستقرائية ، في الخمسينيات كان هناك شعور قوى بأن هذا هو الطريق الرئيسي ، التقليد الأساسية التي وصلتنا عبر الفيلسوفين والادواردين ، الذي انقسم مؤقتا بروايات التجريبيين المحدثين ، لكنه استعاد طريقه (على يد ارويل واشروود وجرين ووو وبويل وانجس ويلسون وسيليتو ووين . الخ) وسار ثانية في مجزأة الطبيعي ، تلك الموجة من الحماسة للرواية الواقعية في الخمسينات تحمدت أو قُلت ، لنسبب وأخت هو أن جدة التجربة الاجتماعية بعد الحرب التي تغذت عليها الرواية في تلك الحقبة قد خفتت - بسبب انهيار سلطة الطبقة البرجوازية المسيطرة اجتماعيا - كذلك فان التنظير الأدبي لهذه الحركة الواقعية كان ضئيلا وقائلا مما أثر كثيرا على هذا التيار . يقول س . ب . س . سنو مثلا :

« لو نظرنا الى الماضي ، لرأينا كم كانت غريبة حكاية الرواية التجريبية . وظلت التجربة ساكنة لمدة ثلاثين عاما ، كانت دوروثي ريتشاردسون رائدة كبيرة في ذلك المجال ، وكذلك جويس وفرجينيا وولف ، ولكن بين رواية « الأسطح المديبة » سنة ١٩١٥ وما تلاها من

روايات معظمها أمريكى ، لم يطرأ أى تطور ذى معنى • وفى الواقع لا يمكن أن يكون ، لأن هذه الطريقة فى الكتابة ، التى هى فى جوهرها إعادة تقديم تجربة قاسية من خلال لحظات من الاحساس ، تقطع بشكل مؤثر ودقيق تلك الجوانب من الرواية التى يمكن أن تقلصها التقاليد الروائية ، فى هذه الرواية التجريبية يجب التضحية بالتفكير والوعى الأخلاقى والبحث الدقيق ، وذلك ثمن كبير تدفعه ، وبالتالى فإن الرواية التجريبية ماتت من الجوع ، لأن نصيبها من المادة الانسانية ضئيل » .

أو كما كتب كينجزلى أميس Kingsley Amis :

« الفكرة بأن التجريب هو الدم الذى سيحيى الرواية الانجليزية ، فكرة ماتت ولا سبيل الى انكار ذلك • فالتجريب ، فى هذا السياق ، يقلل الاتساق الجميل ويحوّله الى غرابة متقطعة ، سواء فى البنية عن طريق وجهات النظر المتعددة وما شابه ، أو فى الأسلوب • لا تشعر فيها بأن الموضوع أو الموقف أو الجو العام مهم ، فهى تنتقل من مشهد الى آخر فى وسط الجملة ، تلعغى أو تقلل من الأفعال وأدوات التعريف ، وتجد نفسك فى مواجهة التجريب مباشرة لو فعلت ذلك ، على الأقل فى عيون أولئك الذين تربوا أو خلفوا جويس وفرجينيا وولف ووقفوا ضد التطورات الأكثر حداثة بشكل شرس » .

إن تعليق سنو لم يستطع أن يتجاوز الفحص السطحي (لا تطور بين صورة الفنان فى شبابه وبين فينجازويك ؟ أو بين رواية الأسطح المدببة لرواية الصخب والعنف ؟) بينما كان لدى « أميس » قوة خاصة ساخرة ومقنعة ، ويصوب على هدف تسهل مهاجمته ونقده ، ولكن ذلك النوع من الثقافة التى تزدري الثقافة تنتعش مؤقتا ولا يمكن الدفاع أو الحفاظ عليها لأجل غير مسمى سواء بواسطة أميس أو غيره •

ويستمر الروائيون فى كتابة الرواية الواقعية - معظم الروايات التى تنشر فى انجلترا ما زالت تقع داخل هذه الدائرة ، لكن يمكننا تناسي ذلك - فالضغوط المشككة فى المقدمات المنطقية والجمالية والمعرفية للواقعية الأدبية • كنيهة الآن لدرجة أن كثيرا من الروائيين بدءوا يأخذون فى الاعتبار الطريقتين الآخرين المتفرعين فى اتجاهين متضادين من مفترق الطرق ، بدلا من السير قدما بثقة فى طريق الواقعية • أحدهما يهتدى بالطريقتين يقود الى الرواية غير الخيالية ، والآخر يقود الى ما يسمى « صنع الخرافة » •

ولكى نكمل المقولة الأخيرة ، يمكننا أن نضيف الى الامثلة التي
نوقشت في كتاب « صيانع الخرافة » : جنشر جراس ووليم بدروز
وتوماس نيشون وليونارد كوهين (الحاسرون الجميلون) وسوزان سونتاج
(أمتعة الموت) ، وبعض روايات أنتوني بيرجز ، وأعمال مفردة لروائيين
ظلوا مخلصين بشكل عام للواقعية ، مثل رواية سول بيلو « هندرسون ملك
الأمطار » ورواية جون ايدايك « القبطور » ، ورواية مالامود « الطبيعي » ،
و « العجائز في حديقة الحيوان » لآنجس ويلسون ، ورواية « جورج »
لأندرو سينكلر . هذه الروايات توقف مؤقتا الوهم الواقعي بدرجة ما في
سبيل حرية في حبكة الرواية ، أو في سبيل معالجة رمزية واضحة في
المعنى ، أو في سبيل كليهما معا . وهي تميل أيضا الى استخلاص أفكار
موحية من أشكال أدبية شعبية معينة ، فيها اشباع لشهيات روائية
اساسية (مثل التباؤل ، الرعب ، تحقيق الرغبات) التي تسيطر عليها
الواقعية بشكل مخلخل غير محكم ، خاصة في شكل روايات الخيال العلمي
أو الأدب المكشوف أو أدب الرعب .

من بين هذه الأنواع الثلاثة ، فان الأكثر أصالة واحتراما هو رواية
الخيال العلمي . التي تعود في أصلها الى تأملات اليوتوبيا ، وتنبؤات
المستقبل والفانتازيا الساخرة مثل رحلات جليفر وكانديد أو أليس في
بلاد العجائب أو أروين ، انه هذا التراث الذي حافظ على الخرافة حية
خلال سيطرة الرواية الواقعية ، واستمر في تقديم الوسيلة الأكثر
وضوحا للروائيين الذين يريدون التجريب بسرديات خيالية . أما الأدب
المكشوف وأدب الرعب ، فلكونهما شكلين أقل قدرا ، فقد ظل الاقتراب
منهما أكثر حذرا وحيطة ، لكن الافتتان الذي يحملانه للمخيلة الأدبية
المعاصرة لا يمكن تجاهله ، كمظاهرة الافتتان بجيمس بوند (من الطبقة
العليا أولا ثم من الجماهير بعد ذلك) . وكنجزلى أميس يبدو هنا مثالا
حيا لذلك ، فانغماسه في ايان فليمنج (انظر ملف جيمس بوند) يشبه
حماسته للخيال العلمي (انظر خرائط الجحيم الجديدة) ، وذلك مما
يصعب التوفيق بينه وبين ما تبناه في الخمسينات سواء كروائي أو كناقد ،
أو كمدافع عن النوع التقليدي من الرواية الواقعية ، ما عدا الشهوة الى
الخرافية ، مقموعة برقيبة الأدبي الخاص ، باحثة عن مخرج لها مسموح
به حيث لا يتوقع أن تكون الغلبة فيه للقيم التقليدية الأدبية . ان نشره
لرواية « الكولونيل سن » تحت اسم مستعار هو روبرت ماركام ، يقوم
ببطولتها جيمس بوند ، هو بالتأكيد حالة روائي واقعي يأخذ اجازة من
الواقعية ، حيث يستمتع بالفاكهة المحرمة للرواية دون الزام نفسه كلية
للمشروع (ليس ضروريا أن نقول ان روايات جيمس بوند هي روايات
فردسية في صلبها وان واقعيتها سطحية . فالوصف الدقيق والتفاخر

بالمعرفة التكنولوجية بأنواعها - لا تحول رواية الفروصية الى رواية واقعية ، ولكن فقط تعطىها رونقا عصريا معقدا ، وتخفف من عدم تصديق القارئ المستريب) .

فى الواقع ، ان رواية « الكولونيل سن » أكثر واقعية من معظم روايات ايان فليمنج (فبوند الذى ابتدعه أميس يعيش بفضل ذكائه وحظه الحسن أكثر من اعتماده على الابتكارات العلمية التى تشبه الأسلحة السحرية فى رواية العصور الوسطى التى تحافظ على حياة بطل فليمنج) وأيضا أكثر مللا .

وهذا لا يدهشنا ، فإذا أخذنا الفكرة على ضوء التقليد الدقيق ، فقد كان على أميس أن يظل واعيا لموهبته الطبيعية فى المحاكاة الساخرة والتخفيف من واقعيتها الساخرة .

أما رواية أنتونى بيرجز « رعشة النية Tremor of intent » فهى رواية مسلية لذوى الثقافة الرفيعة ، جزئيا بسبب محاكاتها الساخرة والمبالغ فيها لأساليب وخطط جيمس بوند ، وهى عمل ذو براعة فائقة غير عادية ، وذلك لتفوق « بيرجز » على كل ما استغله « فليمنج » ونجح فيه : فالجنس هنا أكثر ، والعنف أكثر وحشية ، والبذخ أكبر ، والمكائد وأبطالها فى الحبكة تبعث على دهشة أكثر ، ان تأثيرها العام أكثر حيوية وأثرا ، والرواية عموما تتأرجح بين المحاكاة الساخرة لبوند بالمبالغة المسرقة ، والسعى وراء شيء ما أصيل شعر به المؤلف وأدركه .

ففى موقف ما فى الرواية ، كان على صبرى مبكر النضج أن يقتل رجلا لينقذ البطل ، وسقط بعد ذلك مريضا « اتجه ليقف كولد مشاغب فى ركن الغرفة ، تدلت كتفاه وهو يحاول أن يلقي من فوقهما العالم الحديث » .

هذه الصورة المؤثرة تشير الى مسئولية خطيرة على الرواية أن تتحملها ، وتذكرنا بأن ما يحاول الصبرى أن يلقيه عن كتفيه ليس هو العالم الحديث ولكن صورة شاذة ومشوهة له .

هناك ، فيما اعتقد ، ابهام مشابه للدافع ، وعدم أمان للموقف ، وانطباع بأن الفانتازيا النزقة انغمست تحت مظاهر الادعاء الى صورة ساخرة أو عرض لبراعة الأسلوب فيما يسمى بالمحاكاة الساخرة أو التهكمية للأدب الجنسى المكشوف مثل رواية « كاندى » أو رواية « الموظف الليلي » لشنيك ، أو رواية جورفيدال المسماة « ميرابريكنريدج » ، ومن بين هذه الروايات الثلاث فإن رواية « فيدال » هى الأكثر تحققا وتعقيدا ،

تحاكي بسخرية ، وتعلق بحدة ، وليس فقط على الأدب المكشوف ولكن على الرواية غير الخيالية المتنوعة في الأدب الفرنسي :

« لا شيء يشبه شيئاً آخر ، الأشياء هي نفسها كلية تماماً ولا تحتاج الى تفسير ، بل الى قليل من الاحترام لجمالها الدقيق ، العلامة على الحائط قدمان وبوصتان عرضاً ، وأربعة أقدام وثمانى بوصات وجزء من البوصة ارتفاعاً ، لقد فشلت أن أكون دقيقاً تماماً ، كتبت جزءاً من البوصة لأنى لم أستطع قراءة الأرقام الصغيرة على المسطرة دون نظارتى التى لا ألبسها أبداً » .

أما نوع الحجة التى يقدمها سكولز ليؤكد أن السينما حلت محل إمكانات تقليد الواقع فى الأدب :

« ان تمحيص تايلر Tyler الدقيق لأفلام الأربعينيات يجعل منه مفكر عصرنا الرئيسى ، ولو بسبب أنه فى الفترة من ١٩٣٥ - ١٩٤٥ لم يقدم فيلم غير ملائم فى الولايات المتحدة ، فخلال هذه السنوات فإن كل مجالات الأسطورة الانسانية (الأمريكية) قد وضعت فى الأفلام ، وكل دراسة عن هذه الأعمال غير العادية ترابطت مع الأخرى لتوضح الوضع الانسانى ، ولتأخذ مثلاً عشوائياً : جونى فايسملر فى أفلام طرزان ما زال يقدم الكلمة الأخيرة فى موضوع علاقة الرجل المرنة بالبيئة الصعبة .. فذلك الجسد اللامع الضخم الواقف فى مواجهة صخرة من الحجر الجبرى عند الظهر .. يقول كل شيء .. لقد كتب « أودن » ذات مرة قصيدة كاملة يمدح بها الحجرى الجبرى ، غير واع أن أية لقطة من آلاف اللقطات من « طرزان والأمازون » ليس فقط سبقتة الى ذلك ولكن تجعل من مجهوده كله خارج الصدد » .

رواية « مرا » لفيدال عمل ممتاز ، ولكنه عقيم نوعاً ما وباعث على اليأس ، كما لو أن فيدال يستخف بشدة بالطليعة الأدبية المعاصرة ، والمناخ الثقافى الذى يتبناها ، متخلياً عن الأمل فى المقاومة الايجابية أيضاً ، واضعاً نفسه بسخرية ليجمع تجاوزاتها المتوحشة .

هناك بالفعل أسباب قوية لنتنبأ بشيء أقل من الحماسة ، باختفاء الرواية ، واحلال الرواية الخيالية أو الخرافية محلها ، خاصة للمرأة التى انتعش خياله بالروايات الواقعية القديمة ، ويبدو أن كلا من هذين الطريقتين الجانبين يقود بسهولة الى الصحراء أو المستنقع - ابتذال النفس المنهزمة أو الإفراط فى الانغماس فى الذات ، وكما قلت سابقاً فإن هناك مخبطات جنسية على طريق الاستمرار بأسلوب الواقعية الخيالية .. ولكن زوالها ..

لديه وعي بالذات لابد أن يتردد عند مفترق الطرق ، والحل الذي اختاره الروائيون في حيرتهم هو أن يعبروا عن هذا التردد في رواياتهم . ويجب أن نضيف إلى الرواية الواقعية ، والرواية غير الخيالية ، والرواية الخرافية ، نوعا رابعا وهي الرواية التي تستخدم أكثر من أسلوب واحد دون أن تلزم نفسها كلنا لأحد الأنواع السابقة ، الرواية التي تحكى عن نفسها ، رواية الحيلة ، رواية اللعبة ، رواية اللغز ، الرواية التي تقود القارئ (الذي يرغب بسداجة أن يقرأ ما يعتقد) خلال أرض متعارف عليها من الوهم والخداع ، ومرايا مشوهة وأبواب مفخخة تفتتح فجأة تحت قدميه ، ونركه دون أن توصل إليه رسالة أو معنى ، ولكن بحيرة حول علاقة الفن بالحياة .

هذا النوع من الرواية سأسميه « الرواية الاشكالية » ، وهو يأتلف مع الرواية غير الخيالية والرواية الخرافية . ولكنه يظل متميزا بدقة لأنه يستخدم كل منهما في اللعبة . الروائيون صانعو الخرافة الذين يتحدث عنهم سكولز ، مثلا ، يمارسون الحيل على قرائهم ، يعرضون آلياتهم الخيالية ، متباطئة بتناقضاتها الجمالية ، كي يسقطوا مصطلحات الواقعية المحددة ، ويعطوا أنفسهم الحرية ليلبدعوا ويكتبوا ببراعة . في الروايات التي أفكر بها ، فإن مبدأ الواقعية لا يسمح له أن يبطل كلية ، انه يستلجده به دائما في الرواية غير الخيالية ، لعرض وهم الواقعية ولو بشكل سطحي ، بينما صانع الخرافة روائي غير صبور على الرواية ، يحتفظ بولائه لهما ، ولكنه يفتقد اقتناع الروائي الأصلي في إمكانية التوفيق بينهما .

الأب والأم لهذا النوع من الروايات هو « ترسترام شاندى » ، فنحن لا نتعامل مع ظاهرة جديدة كلياً . ومن المعروف أنه من الصعب أن نفكر في شيء يمكن مقارنته بترسترام شاندى (ما عدا الخرافة) في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر حيث بلغت الرواية الواقعية سن النضج ، ولكن ليس من الصعب أن نفكر في متوازيات لهذا العمل في الأدب الحديث . خذ مثلا قصص عائلة « جلاس » لسالنجر ، حين يضعها المرء بجانب ترسترام شاندى يبدو تشابه المشروع عند الكاتبين مذهلا . التأثير والاحتفالية المحببة للملابسات في عائلة غنية غريبة الأطوار يلاحظها المؤلف في حياتها المنزلية أساسا ، وبانتباه غير عادى لتفاصيل الكلام والتصرفات والاشارات ، يسجلها الراوى الذي هو نفسه عضو في العائلة (مع المداعبة بتشابه معين بين الراوى والمؤلف) معتمدا جزئيا على معلومات أفراد العائلة الآخرين ، مزودا القارئ بفيضات مستطرد خارج الموضوع عن ذكريات معقدة يعيد بنائها ، بشكل ساخر غريب ، وهو يعلق بحرية

على صعوبة المشروع الذى يقوم به ، متعاطفا مع الظروف الخاصة للمؤلف فى وقت التأليف . يبدو لى ان قصص سالنجر استقبلت بنفور متزايد بسبب اعتبار قيمتها الاسمية كآناجيل غير أمينة لدين جديد ، وللاهمال فى تجريبيها الأدبى . وبرغم أن هذا الملمح أقل وضوحا منه فى ترسترام شاندى ، الا أن من يقرأ القصص فى تتابع تأليفها لن يفشل فى ملاحظة ذلك ، كذلك يلاحظ القارئ أن سجل عائلة « جلاس » يتزايد فى تطابقه مع عشوائية وفوضى الواقع كلما أصبحت لهجة الراوى (بادی جلاس) شخصية أكثر وأكثر ، باستخدامه لوازم أسلوبية شاذة غير أدبية ، باختصار حين يبدأ الراوى بالاستجابة لاهتمامات القارئ أكثر ، سرد حكاية عن أناس حقيقيين . وهكذا تنقل الينا معلومات يصعب تصديقها لأمر غير عادية بشكل حاذق ، فنرى فى رواية « ارفعوا السقف عاليا أيها النجارون » « فرانى جلاس » تتذكر أخاها سيمور (المرشد الروحي للعائلة) الذى يقرأ لها حين كان عمرها عشرة شهور ، بينما يكتب « سيمور » فى مذكراته عن التجربة الوصمة التى ارتكبها بلمس أماكن معينة . فى قصة « سيمور - مقدمة » يخبرنا « بادی » كيف خفف ألم « الالتهاب البلورى » بوضع قصيدة رعوية لبليك Blake فى جيب قميصه ، ويدعى أنه منذ طفولته المبكرة وحتى وصل سن الثلاثين ، نادرا ما قرأ أقل من ٢٠٠ ألف كلمة فى اليوم وغالبا أربعمئة ألف كلمة . بكلمات أخرى ، فكلما مالت طريقة الملحمة أكثر وأكثر الى السرد غير الخيالى ، فإن المادة تصبح خيالية أكثر وأكثر . وهناك توتر مشابه بين التصرف الشاذ وغرابة الأطوار فى عائلة شاندى المسجلة بدقة وإخلاص بالعودة الى الواقع ، وفى كلتا الحالتين فإن الاصطلاحات العادية للسرد الخيالى تقوى أو تضعف بالراوى نفسه ، وتبقى حالة القارئ تجاه التجربة دائما مهددة .

إنها قضية تحول احساس الكاتب الخاص (الذى قد يكون مرحا أو قاتلا) للطبيعة الاشكالية لمشروعه - مشركا القارئ فى المشاكل الجمالية والفلسفية التى تقدمها الكتابة الخيالية بتجسيدها مباشرة فى السرد - التى تميز الرواية الاشكالية . أود أن أجعل من هذه قضية مقولة كبيرة كى تشمل أعمالا « كالمزيفون » لاندريه جيد ، و « طائران فى الحياة الاجتماعية » لفلاين أوبراين ، و « نار شاحبة » لنا بوكوف ، و « الغشيان » لسمارتير ، و « حكايات التيه » لبورخس ، و « محنة جلبرت » لوى ، و « أحب هذا المكان » لأميس ، « المعزون » لموريل سبارك ، و « المفكرة النهبية » لدوريس لسنج ، ولا شك أن القارئ يمكنه أن يضيف أمثلة أخرى ، ان لم يكن « روايات أشكالية » كلية ، فعلى الأقل بروايات تشبارك بدرجة ما بتمييزها بوعى الذات ، كما كتبت اليزابيث هاردويك حديثا :

« كثير من الروايات الجيدة تبدى درجة من الذعر حول الشكل . .
أين تبدأ وأين تنتهى ؟ كم يجب أن يصدق منها القارىء ؟ وكم يجب أن
يعتبره نكتة ؟ أو لغزا ؟ كيف تدمج الحدث الاستطراذى بالمتتابع وبالمنظم
بعناية ؟ . . على الكاتب أن يعترف بالمعالجة البارة والتصميم ، ليسخدم
عملية التأليف تماما ، وسط المشهد المتخيل » .

وهذا يصل بى الى الخلاصة التى أريد أن أخرج بها ، وهى التأكيد
المتواضع على الايمان بمستقبل الرواية الواقعية . وهذا الحكم يرجع
جزئيا ، الى تبرير منطقى لتفضيل شخصى ، فأنا أحب الروايات الواقعية
وأميل الى كتابة الرواية الواقعية . المدونة المفصلة للياقة الأدبية التى
تحكم كتابة الرواية الواقعية - تماسكها مع التاريخ ، متانة المواصفات
. . . الخ - التى تبدو للكتاب الذين ناقشناهم غير ضرورية ، أو عوائق
أو أمورا مراوغة ، بالنسبة لى هى نظام ذو قيمة ومصدر قوة للكاتب ،
أو على الأقل يمكن أن تكون كذلك ، مثلها مثل الأوزان الشعرية التى
تمنع الشاعر أن يقول ما يريد قوله بالطريقة الجاهزة التى تخطر على
ذهنه ، وتغمسه فى نضال شاق بالصوت والمعنى ، وإذا كانت مصادره
وثقافته وافرة ، فانها تقدم له نتائج أرقى بكثير من التعبير التلقائى
المباشر . وهكذا فان قواعد الرواية الواقعية تمنع الكاتب من سرد أول
ما يخطر على باله من قصص - التى تكون على الأرجح سيرة ذاتية أو
فانتازيا - وتضطره الى نوع من التركيز فى الامكانات المعطاة التى قد تقوده
الى اكتشافات جديدة لا يتوقعها لما سيرويه ، فى الرواية الواقعية يجب
أن يدقق فى التجربة الشخصية لتحول حتى تكتسب أصالة واقناعا مستقلا
عن أصلها الفعلى ، بينما الخيال الروائى الذى تم خلاله هذا التدقيق
والتحول ، هو نفسه موضوع لاستقراء من الدقة والمنطق . ومشكلة ترابط
هذين الأمرين الحتميين استعارى فى أساسه (عكس ما يقوله سكولز)
ويحتاج الى مصادر لغوية كبيرة ، « ومهارة عالية لتنفيذه بنجاح » .
(لا أنكر بالطبع أن القصص الخرافية والسيرة الذاتية والروايات غير
الخيالية لها قانونها الداخلى وتحدياتها ، ولكنى فقط أحاول أن أحدد تلك
التي تخص الرواية الواقعية .

وإذا احتوت الواقعية على أى مضسمنون ايديولوجى ، فذلك هو
الليبرالية . فجماليات الحل الوسط تسير طبيعيا مع فكرة الحل الوسط ،
وليست مصادقة أن الاثنيتين تقعان تحت ضغط فى الوقت الحاضر ، الرواية
غير الخيالية والرواية الخرافية هما شكلان راديكاليان يأخذان زخمهما من
رد فعل متطرف للعالم الذى نعيش فيه - جيوش الليل وراعى غنم جايلز
هما نتاج للخيال التنبؤى - والفكرة وراء هذه التجارب الروائية ، ان

واقعيّتنا أصبحت غير عادية ، مرعبة وعشية ، بحيث ان أساليب السرد الواقعية لم تعد مناسبة ، ولا فائدة في انتاج رواية جيدة تعطي وهم الحياة حين تكون الحياة نفسها وهما (من الطريف أن هذه الحجة استخدمها الماركيز دي صاد ، وهو يكتب أثناء الثورة الفرنسية ليشرح أو يفسر الرواية القوطية مع تلميح الى مساهماته في الأدب الجنسي المكشوف) . لم يعد الفن يستطيع مناقشة الحياة في مصطلحات متساوية ، مظهرها العالمي في الخاص ، والبديل اما أن نتمسك بالخاص ونرويه كما هو ، أو نتخلى عن التاريخ برمته ، ونؤلف روايات خالصة تعكس بطريقة عاطفية أو استعارية تنافر التجربة المعاصرة .

الجواب الواقعي والليبرالي لهذه الحالة ، ان معظمنا يستمر في العيش معظم حياته بفرض أن الواقع الذي تقلده الواقعية موجود بالفعل ، بينما جوانب كثيرة من تجربتنا المعاصرة تشجع على استجابة تنبؤية متطرفة .

قد يكون التاريخ بمعناه الفلسفي رواية ، لكننا لا نشعر أنه كذلك حين يفوتنا القطار ، أو حين تبدأ الحرب ، نحن نعي أنفسنا بأننا متفردون ، نعيش في التاريخ معا ، في مجتمعات بفضل فرضيات وطرق عامة معينة للتواصل ، ونحن نعي بأن احساسنا بالهوية ، بالسعادة أو التعاسة . تحدده أشياء صغيرة كما تحدده الأشياء الكبيرة أيضا . ونبحث عن التوافق أفرادا وجماعات ، مع نظام من القيم نعرف دوما أنه تحت رحمة المصادفة أو التغير العارض ، انه هذا الاحساس بالواقع الذي تقلده الواقعية . ويبدو على الأرجح ، أن الواقعية ستعيش ما دام الواقع موجودا .

كتب جورج أورويل سنة ١٩٣٩ عند بداية الحرب العالمية الثانية ، معبرا عن شكوكه حول مستقبل الرواية الذي نناقشه في هذا المقال ، قال ان الرواية « داخل جوف الحوت » مربوطة بشكل معقد بالفردية الليبرالية ولا تستطيع البقاء حية في عصر الديكتاتورية الشمولية التي يراها قادمة . وفي تقديمه لرواية هنري ميلر « مدار السرطان » يبدو أنه يوافق على الرواية الاعترافية غير الخيالية كالبديل الوحيد المقبول « ادخل جوف الحوت » . استسلم الى الطريقة التي يسير بها العالم ، توقف عن القتال ضده ، وتوقف عن التظاهر بأنك تسيطر عليه . ببساطة اقبله ، تحمله ، وعبر عنه ، تلك فيما يبدو التركيبة التي يتبناها كل كاتب حساس على الأرجح » .

ومع ذلك لم تكن نبوءة أورويل صحيحة ، فبعد فترة قصيرة من انتهاء الحرب ، انتعشت الرواية الواقعية في إنجلترا ، مستلهمة جزئيا ، روايات أورويل في الثلاثينات ، ومع أن هذه الروايات ليست من الدرجة الأولى إلا أنها ليست سيئة . كثير من الروائيين الأمريكيين الموهوبين بعد الحرب - إندايك - بيلو مالامود ، روث على سبيل المثال - كتبوا معظم أعمالهم من داخل قوانين الرواية الواقعية ، ان مراسيم جنازة الرواية الواقعية سابقة لأوانها كما كانت سنة ١٩٣١ .

بيت الرواية

مقابلات مع سبعة روائيين

فرائك كيرمود

اختصرت هذه الحوارات من أحاديث طويلة ، وجميعها حوارات غير مسبقة الأعداد ، وعند اختصارها استبعدت ما ليس له علاقة بالموضوع الرئيسى الذى اتخذته عنوانا لهذا المقال . وإذا بدا أن هذا الموضوع شبه نظرى أو تجريدى ، إلا أن ذهن المشاركين ظل محصورا فيه بسهولة ، ومن الواضح أنهم جميعا يفكرون فيه بطريقة مجردة ، كى يتناولوه يوميا بمصطلحاتهم الفنية .

عزمت أن أسأل كلا من الروائيين المشاركين عن هذا الموضوع النظرى أولا ، ثم عن رواياتهم ذاتها بعد ذلك ، أحيانا لم تجد هذه الطريقة ، وتداخل السؤالان بنوع من الفائدة على ما أعتقد ، ومع أنه ليست هناك اختلافات شديدة فى رأى ، إلا أن هناك وجهات نظر مهمة من ناحية التأكيد على جانب دون آخر . وإذا كان على أن أقرر فيما يشترك فيه هؤلاء الروائيون الانجليز عموما وبوضوح ، فانه يمكننى القول انهم جميعا يشتركون فى صفة عامة هى التواضع . ليس فقط بأنهم يؤكدون على قصورهم ، ولكنهم سعداء بتجاهل كل الادعاءات الكبيرة التى يمكن أن تقال عن حرفتهم . ومن الواضح أن لا أحد منهم يشترك مع د . هـ . لورنس فى آرائه النبوية « لأنى روائى فأنا أعتبر نفسى أفضل من القديس والعالم والفيلسوف والشاعر ، فالرواية هى الكتاب الوحيد الرائع فى الحياة » . فلا يوجد الآن روائى انجليزى يرغب حتى فى تصديق ذلك ، وبالرغم من أن لا أحد منهم يقبل بالمعيار القديم للطبيعية دون أن يعاد النظر فيه ، إلا أنه لا ينبذه بعجرفة اندريه جيد مثلا « أرجوك أن تفهم أنى أحب أن أضبع كل شىء فى روايتى » ، لا الواقعية القديمة تجدى ولا الشكلانية القديمة ، فلا أحد من هؤلاء الكتاب يرى نفسه صانعا للمعجزات ، ويبدو كل واحد منهم كأنه ينظر من احدى نوافذ بيت هنرى جيمس الروائى ، وكما قال « قد تكون هناك بعض النوافذ الممكنة ولم

بوضع في الحسبان » . ويحس بأن الواقعية ليس فقط لها الشكل المحدود لنافذته ، بل أيضا ان لديه التزاما عميقا بالأشياء كما هي عليه ، أو على الأقل برؤية ليست بعيدة عن ذلك .

ولأن هذا التواضع له جانبه الفلسفي ، فأنت تتوقع أن يساهم هؤلاء الكتاب في تحديد الشخصية القومية بشكل ما لدرجة تجنب النقاش حول ميتافيزيكا الشكل ، لكنهم ، في الواقع ، على استعداد للحديث حول ذلك لكن بطريقة متواضعة ، بالضبط كي ينكروا فكرة أن الرواية صـورة للواقع كله ، كما أنهم لا يعتبرون أن قواهم التخيلية جزء من أو تكملة للواقع . وان اهتمامهم بهذه المشكلة يبدو أخلاقيا أكثر منه معرفيا ، كما نرى في الفرق الذي تضعه موريل سبارك بين « الحقيقة » و « الحقيقة المطلقة » ، بين نوع ما من الكذب ونوع آخر غير ضار تسميه قصة . كما أنه ليس للروائيين الانجليز المعرفة السوفسطائية التي للروائيين الفرنسيين الجسد ، وليس عندهم شعار أو رواية كالرواية الضد الفرنسية (Anti-Novel) .

ان روائييا فرنسا - ميشيل بوتور على سبيل المثال - يقول ان الرواية تنتمي في جوهرها ومادتها الى الواقعية ، وان عمل الكاتب المعاصر يجب أن ينظر اليه كتصويب للنماذج الواقعية القديمة التي كتبها الروائيون السابقون (وبالتالي فان أية رواية جيدة هي رواية ضد) . لكن معظم كتابنا يرون أن المشكلة في العلاقة بين الرواية والواقعية هي طريقة كفاحهم ليكونوا مخلصين لأنفسهم كمدرسين ومشاهدين للواقع ، ومخلصين للحقيقة كما تدركها النظرة السليمة المتعلمة . بعضهم أنجز أعمالا فذة - يخطر على الذهن جراهام جرين خاصة - لكن يجب ملاحظة أن أسماء مثل كونراد وفورد مادوكس فورد لم ترد كثيرا في أحاديثهم .

في مقال لايريس ميردوخ تعبيرا عن معظم ما أريد مناقشته بطريقة واضحة ومفيدة ، ومعظم المشاركين وجد أن المصطلح مقنع ، وهكذا نبدأ بما قالته حوله ، وهو التعارض بين الرواية الشفافة Crystalline والرواية الصحفية Journalist . وسنجد أصداء بالطبع للحبكة والأسطورة ضمن الحديث .

سألت السيدة ميردوخ أن توضح بدرجة أكبر الفرق بين الصيغة الشفافة لرواية بما والصيغة الصحفية ؟ .

— إنه أحد الأقوال الموجزة للتفريق بين نوعين من الروايات ، وهي في حد ذاتها غير دقيقة تماما ، لكن هذا التمييز جاءني من قلقى على

عملي الخاص ، وعمما هو خطأ في هذا العمل • هناك ميل ، في رأيي ، خاصة الآن لكتابة رواية قصيرة محبوكة تماما ، مبنية بعناية ، تولى القصة الأهمية الأكبر وليس الناس ، ويكون لها مغزى ما ، أخلاقي مثلا ، واضح وملائم • وهذه هي الرواية الشفافة في رأيي ، ومن ناحية أخرى ، يوجد ، ودائما كانت توجد الرغبة لوصف العالم المحيط بالشخصية بطريقة مرحة فضفاضة • وهذا ما يميز الرواية الصحفية ، ويبدو لي الآن أن هناك ابتعادا عن هاتين الصيغتين المختلفتين ، والبعض قد يجمع مزايا الطريقتين •

كيرمود : تحدثت عن استعاضة المؤلفين بالشكل وهو أمر مضلل للواقعية هل تتحدثين عن نوع معين من الشكل ؟ انه لا يتطابق مع النوع الذي يربط بين الرواية الشفافة والصحفية ، انه يتطابق مع الرواية الشفافة فقط •

— من العبث القول بأن الشكل في الفن يهدد الرواية بالخطر ، لأن الشكل هو جوهر الفن المطلق • ولكن هناك اتجاه لنزع الشكل أو البنية مما يفكر فيه المرء والتركيز عليها والركون الى ذلك ، ان الاكتفاء بالتركيز على الشكل أو البنية بوقف المرء عن التعمق في المناقضات أو الجوانب المؤلمة للموضوع •

كيرمود : انت لا تستخدمين الأسطورة في أعمالك للدرجة التي تتداخل فيها مع قوة تقديم الشخصية بالمعنى التقليدي ؟

— صحيح • وتلك هي الفكرة الرئيسية للمثال الذي ترجع اليه « في مواجهة الجذب » • وأعتقد أننا نعود لتقديم الشخصية بالشكل التقليدي مما ينقذنا من الحاجة الى المواساة بأشياء أخرى •

كيرمود : قلت أيضا ان الكاتب يكتب ما يستطيعه لا ما يجب عليه أن يكتبه •• هل تحاولين تنفيذ ذلك فيما تكتبين ؟

— أحاول •• لكنني أجد صعوبة في ذلك •

كيرمود : بسبب قوة الأسطورة ؟

— هذا يبدو ادعاء ، كما لو كان المرء يفكر بالعمل بطريقة مهيبة ، لكنني أفترض أن الأمر كذلك ، لكن يمكن قوله بشكل آخر •• لست

ماهرة بدرجة كافية في خلق الشخصيات ، فالمرء يبدأ ، وعلى الأقل ابدأ وكلى أمل ان ذلك سيحدث وأن العديد من الشخصيات ، التي ليست أنا ، ستوجد بطريقة رائعة ، لكن غالبا ما يتحول الأمر ، شيء ما في بناء العمل نفسه ، أسطورة تعمل عملها ، فتسحب هذه الشخصيات الى نوع من « اللولبية » أو الى نوع من الشكل هو في النهاية شكل عقل المرء نفسه .

كيرمود : ويستوعبهم ذلك الأمر ويفقدون الهوية ؟

— أعتقد أن ذلك ما يحدث .

كيرمود : أيمن أن نعتبر الأسطورة في هذه الحالة نوعا من شبكة الأمان تحت الحبل المشدود ؟

— صحيح ، اذا رأيت الأمر كذلك . انها شكل من الأمان . أنا لا أزدريها وأعتقد انها يمكن أن تكون مهمة وجميلة ، لكنى أعتقد أنها تأتي الى الكتاب بسهولة أكثر من الشيء الآخر .

كيرمود : لكن اذا كانت الأسطورة — وهى كما تقولين شيء مهم — تشوه الحقيقة في النهاية ، فهى عدو اذن ، مهما علت ، للرواية التي تكتبونها ؟

— ليست عدوا على وجه الاجمال . . فلا بد أن توجد في الرواية بشكل ما . . لكن على المرء أن يحرص ألا يغرق فيها أو يستسلم لها .

كيرمود : أحد التعريفات ذات المعنى للأسطورة في هذا السياق بأنها الشيء الذي يترك ليعتنى بنفسه في الرواية . . ما رأيك ؟

— صحيح .

كيرمود : لننتقل لمناقشة رواياتك . . هل يمكنك القول بأنه منذ روايتك « تحت الشبكة » . . بأن هناك حركة متصاعدة نحو نوع الرواية التي تطمح الى كتابتها ؟

— من الصعب أن أقول ذلك . . دع جانبا أن رواياتى تسير الى الأسوأ أو الأفضل أو أى شيء — لا أعرف ان كان بإمكانك ترك هذا السؤال

تماما . لكن دعه جانباً الآن . أعتقد أن رواياتى تتذبذب بين محاولات لتصوير وتقديم كثير من الناس وتقديم حبكة وقصة قوية . أعتقد أن رواية « رأس مقطوع Severed Head » انغمست أكثر فى الأسطورة ، وأن فى رواية « الجرس The Bell » أناسا أكثر ، والرواية التى أكتبها الآن فيها أناس كثيرون ، ولكن دائما هناك مشكلة ، بأنى أحقق نوع البنية الروائية التى أرغب فيها من ناحية التركيب اللغوى الذى يجعل مادة الرواية أكثر فائدة ، هناك تذبذب بين تحقيق نوع من الكثافة من خلال قصة قوية والتوضيح بال شخصيات ، أو لا توضح بالشخصيات وتفقد الكثافة .

كيرمود : يبدو أن استخدام الاسطورة بشكلها الخام فى روايتى رأس مقطوع والجرس أكثر منها فى « تحت الشبكة » .

— « تحت الشبكة » لها اسطورتها الخاصة ، وأعتقد أنها لم تظهر بوضوح فى الرواية .

كيرمود : انها رواية فلسفية ..

— بالمعنى البسيط . انها تلعب بفكرة فلسفية . المشكلة التى ذكرت فى العنوان هى مشكلة الى أى حد يبعدك الأمر التنظيرى أو الفكرى الذى هو جوهرى من وجهة نظر معينة — عن الشئ موضوع التنظير .. وبطل الرواية شخصية ميتافيزيقية غير فلسفية ، ويفترض أنه مشلول بشكل ما بهذه المشكلة .

كيرمود : جعلت الرواية تدور فى أماكن توحى بأكبر كم من الواقعية فى لندن وباريس .. ولقد عملت ذلك .

— انه استسلام لنزوات النفس .. وليس له أى معنى خاص .

كيرمود : التقنيات التى نحبها فى رواياتك .. كيفية انقلاب العربية ، أو كيفية اخراج الجرس من البحيرة ، وهكذا .. هل هى اطلاق العنان لنزوات النفس أيضا ؟

— ذلك نوع من الافتتان بآليات شخص هاو ، نظرية تماما .

كيرمود : سيأتى من يدعوها بأنها اسطورية أيضا .

— بالطبع . فالجرس نفسه له معنى واستخدمته الشخصيات بوضوح كرمز .. ولكنى أعتقد أن معظم جولاتى التقنية لعب محض .

ان جراهام جرين يستخدم مصطلح « اسطورة » بمعنى مختلف ، وبالتالي يرى المشكلة فى ضوء آخر ، وهو ، تقريبا ، « يرجع » صدى « تورجنيف » الذى قال : « أفضل أن يكون لدى القليل من الهندسة المعمارية فى روايتى بدل الكثير اذا كان هناك خطر لافسادها مقياسى للحقيقة » .

كيرمود : مستر جرين . . فى أحد كتبك وأنت تتحدث عن روايتك « قضية منتهية » The burnt out case قلت : « هل بدأت أصنع حبكة ؟ وأستسلم للاغراء الكامن داخلى لأحكى قصة ممتعة ؟ » . أرد أن أسألك بأى معنى يكون الاغراء الكامن لحكى قصة ممتعة عدائيا أو مؤذيا - كما هو المفترض أن يكون - فى انتاج رواية جديدة ؟

لست متأكدا أن التعميم صائب ، لكننى أشعر أن ذلك ضار لانتاجى رواية جيدة . رغبتي الخاصة أن أصور شخصية محورية تحمل فكرة ما ببساطة معقولة - شخصية أسطورية اذا أردت ، لكن دائما تتحطم البساطة بصنع الحبكة . أضرب لك مثلا من رواية لا أحبها كثيرا هى « لب المسألة » The Heart of the matter ، أردت فيها أن أرسم شخصية بسيطة لرجل أفسده احساسه بالشفقة ، ولكن أثناء كتابة تلك الرواية ، ربما بسبب الصدا الذى أصاب المرء لتوقفه عن الكتابة أثناء الحرب ، بدأت أحمل الحبكة أكثر مما تحتمل ، وشعرت فى النهاية أن تأثير الشخصية قد زال .

كيرمود : تعليق غريب حول مصطلح الحبكة ، ان ايريس ميردوخ تقول بأن الأسطورة هى الاغراء الأكبر لاطلاق العنان لرغبات ونزوات النفس بينما يكون على الروائى أن يهتم بنسيج الواقع فى روايته . أنت تقول شيئا يقترب من العكس . . أليس كذلك ؟

ب قريبا جدا من العكس . بالفعل .

كيرمود : من الطريف فى هذا الموضوع ان ايريس ميردوخ تقول انها تهبط من وقت لآخر لصنع الأسطورة فى رواياتها . . بينما تختبر نفسك صائعا للحبكة . . أليس كذلك ؟

أنا أود أن أعود الى الأسطورة لكننى أجسد أقدامى غالبا ملتصقة بوحل الحبكة . . وشعورى الخاص أنى كنت أقرب الى ضرب العنصر الاسطورى فى روايتى القوة والمجد The power and Glory ، حيث

شعرت أن الحكمة كانت بسيطة بدرجة كافية للهدف الأساسي لهذه الرواية لكي تظل واضحة .

~~أنا نفسي~~
كيرمود : أذكر رواية لك ، أعجب بها بصفة خاصة ، وأجروا على القول أنها سبب نقدك الخاص لها فقد كانت ذات حكمة ثقيلة بطريقة مختلفة ؟ تلك هي رواية نهاية المسألة The End of the affair . . . بماذا تشعر حيال ذلك ؟

— أحب الكثير مما في تلك الرواية ، لكنني ارتكبت غلطة واضحة ، في الثلث الأخير منها فيما اعتقد وذلك أفسد على متعة إعادة قراءتها برغم أنني لا أقرأ كتبى عادة .

كيرمود : من الطريف أن نعرف ما الغلطة التي ارتكبتها ؟

— هي تقديم شيء ليس له تفسير طبيعى أو منطقى . لقد أطلت في الجزء الأخير من الرواية بعد وفاة المرأة حيث تتابع المصادفات حتى أصبح العاشق مجنوناً من المصادفات التي لا تتوقف ، ووجدت من الصعب أن أنهى الكتاب بفقدان شخصية رئيسية ، فاختصرت بشكل سيئ بتقديم شيء لا يقبل ببساطة بالاصطلاح الطبيعى .

كيرمود : هذا يشجعنى بأنى كنت على حق فى وجهة نظرى للكتاب . . . بأنه كان رواية عن صنع الحكمة . . . وليس فقط روائياً يصنع حكمة . . . أليس كذلك ؟

— هو كذلك .

كيرمود : وبوضعك تلك المصادفات فقد قويت ذلك العنصر ؟

— صحيح .

كيرمود : فى رواية « قضية منتهية » لا تشعر أن للحكمة نوع الوظيفة التي تؤديها صورة مرآة للتدبر والعناية ؟

— لا .

كيرمود : هل ترى أن عنصر الحكمة فيها يميل لأن يكون مدمراً للأسطورة لا مضافاً لها ؟

— نعم ، وبطريقة غريبة انها حبكة أكثر بساطة من حبكة دلب المسألة ،
تفاصيل أقل ، أحداث أقل ، حركة أقل . . ومع ذلك فان الحركة
القليلة بدت أنها تأخذ دورا قويا جدا .

كيرمود : أود أن أسألك اذا كنت تشعر بأن هناك نقطة لا تستطيع بعدها
الاستغناء عن الحبكة . . أعنى أنه توجد نقطة كهذه . . ولكن أين
تقع ؟ يبدو مما قلت أنه كلما قلت الحبكة فى الرواية فمن الأرجح
أن تكون أفضل .

— أوافق بشكل ما . وكان ذلك شعورى ، غالبا ، حين أحاول كتابة
رواية عن صراع العواطف كالميلودراما مثلا ، وأيضا كرد فعل — حين
كنت شابا — لكتابات فرجينيا وولف حيث السرد تابع للحالة
والمزاج . . لكنى ما زلت أحب الحركة فى الرواية .

كيرمود : ولكن بشكل عام أنت تعتقد أن تقديم الواقعية ، الحقيقة الواقعية
للعالم فى رواية ما هو بداية اللعب الذى اتفقنا أن نسميه أسطورة .

— صحيح .

كيرمود : وأن الحبكة فى كليتها هى على نقيض ذلك ، ولا بد من السيطرة
عليها على أية حال ؟ .

— لا بد من السيطرة عليها ، لأنه . . مثلا فى توم جونز هناك كمية
هائلة من الحبكة ولكنها تابعة طوال الوقت الى الشخصية
الرئيسية . . أليس كذلك ؟

كيرمود : من الأفضل اذن للرواية الجيدة أن تكون فيها اسطورة قوية
وشخصيات أخلاقية نوعا ما ، وحبكة معقدة مؤقتة جيدا . . وهكذا
فى الواقع لا يوجد أى جدل حقيقى ضد أن تكون هناك حبكة
معقدة جدا .

— لا . . مادامت لا تدمر المركز الاسطورى فى الرواية .

حين سألت انجوس ويلسون Angus Wilson عن العلاقة بين
الأسطورة والمعنى الذى تقدمه الحياة الحقيقية قال :

— انها مشكلة أساسية بالنسبة لى • يبدو لى أن كل الروائيين الذين أقدرهم قد أسقطوا العالم الحقيقى الذى يستمدون منه رؤيتهم الخاصة ، الى أى مدى يتوافق هذا مع الأسطورة التى قد يكتشفونها فى الحياة ، لست متأكدا تماما • على المرء ألا يكون حريصا جدا على اظهار تلك الأسطورة لأنى أعتقد أنها ستتغلغل فى العمل ما دام المرء مخلصا لرؤيته الخاصة للحياة • • بالطبع عليك أن تقتصر على القليل من حقائق الحياة • ان العنصر الاسطورى ينمو أكثر عندى أثناء الكتابة ، كان قويا جدا فى «هملوك» ولكنى لم أحاول أن أظهره ، مع أن العنوان فعل ذلك فى النهاية • وكذلك كان هناك ذلك العنصر الاسطورى فى رواية «مواقف انجلو سكسونية» ، والآن أحاول بالفعل أن أتعامل مع الاسطورة بطريقة أكثر رمزية فى روايتى الأخيرة •

كيرمود : بغض النظر عن الرواية الأخيرة • • فأنت تقول ان التشويه العمدى للواقع ليس أحد أهدافك ؟

— لا • أنا مهتم بشكل كبير فى التشكيل الكلى للرواية ولكن ليس الى الحد الذى أقصص الحياة فيها الى نوع من النموذج الشكلى • • أعتقد أن ما أردت عمله يختلف تماما ، انه ردود أفعال مختلفة وكبيرة للحياة ، ردود أفعال قوية ، رسوم ساخرة وتشوهات متنوعة ضخمة ، مناظر وصور أقذف بها قرائى آملا أن أكون قد وضعتها بشكل دقيق فى رواية مصممة بشكل جيد قدر الامكان • وذلك هو ما يجعلنى أعتقد بخطأ الذين يسألوننى ما الذى تريد رواياتى أن تقوله لهم • • اننى لا أؤمن بالرواية التعليمية •

كيرمود : شعرت أحيانا ، برغم أنى لا أتمسك بذلك بقوة ، بأن هناك درجة من الواقعية ، من الدقة فى تقديم طبقة معينة من المجتمع ، وأن ذلك يقل كلما تحركنا هبوطا فى السلم الاجتماعى •

— قد يكون ذلك صحيحا • ودفاعى الوحيد أنى أتحرك فى مدى أوسع من الروائيين الذين يكتبون الآن • أريد أن أقول شيئا عن كل المجتمع بطبقاته المختلفة ، لكنى لست متأكدا تماما اذا كانت بيوت الطبقة العاملة يمكنك أن تجد فيها كذا أو كيت ، يمكننى الذهاب والتحقق من ذلك ، لكنها ليست الطريقة التى أسير عليها •

كيرمود : لا أعتقد أن أحدا يهتم ما دام الأشخاص المعنيون لم يفقدوا درجة معينة من الواقع الأخلاقى اذا صبح التعبير • لكن السؤال عن

الشخصيات من « الطبقة الوسطى » العليا في رواياتك .. هناك فكرة عامة بأن كل هذه الشخصيات تنتهى الى شخصيات بذيئة .

— ليس كل الشخصيات ، ولكن عددا كبيرا منها واع بنفسه بدرجة كبيرة ، وأنا من الناس الواعية بنفسها جدا ، انهم يقومون بحكمهم الخاص على أنفسهم ، تقريبا قبل أن أستطيع فعل ذلك ، لكنى أفعل ذلك ببعضهم بالطبع ، مثلا شخصية « ميج اليوت » كانت بالنسبة لى شخصية بطولية ، وهى منزوعة قليلا من شخصيتى أكثر من أية شخصية كتبتها ، وهى شخصية تستطيع مواجهة الانهيار بسهولة ، ولكن من ناحية أخرى ، فإن لديها هذا النوع من القدرة القابلة للإفساد بملاحظة النفس ، اعتبر هذا مرضا لكنه مرض ضرورى للناس المتحضرة ، أوافق على أن شخصياتى قد لا تكون خيرة تماما أو حتى قريبة من ذلك ، لكنها لا تحاول أن تجعل من نفسها آلهة كثيرا ، وحتى اذا فعلت فهى واعية بذلك بدرجة كبيرة .

كيرمود : هذه الطريقة تشبه طريقة جورج اليوت فى الكتابة .. لا أدري اذا كان هذا يقوى الرابطة بينك وبينها .

— لا أدري لماذا لا يحاول المرء مثلا الكتابة كجورج اليوت .

كيرمود : لا خير فى ذلك .. ما عدا أنها حين تريد لشخصياتها أن تكون بذيئة ، حتى لو كان كذلك بطريقة معقدة كشخصية « روزموند » .. فهى تكون بذيئة بطريقة يدركها عدد كبير من الناس

— صحيح .

كيرمود : فكرتك عن الواقعية أكثر حيادية مما كانت عليه فكرة جورج اليوت .

— أعتقد أنى أكثر عاطفية من جورج اليوت ، أعتقد أن شخصياتى البذيئة أنجزت بشكل أفضل ، لكن ربما شخصياتى الطيبة ليست كذلك .

كيرمود : تريد القول ان الفرق هو فى الواقع ، نوع من الاختلاف فى الواقعية أكثر منه اختلافا فى المعالجة ، وبأن لك النوع نفسه من المعالجة الروائية ، لكن ما تتحدث عنه الآن شىء مختلف تماما .

— لا أعرف اذا كان لى الحق فى قول ذلك . هناك الكثير مما تدعوه طريقة معالجة جورج اليوت ، لكن فوق ذلك ومع ذلك ومختلفا بذلك

شيء يشوه الأمر .. نكتل نخم من نوع الديكنزية (نسبة الى ديكنز) وهذا ما يميزني عن كتابة جورج اليوت .. ان لدى هذا الجانب الكبير من .. كيف أقوله ؟ أنا متأكد أن لدى شخصياتى دوافع سادية قوية تظهر فى كتبى ، وحين أراها أحاول خنقها ، لكن ذلك صعب ، لأن عالمنا المعاصر ، عالم ساءت فيه الدوافع السادية بوفرة ، ولذا كيف يمكننى أن أعرف أن هذه الدوافع من عندى أو من العالم الذى نعيش فيه !



نواجه الآن روائية تنتعش أسطورتها فى عزلة سامية عن حقائق الوجود المعاصر ، السيدة كومبتون بيرنيت Compton-Burnett أكثر معاصرينا عقلية استقرائية فى الرواية ، وهى ترى أن الشكل فى الرواية يجب ألا يشوه الواقع .. تقول :

— لابد للرواية من شكل ولا بد أن تطوع نفسها لهذا الشكل .. ولا أظن . أن هناك طريقا آخر .

كيرمود : أفهم اذن أنك تودين القول ان مجرد العمل فى ابتداء حبكة ما يتضمن درجة من تشويه الواقع .. ؟

— ليس تشويها للواقع ولكنى أعتقد انها تصنع اطارا لصب الواقع فيه .. أعتقد أن الواقع والحبكة يجب أن يطوعا بعضهما لبعض .. لا أن يشوه أحدهما الآخر .

كيرمود : هل تناول جانبا آخر من أعمالك ، يخطر على ذهن الناس حين يفكرون بهذه القضية ، وهى طبيعة حوارك واتساق لهجته النسبية وسط أناس من كل الطبقات .. الآباء .. الأطفال .. وهكذا .

— لا يبدو لى أبدا أن الخدم يتحدثون كالأطفال أو أن الخدم والأطفال يتحدثون كالأخرين .. البعض يظن ذلك .. لكنى أعتقد انهم لا يفعلون .

كيرمود : كأحد قراء رواياتك .. أود القول انهم لا يتحدثون بالضبط بشكل مشابه ولكنهم يتحدثون اللغة نفسها .

— كلنا نفعل ذلك .

كيرمود : دعيني أستخدم كلمة لهجة مميزة .. انهم كلهم يتحدثون اللغة نفسها التي تحدث بها الطبقة العليا .

— لا اظن أنهم يفعلون ذلك . ان الخدم صدى للآخرين .. وأعتقد أن لهم نغمة مختلفة ، ولكن اذا لم يلتقطها القارئ فتلك غلطتى ، البعض يلتقطها .

كيرمود : بكلمات أخرى تودين أن توضحي أن هذا التشابه هو مظهر زائف كما يبدو لي وأن ...

— صحيح .. لكنك تقولها بشكل غير لطيف من وجهة نظرك .

كيرمود : لكن التشابه عرض واقعى فى الوضع الاجتماعى .

— أعتقد أنه كذلك .. وأعتقد أن الأطفال يتكلمون بطريقة مختلفة .. لكنهم يتحدثون بالفعل بلغة رسمية اذا أصغيت اليهم .. الأسلوب يأتى بعد ذلك أن ما يلتقطه الناس ...

كيرمود : أيمكن أن أسأل ثانية فى محاولة لانقاذ موقفى ونقيم درجة معينة من الاتفاق حول اللهجة التى تتكلمها شخصياتك .. لاحظت فى عدد كبير من رواياتك الميل الى استخدام ما يسمونه فى المسرحية التجنيبية Aside (قريبة من المفاجأة الفردية) دون ملاحظة ان التقليد الدرامى لا يجعل التجنيبية مسموعة بقوة .. لكنها دائما جهورية فى حواراتك .

— أعتقد أنها كذلك .. وضعتها لكى تسمع بقوة .. لا أرى كيف يمكنك أن تكتب كتابا — فى حالتى — كشيء بين الرواية والمسرحية ؟

كيرمود : فى إحدى رواياتك الحديثة ، إحدى الشخصيات تقول : « لا شيء فيها يمكن نطقه بصوت عال » أتذكرين تلك الملاحظة ؟ أينطبق ذلك على معظم حوارك ؟

— على بعضه فقط .. لكنى أعتقد اذا كنت تكتب حوارا .. فانه يجب أن ينطق بصوت عال .. والا لا يوجد هناك كتاب .

كيرمود : أنت تستخدمين الحوار بدرجة كبيرة فى رواياتك .. كما انك حددت المشهد فى بيت معين وعائلة معينة كما لو أن الأحداث تدور فى زمن مضى عليه ستون عاما مثلا .

— أعتقد حين ينتهى هذا الوقت ستعرف الزمن وتعرف الحياة .. ان كثيرا من تلك الحياة التى أصفها ما زال موجودا ، ربما فى الريف أكثر منه فى المدن .. وأعتقد أن الناس ستعود بالتدريج للحياة بهذا الشكل .. أعتقد أن هناك طموحا لدى أناس كثيرين لينضموا لتلك النوعية من الحياة .. وأعتقد أن العلاقات الانسانية ستكون الشئ نفسه اذا صيرت سواء فى مشاهد ضيقة أو واسعة .

كيرمود : انت تعتبرين أن هذا النوع من تاريخ العائلة .. نموذج أعلى .

— لا أنظر اليه كذلك .. لكنى أعتقد أن التاريخ يعيد نفسه .. وبدأ يعيد نفسه قليلا .. ولم يتوقف عن السير .

كيرمود : انت تتحدثين الآن عن الأوضاع الاجتماعية وأنا أتحدث أكثر عن العلاقة بين الآباء والأبناء .

— أنا أتحدث عن الاثنين .

كيرمود : لكن لو أخذ المرء ذلك النموذج .. فمن الطريف مثلا أن نوع المجتمع الذى تصفينه .. يشابه نوع للحياة العائلية التى أقام عليها فرويد ملاحظاته .

— أعتقد أن الحياة العائلية ستظل دائما تملك جوهرها الخاص كما تعرف .. اذا كان للناس حياة عائلية ، انهم يخبروننى بالطبع ، ولا أعرف اذا كان ذلك حقيقيا .. ان بعض الآباء يتركون أولادهم كلية لترعاهم الدولة وأنه لا يوجد هناك ما يسمى بالحياة العائلية .. لكنى بالطبع لم أقابل هؤلاء الناس .. وأنا أعتقد أن الحياة العائلية موجودة وتستمر فى الوجود .

كيرمود : بعض الأحداث التى وقعت للعائلات فى رواياتك .. ليست من النوع الذى يحدث فى العائلات العادية .

— قد يحدث ذلك . أعتقد بأنها تحدث بأكثر مما يعرف الناس .

كيرمود : أهذا ما تودين قوله ؟ مثلا فى كتاب « التراث وتاريخه » اغراء زوجة الرجل المعجوز لابنه ، والتشويش والافساد الذى حدث فى جيل تال نتيجة لهذه العلاقة .

— أعتقد أنه قد يحدث .

كيرمود : ما نراه فى العائلات هو نوع من التوتر العادى . . فى دولة خالية من الانحلال .

— الحبكة ضرورية . . لأن لابد للكتاب من شكل .

كيرمود : ان التشابه بين الحبكة فى رواياتك . . والحبكة فى روايات تقليدية معينة سببه أن العائلات دائما متشابهة .

— أعتقد ذلك . . ولكن ، فى الحقيقة ، لقد تعلمت تعليما كلاسيكيا . . وربما تأثرت دون أن أدرك ذلك . . دون وعى . . حقيقة لقد قرأت المسرحيات اليونانية وأنا صغيرة .

كيرمود : عموما ، لا تريدون القول ، كما يفعل بعض الروائيين أن هناك عنصرا من البناء الاسطورى فى حبكة .

— لا . . لا أعتقد ذلك .

وجهة نظر أخرى لعلاقة الاسطورة — بالواقع ، يقدمها لنا الروائى س . ب . سنو ، وهو وحده من بين المشاركين الذى يكتب بمعنى ما « الرواية الضد » ، وهو دائما فى رد فعل مع صانعى الاسطورة الشكليين فى العشرينات والثلاثينات ، يبدأ حديثه بتطبيق مقولة رواية شفافة ورواية صحفية على تولستوى فيقول :

— لو طبقنا أحد هذين الوصفين على تولستوى . . فان أعماله ستقع ضمن الرواية الصحفية . . وهذا يجعلنى متشككا فى هذا التقسيم كلية .

كيرمود : ان مردوخ لا تقول ان كل الروايات تقع ضمن هذين التقسيمين . . انها كما فهمت تعارض الرواية الشفافة بالقدر نفسه الذى تعارض به النوع الآخر .

— اذن فان غياب التحديد الشكلى . . يحيرنى نوعا ما . . فنحن لا نستطيع اختراع الغموض كما يبدو لى .

كيرمود : اذا كان هذا التقسيم معقولا . . . افترض اننا نريد أن نضع رواياتك قريبا منه . . . فأنت تنتمي للنوع الصحفي أكثر منه للشفاف هل أنا مصيب في ذلك .

— بالتاكيد .

كيرمود : هل يعنى هذا أن لديك بعض الشك في النماذج الشكلية والاشارات الى الاسطورة وما شابه في الروايات ؟

— على أن أميز بين هذين النوعين ، ليس لدى اعتراض على النماذج الشكلية المختلفة ، وأعتقد أنها قد تعطي قوة كبرى للرواية . . . وروايات كثيرة من التي يمكن ان نطلق عليها صحفية ، لها تخطيط شكلي عميق . . . أما الاسطورة فانا أتشكك فيها أكثر . . . الا اذا جاءت طبيعية تماما ونابعة من العمل نفسه . لا أعتقد أنك تستطيع أن تحمل الاسطورة بأكثر ما يمكنك أن تحمل الرمز .

كيرمود : أنت ترفض عموما القطيعة بين العالم الواقعي — بالمعنى الذي نستخدمه في هذه المناقشة — وواقعية الرواية . . . يجب أن تكون بينهما علاقة مستمرة .

— بالتاكيد .

كيرمود : هل ننتقل الى فكرة الروايات التي نعتبرها نوعا من التاريخ الاجتماعي . . . الروايات التي تتصل بشكل كبير ومستمر بالحقيقة والواقع . . . هل يمكن القول ان رواياتك تنتمي نوعا ما الى هذا النوع من الروايات ؟

— أعتقد ذلك . . . فالشخصيات التي تعيش زمانها ، وتعتبر مشدودة اليه ، اذا حاولت أن تحرر أقدامها من تلك الأرض المعينة فانك تفهمها بشكل خاطيء ، لكن الرواية ليست بالفعل تاريخا اجتماعيا بالمعنى الدقيق ، حتى الروايات التي تبدو وثائقية بشكل عميق مثل أعمال بلزاك أبعد بكثير عن التاريخ الاجتماعي مما يظن البعض ، وأعتقد أن ذلك ينطبق على أعمالى أيضا .

كيرمود : الى أية درجة أثر كونك عالما على وجهة النظر الواقعية التي تقدمها في رواياتك ؟

— قليلا . . من الصعب على أن أقول إلى أية درجة . . أنت أقدر على ذلك . . ولكن بالتأكيد جزءا من تأهيلي يجعلني متشككا في كثير من المقولات التي يفكر فيها كثير من الكتاب . . ويعطيني ، فيما أعتقد ، وجهة نظر أبسط لنوع الحقيقة التي ينبغي أن أتوجه إليها . أعتقد أن هناك أشياء معينة يمكن قولها حول أناس ما في مجتمعهم . . حقيقة موضوعية . . وهي أنهم يشبهون ذلك في تلك الأماكن في ذلك الوقت ، مزاجهم كذا وكذا ، تفاعلهم مع بيئتهم وتفاعل بيئتهم معهم . . يمكن أن تقول تسجيلا لنوع ما من الدقة . والروائي الواقعي عليه أن يفعل ذلك . . وأعتقد أنه يفعل ، ويبدو لي ذلك ليس مغايرا كثيرا للعملية العلمية . . أو على الأقل في الروح .

كيرمود : هل الشروط التي تفرضها على الأنماط الشكلية التي تصب فيها الواقعية حين تكتب رواية من أي نوع ، لا تبدو لك أنها تشوه تلك الواقعية بالقدر الذي يمكن أن تفعله تجربة علمية ؟

— إلى مدى أكثر . . لكن ليس بدرجة كبيرة . . أعني نوع النماذج الشكلية للسرد المهمة جدا في الرواية ، المدى معين بالطبع ، تبدو بشكل أكثر أناقة بدرجة ما من أي شيء تحصل عليه من شريحة وثائقية من الحياة . . لكنني لا أعتقد أنها تؤثر في الشخصيات أو المشاهد المعينة التي هي في الحقيقة الخبز والزبد وقلب الرواية .

كيرمود : إذن لا يمكن القول أن هناك تشابها بين ما تفعله كروائي ودرجة التشويه الذي تصنعه بعض أنواع التجارب العلمية . . أنه نوع مختلف من التغير ذلك الذي يستنتجه العقل من الحقائق . . ؟

— نعم . . لأن درجة التجريد التي يفكر بها المرء في التجربة العلمية . . بعيدة جدا عما تستنتجه عن العالم الآتي من الواقع الذي لا تطبق عليه الشروط نفسها ، لكنني أعتقد أن درجة معينة من الروح ذاتها متوافقة بين الاثنين . أفكر بما كان تولستوى يحاول عمله في « الحرب والسلام » ، وبدرجة أخرى ما حاولت جورج اليوت أن تفعله في « ميدل مارش » ، أنه قريب بروحه من عمليات علمية معينة . فقد حاول تولستوى الأخبار بكثير من الحقائق ، لا شيء منها قد تخيله أو نسجه من الأسطورة أو رسمها نتيجة لتشكيل ما ، من تجربته الداخلية ، أراد أن يقول أن هذا وذاك قد حدث ، وهذا الشخص تصرف بالشكل التالي ، وكان يستولى عليه بشدة

تحريك القوة الغامضة للتاريخ ، لكن كان عليه أن يعبر عن ذلك باستخدام أشخاص معينين في مواقف معينة ، وهذا يبدو لي درجة من الموضوعية لا يمكن أن تصل إليها في العلوم الطبيعية خاصة في العلوم التي تحتاج إلى درجة كبيرة من الملاحظة كالعلوم البيولوجية مثلا .

كيرمود : أستخلص من كلامك ، أنك لا تتفق مع الروائيين الجدد في فرنسا بأن الرواية نفسها قد فرضت علينا شكلا من الواقعية التقليدية ، وأن هذه الواقعية قد أصبحت بالية .. وأن المطلوب الآن طريقة جديدة للنظر من خلالها للأمور ؟

— أنت تعرف كما أعرف ، أن هذا قد قيل من قبل وبقوة بعد سنة ١٩١٧ من أتباع مدرسة « بلومزبرى » ، وهو بالضبط ما طرحته فرجينيا وولف ودوروثي ريتشاردسون ، الذي جعل الرواية بلا معنى لفترة قصيرة جدا .. وبعض زملائي وأنا معهم ، كان علينا أن نضيع وقتا طويلا — غير ضروري — للتخلص من ذلك الارث وإيجاد طريقة مختلفة لتناول الأشياء ، وأرى من الغريب أن يظن الروائيون الفرنسيون أن هذا شيء جديد .



كاتب آخر ، أصغر سنا بكثير من منو ، مهتم جدا بـارنولد بينيت ، هو جون وين John Wain لا يعتقد بأن الأسطورة لها اليد الطولى مع الواقعية ، ويرى أن الواقعية هي شيء تقف أنت خارجه وتختار منه :

— لا أعتقد أن هناك واقعية واحدة ثابتة ، هناك تدفق ضخم من مادة خام ، تجارب من كل نوع ، عملية وعاطفية ، كل متلاطم خام ، وكل ما عليك هو أن تختار القطعة التي تستطيع أن تعالجها في هذا الوقت ، وتبتكر بعض الوسائل لمعالجتها ، وهناك كتاب كثيرون ، وأحيانا كتاب ممتازون ، يكتبون الكتاب نفسه مرة ومرة ، والخطر الأكبر انهم اذا استمروا في ذلك سنة بعد أخرى ، فانهم يبدئون بالسحور أن نوع الواقعية التي يقدمونها شيء ثابت وأصيل ، وأنا لا أعتقد بالفعل أنها ثابتة .

كيرمود : أنت تكتب كتباً أخرى بجانب الروايات ، ولأنك تعتقد أن الرواية

تفرض وجهة نظر ثابتة ، ثابتة داخل حدود واسعة جدا من الواقعية ، فان ذلك لا يسعدك دائما .. وتسعى لعمل أشياء أخرى ؟

— هناك أنواع معينة من التجربة ، وأنواع معينة من الإدراك ، مناسبة تماما لمعالجتها بأنواع معينة من الشكل ، مثلا في نقد فرجينيا وولف لأرنولد بينيت وجدت أن الرواية الواقعية لا تستطيع أن تعالج سوى أنواع معينة من التجارب ، وأن الأنواع الأخرى لا يمكن معالجتها بالرواية الواقعية ، وأرادت أن تعرض نوعا آخر من المجالات لهذه التجارب ، وأنا لا أعتقد أن ذلك مشروع أو سليم على الإطلاق ، الشيء الوحيد هو الحرية الكاملة للموقف ، ما دمت جاهزا لالتقاط أى شيء . وتحملت مشقة تدريب نفسك على صبه بأى شكل ، سواء أكان الرواية الواقعية أم الرومانسية أم السريالية أم المسرحية أم البالية أم السيرك . لا أهتم بما يكون .. ما دمت مستعدا لالتقاط الشكل الذى سيحتوى قطعة الواقعية التى فى ذهنك .

كيرمود : هل نتحدث قليلا عن رواياتك ؟ كثير من الناس يشيرون الى الاسطورة ، وهى نوع من نموذج تفرضه عقولهم وهو يموه الحقيقة كما يرون . هل تشعر أنك فى رواياتك قد انغمست فى الاسطورة بهذه الطريقة ؟ وهل وجدت فى ذلك مشكلة ؟

— ليست كل رواياتى على درجة واحدة من النجاح أو القابلية للقراءة . وفى حالة معينة ، فى أحد كتبي وهو كتاب سييء ، فرضت تفسيرا معيناً على الأحداث التى سأكتبها قبل أن أكتب عنها ، وتصورى للطريقة التى تتصرف فيها الشخصيات وتتواجد ، والطريقة التى تسير بها الأمور كانت خاضعة منذ البداية لتصور ثقافى معين .. والنتيجة كتاب سييء .

كيرمود : ماذا عن الاستثناء الغريب ، أو الاستثناء الواضح ، مثلا عند وليم جولدنج ، حيث تشير سلسلة من الأحداث الى الاسطورة ، وحيث الاسطورة تشير الى سلسلة من الأحداث التى لا تذهب فى مداها بعيدا جدا عن تلك الاسطورة .. على الأقل تلك فيما يبدو الى الطريقة التى يعمل بها ؟

— وليم جولدنج كاتب أعجب به بدرجة كبيرة ، وهو ليس روائيا بقدر ما أرى .. انه كاتب رمزى . ان له تصورا معيناً حول الوضع الانسانى ، وهو فيما أظن ، يكتب ويبدع رمزا ليقدمه به .

كيرمود : ولكنك تقول ان الرواية شيء فضفاض وغير محدد .. ألا يوجد في هذا ما يدعو أن تضع هذا النوع من الكتب ضمنها ؟

— تحتاج أن تسير مسافة طويلة قبل أن تصل الحدود في الرواية ، ولكنك تصل أحد الحدود في النهاية ، وجولدنغ يعمل فيما وراء هذه الحدود .

كيرمود : وماذا عن الحدود في الجانب الآخر .. الحدود حيث ارتولد بينيت في الجانب الروائي منها .. ماذا يمكنك أن تضع في الجانب البعيد منها ؟

— الصحيفة .

كيرمود : لكن ذلك شيء ما قريب من الرواية .. مثل كتب وليم جولدنغ ؟

— لا .. لأن الرواية الواقعية كما يفهمها الكتاب الفرنسيون الذين اخترعوها ، وكتاب مثل بينيت الذين اقتبسوها .. تقع في الواقع على حافة التقرير الصحفي .. ان التقرير الصحفي هو بالفعل الذي لا يأخذ مكانته وهو يكتب بطول هائل وتفاصيل كاملة .

كيرمود : كما فهمت من كلامك .. فانها ليست احدي مشاكلك .. القلق حول تشويه الواقع بفرض شكل معين على الرواية تصبه فيه ؟

— تشويهها .. لا .. لكن وضعها باطار وشكل معين .. فذلك صحيح . أشعر مثل الفار الذي يأكل في قطعة جبن ضخمة .. هناك أميال وأميال من الجبنة ، على الأقل كبيرة بالنسبة لي كقمة افرست ، وأعتبر نفسي ، أنجزت أنجازا جيدا لو استطعت أخذ قطعة صغيرة من هذا الجبن وشكلتها بأي شكل . فعمل الكتابة كله هو قول الحقيقة ، واذا استطعت الاخبار بأي جزء من الحقيقة ، وواصلت لتجعله حقيقيا برغم أنك تضعه في شكل أدبي ، اذن فليرحمني الله .. ذلك يكفي .

المشارك الأخير الذي قلب كل هذه المقولات ، يقول بعقلانية ان الاسطورة هي الحكمة ، الاسطورة هو ما تصنعه أنت بالحقيقة ، وهو على ما يبدو أكثر ما يشد اهتمام موريل سبارك Muriel spark

التباين الواقعي هو الأكثر نقاء وأكثر القضايا قدما ، وهو ما يقع وراء كل هذه الأحاديث .. هل الروائيون كاذبون ؟ وإذا لم يكونوا كذلك ، فما هو نوع الحقيقة التي يحكونها ؟

— بالنسبة لي الحكبة هي الاسطورة الأساسية ، لا أعرف الكثير عن الأساطير ، اذا فكرت في الحكبة أخذتها كقضية مسلمة بأنها الاسطورة ، ولا أهتم بالأساطير التي هي ليست كذلك .. فالحكمة فيها شيء عالمي .

كيرمود : سنتناول هنا كتابا لك هو « المعزون The Comforters » لأنه يشتمل على الكثير مما قاله الآخرون ، في هذا الكتاب وضعت اسطورتك .. لكنك جعلت منه عمدا لعبة حول الروايات ، اليس كذلك ؟ هنا اختلطت الروائية في النص ، وتظل تتدخل ، هل هذا بسبب اهتمامك بالشكل الروائي الذي يرى فيه الناس أنه يطرد الحقيقة من العمل . لقد أصبح العمل لعبة بدل أن يكون نصا .

— لا اعتقد أن الأمر كذلك . هذه الرواية هي أولى رواياتي ، لقد طلب مني أن أكتب رواية ، وأنا لم أفكر كثيرا في الروايات ، اعتقدت أنها طريقة عاجزة للكتابة ، وهكذا كتبت رواية لأحقق التكنيك أولا ، لأنسجم مع نفسي في عملية كتابة رواية ، رواية عن كتابة رواية .. والأصل في كتابتي هو تبرير للوقت الذي ضيعته .. انها محاولة لاسترجع الزمن .. أتدرك ذلك ؟

كيرمود : تستخدمين كلمة تضييع الوقت كأنها نصيحة .

— لو سرت بنجاح لما كان هناك تضييع للوقت .

كيرمود : الروايات التي كتبتها منذ « المعزون » لم يكن فيها هذا التهور حول الشكل كما أسميه .. مع أن فيها شكلا ما .

— صحيح .. لأنني لاحظت نوعا من التهور كما تسميه .. فقررت أن أفضل ما أفعله أن ألزم بالحكمة وبالشكل وأقول ما أود قوله ضمن تلك الحدود . وقررت أيضا أن أكتب روايات قصيرة عن عمد ، وكثيرون يطلبون مني كتابة روايات طويلة — لأصبح السيدة تولستوي .. أنت تعرف .. لكني رأيت أنه ليس من الصواب ملء كأس صغيرة بمكيال من البيرة .

كيرمود : تميلين لاختيار مجتمع محدود وليس مجتمعا تولستويا ، لأناس عجائز جدا مثلا . . هل هذا بسبب أن المجتمع الكبير يعتبر مجالا كبيرا جدا لما تريدین قوله ؟

— جزئيا بسبب مزاجي الخاص والدستور الذي وضعته لكتاباتي ، حين أصبح مهتمة بموضوع ما ، ولنقل انه العمر المتقدم ، يبدو لي أن العالم مملوء بهم ، وعالم ضيق ضئيل مملوء بالعواجيز ، مملوء بما أدرسه ، يصبحون مركز العالم وكل ما عداهم حشوا ؛ كألما أصابني مس حتى أنتهى من الكتابة عنهم . بذلك الشكل أرى الأشياء . كتبت رواية عن العزاب غير المتزوجين وبدأ لي أن كل من أقابله كان عزبا ، حقيقة غريبة ، فهؤلاء الناس يصادفوننى كثيرا أثناء الكتابة ، ولا آخذ وقتا طويلا لانتهى . . لذلك فالأمر ليس صعبا .

كيرمود : ولا تشعرين بضرورة توضيح الفرق بين هذا العالم الذى تخلفينه والعالم الدائم الواقعى . . بما انك كاتبة خيالية . . فقد تصنعين عالما مليئا بالحشرات مثلا أو برجال كبار الحجم أو صغار الحجم . . ؟

— لم أزمع أن رواياتى حقيقية . قلت انها خيال ينبثق منه نوع من الحقيقة ، وآخذ فى اعتبارى نوعيا أن ما أكتبه هو خيال ، لأننى مهتمة بالحقيقة ، الحقيقة المطلقة ، ولا أظهار بأن ما أكتبه أكثر من امتداد خيالى للحقيقة — شئ ما مخترع . لا أقول ان ذلك الشخص عاش وان ذلك الشخص قد قطع الطريق . . لأننى ببساطة أكتبه ، فى محكمة القانون فان ذلك لا وزن له وليس حقيقيا ، ما أكتبه ليس حقيقيا ، انه حقيبة أكاذيب ، هناك حقيقة استعارية وحقيقة أخلاقية وما يسمونه تأويلا ، أنت تعرف الأنواع المختلفة من الحقائق ، وهناك الحقيقة المطلقة ، التى أعتقد أنها تحتوى على أشياء يصعب تصديقها ، لكنى أصدقها لأنها مطلقة . وهذا جانب واحد من الحقيقة ، ولكن اذا أردنا أن نعيش فى العالم كمخلوقات معقولة فلا بد أن نسميها أكاذيب . ولكن لأن المرء يضع ذلك فى عمل خيالى . فالمرء اذن ليس بكاذب ، وأعتقد أن هذا ما يدركه الناس ، لكن الناس تنزعج بالفعل لو قلت لهم : ان « جولد والذئاب الثلاثة » حقيبة أكاذيب .

كيرمود : أحد المعانى التى استخدمت فيها كلمة اسطورة فى هذه المناقشات هو لتغطية هذا العنصر اللاواعى فى أية قصة أو حبكة . . وكثير من الناس يظنون انك كلما أسرعت فى الوصول لهذا المستوى كان

الكتاب أفضل ، وآخرون مثل ايريس ميردوخ التي تعتقد أنه في الدقيقة التي تنحرفين اليها للكتابة بتلك الطريقة ، فانك تبدئين الكتابة بشكل سيئ وتستسلمين لنزوات ورغبات الذات ،

— قد تكون على حق ، فأفضل شيء أن تكون واعيا بكل ما تكتبه ، ثم دع اللاوعي يعتنى بنفسه اذا وجد ، فنحن لا ندرك ذلك ، فلن عرفناه لما كان لا وعيا ، لابد أن تكون واعيا قدر ما يمكنك بما تفعله ولا تستسلم للاغراء — وهو ما يحدث لمعظم الكتاب — حين يقولون لقد أنجزت ذلك بروعة والآن سأفعل ذلك بلا وعي . انه خطأ فادح . . فاللاوعي لامحدود تماما . . أفضل شيء هو أن تعرف ما تفعله فيما اعتقد .

كيرمود : انها تهمة قديمة القول بأن الشعراء كاذبون ، ونحن نضع الروائيين اليوم ضمن الشعراء ، والدفاع القديم هو أن الذي لا يثبت شيئا فهو لا يكذب ، أهذا ما تودين قوله في النهاية ؟

— أعتقد ذلك ، على الروائي أن يقول ما حدث ، أعبر عنه بالماضي البسيط مع أنه يحدث بالفعل في المضارع ، الأشياء تحدث والمرء يسجل ما حدث بعد ثوان من حدوثه ، لا أعني بالطبع أن المرء آلة تسجيل كما ظن « بليك » بنفسه ، بأنه نوع من الوسيط بين الملائكة والمخلوقات ، ان ما أعرفه أن الأحداث تحدث في ذهني وأسجلها ، سواء اتفقت مع هذه النظرية أو تلك . . مع هذه الاسطورة أو تلك . . فذلك شيء لا علاقة لي به .

ملاحظات حول رواية لم تنته بعد

جون فولز

الرواية التي أكتبها الآن (عشيقه الضابط الفرنسي The French Lieutenant's Woman) تقع أحداثها منذ مئة سنة ، ومع ذلك فانا لا اعتبرها رواية تاريخية ، وهو نوع من الروايات اهتمامى به قليل جدا ، بدأت حكاية هذه الرواية منذ عدة شهور كصورة بصرية . امرأة تقف على حافة رصيف مهجور تنظر الى البحر ، ذلك كل شيء . وذات صباح انبثقت صورة هذه المرأة فى ذهني وأنا مازلت فى السرير نصف نائم ، وهى صورة لا تتواصل مع أية حادثة فعلية فى حياتي (أو فى الفن) يمكن أن أذكرها ، مع أنى لسنوات عديدة اعتدت أن أجمع كتباً غامضة ومطبوعات منسية ، كل أنواع الكتابات المهملة فى القرنين أو ثلاثة القرون الماضية ، وفات حيوات سابقة ، وافترضت ان هذا يجعلنى دائماً فى نوع من الاحتشاد الكثيف ، يمكن من خلاله أن تنفذ صورة كهذه الى شاطئ الوعي .

- وبرغم تجاهلى لهذه الصورة ، لكنها تكررت . ثم بدون سبب مفهوم توقفت ، فبدأت استعيدها عن عمد ، وأحاول أن أخلل لماذا تحمل هذه الصورة بعض القوة لشيء وشيك الوقوع ، كان الأمر كاللغز ، رومانسياً غامضاً . وبدأ أيضاً ، ربما بسبب رومانسيتها ، لا ينتمى الى العصر الحاضر ، ورفضت المرأة - فى ذهني - أن تنظر من نافذة فى استراحة مطار ، لابد من هذا الرصيف القديم - حيث تصادف أنى أعيش قرب واحد منها ، قريب جداً لدرجة أنى أستطيع رؤيته من أكثر الأماكن انخفاضاً فى حديقتي ، وأصبح هذا الرصيف القديم ذا معنى خاص . لم أر وجه المرأة ، ولم يكن لها أية جاذبية جنسية ، لكنها كانت من العصر الفيكتوري ، وحيث انى أراها فى ذهني دائماً باللحظة نفسها ، مديرة ظهرها ، فانها أوحى لى بفضيحة فى العصر الفيكتوري ، بأنها منبوذة ، لا أعرف جريمتها لكنى رغبت أن أحميها ، وقعت فى حبها أو فى حالتها ، لا أعرف فى أى منهما . تسلطت على صورة هذه المرأة الحامل

وأنا فى منتصف رواية أكتبها ، ولدى فكرة لثلاث أو أربع روايات أخطط لكتابتها ، كانت صورة تتداخل وسط عملى ، لكن بدرجة جعلت من العمل الذى أقوم به هو العنصر المتطفل فى حياتى . هذا الوحى العارض من المسموح له أن يظهر أثناء كتابة عمل آخر - تطورا غير مخطط لشخصية ، أحداثا غير متعمدة وهكذا - ويتتبع المرء الحادثة ، ويخاف على العمل المخطط - لكن تلك هى القاعدة .

ان العيب الرئيسى الذى يملكه الكاتب هو النرجسية أو البيجمالوتية . فالشخصيات (وحتى المواقع) مثلها مثل الأطفال أو العشاق ، تحتاج لرعاية واهتمام واصغاء ومراقبة واعجاب دائم ، وكل هذا يصبح متعبا للكاتب النشط ، ولا يمكن أن يزوده بالطاقة إلا شئ مماثل يحبه المرء . سمعت البعض يقول « أريد أن أكتب كتابا » . ولكن الرغبة فى كتابة كتاب ، مهما كانت متقدمة ، فانها ليست كافية ، وحتى لو قلت « أريد أن تتلبسنى مخلوقاتى الخاصة » فذلك ليس كافيا ، فكل الكتاب الموهوبين ممسوسون ، بالمعنى السحرى القديم ، بخيالهم الخاص ، حتى قبل أن يفكروا فى الكتابة بوقت طويل .

هذا التكوين المتشبه بالمرء بلا موعد ، لابد أن يكسر كل قواعد الكتابة الابداعية ، يبدو فى أحسن حالاته كالطفل ، وفى أسوأها طفوليا . أفترض ان الطريقة التقليدية فى الكتابة أن يكتب المرء ما يريد قوله ، ثم يكتب ما خبره وجربه ، ثم يخرج الاثنين أو يربط بينهما ، وجربت تلك الطريقة ، بدأت بمخطط تحليلى وبمجموعة من الشخصيات مرتبة ومنظمة ومستعدة لشئ ما ، ولكن المسودة كانت بائسة . رواية الساحر (وقد كتبتها قبل جامع الفراشات وكان أصلها صورة أيضا) قفزت الى ذهنى من زيارة عادية جدا الى فيلا فى جزيرة يونانية ، لم يحدث شئ غير عادى ، ولكن ظللت أتردد على الفيلا - فى اللاوعى - مرة ومرة ، شئ ما يريد أن يحدث هناك ، شئ لم يحدث لى فى وقت الزيارة ، لماذا لابد أن يكون فى تلك الفيلا ، وتلك الزيارة الوحيدة من بين آلاف الأماكن الأخرى التى زرتها . لا أعرف . منذ شهر أرانى شخص ما بعض صور للفيلا ، التى كانت آنذاك مهجورة ، ولم تكن سوى فيلا مهجورة ، ان معنى لغزها منذ خمسة عشر عاما ظل لغزا .

ما أن نبتت البذرة ، فان على العقل والمعرفة والثقافة ان تبدأ فى رعايتها لتنمو ، فأنت لا تستطيع أن تخلق عالما بالفطرة الحامية ولكن بالتجربة الباردة ، وقد يفسر هذا لماذا لا ينتج الروائيون عملا ذا قيمة قبل سن الأربعين ، أو أنهم انتجوا أفضل أعمالهم بعد تلك السن .

أجد من الصعب جدا أن أكتب ، إذا لم أعرف أنه لن يكون لدى مشاغل ما لأيام عديدة قادمة ، فجميع الزيارات والواجبات اليومية والمقاطعة والتطفل تصبح مزعجة ، يحدث هذا خلال كتابتي للمسودة الأولى ، كتبت المسودة الأولى لرواية « جامع الفراشات » في حوالى شهر ، بمعدل عشرة آلاف كلمة يوميا ، بالطبع كثير من أجزاء هذه المسودة كانت مكتوبة بشكل ركيك ، وكانت تحتاج لإعادة كتابة وتعديلات ومراجعات عديدة . وكانت المسودة الثانية مختلفة عن الأولى بحيث يصعب القول ان الأولى هي أصل الثانية . فانا لا أقوم بأى تدقيق حتى أنتهى من المسودة الأولى ، فكل ما يهمنى فى البداية أن أكتب هذا التدفق فى القصة والسرد ، حالة البحث والتدقيق فيما كتبت ، تأتى بعد ذلك ، وهى تشبه السباحة وأنت ترتدى قميص المجانين .

خلال فترة المراجعة ، أحاول أن أحافظ على نوع من النظام . أجبر نفسى على المراجعة سواء أحببت ذلك أو لا ، وبشكل ما كلما كان المرء عازفا عن المراجعة ويشعر بعسر هضم نحوها كان ذلك أفضل . فآنذاك يكون المرء أكثر قسوة مع نفسه ، فأفضل ما يحذفه المرء من العمل حين يكون عازفا عن الكتابة .

ولقد وجدت أن كل نصائح الكتاب الممتازين ، بأن تحدد نظاما معيناً لكتابتك دائما ، وإن تكتب ألف كلمة يوميا مثلا مهما كانت حالتك ، وجدتها غير عملية ومثالية تماما ، فالكتابة تشبه تناول الطعام أو ممارسة الجنس ، عملية طبيعية وليست اصطناعية ، اكتب إذا أردت لأنك تحب أن تكتب وليس لأنه يجب عليك أن تكتب .

اعتدت أن أكتب مذكرات خاصة عن الكتاب الذى أعمل به ، وعن هذه الرواية - عشيق الضابط الفرنسى - كتبت :

« أنت لا تحاول كتابة شيء نسى الكتاب الفيكتوريون ان يكتبوه ، ولكن شيئا ما فشل أحدهم فى أن يكتبه . تذكر علم اشتقاق الكلمات . الرواية شيء جديد ويجب أن تكون وثيقة الصلة بالكاتب الآن . فلا تتظاهر أنك تعيش فى القرن الماضى سنة ١٨٦٧ ، بل اجعل القارئ يشعر بأنك تتظاهر بذلك » .

طبعا هناك مشاكل الملابس والعلاقات الاجتماعية والخلفية التاريخية وسائر مثل هذه الأشياء ، فإن الكتابة عن ١٨٦٧ هى مسألة بحث وتدقيق ، لكنى وقعت فى مشكلة عاجلة تتعلق بالحوار ، لأن الحوار

الأصلى الذى كان يدور ١٨٦٧ كما عرفت من كتب تلك الفترة كان بعيدا جدا على أن يكون مقنعا ، يبدو عتيقا ، فهو يفشل غالبا فى التوافق مع الصورة السيكولوجية التى نحملها عن العصر الفيكتورى - ليس جافا بما فيه الكفاية وليس رقيقا بما فيه الكفاية - وهكذا ، وهنا بدأت الخداع ، والتقطت أكثر الصيغ الرسمية والجافة - فى ذلك العصر - للكلام المنطوق ، انه ذلك الخداع ، الجوهرى للرواية ، الذى يستغرق وقتا .

حتى فى الحوار فى الروايات الحديثة ، فان أكثره واقعية ليس هو المتوافق بالفعل مع لغة الحديث الجارية . وعلى المرء أن يقرأ حوارا مسجلا للحديث العادى ليدرك ذلك . فهو يبدو فى السياق الأدبى غير واقعى . فحوار الرواية هو نوع من الاختزال ، انطباع عما يقوله الناس مثلا ، بالإضافة الى ذلك فان على الحوار أن يؤدي دورا أيضا ، أن يجعل السرد متحركا ، وأن يكشف عن جوانب الشخصية ، وهو ما تخفيه عادة الأحاديث الواقعية فى الحياة . . .

هذه هى المشكلة التقنية التى واجهتها ، انها صعبة مع الشخصيات المعاصرة ، فما بالك بالشخصيات التاريخية !

من مذكراتى حول الرواية « اذا أردت أن تكون واقعيًا مع الحياة ، ابدأ فى الكذب على واقعيتها ، والمرء لا يستطيع وصف الواقع ، ولكن فقط يعطى تشبيها يشير اليه ، كل أنواع الوصف الانسانى من التصوير الى الرياضيات الى الأدب أيضا كلها استعارية ، وحتى الوصف العلمى الدقيق لشيء ما أو لحركة ما هو نسيج استعارى » .

ان دراسة آلان روب جرييه الجدلية « نحو رواية جديدة » دراسة أساسية للكاتب الروائى حتى لو لم تثر فيه سوى المعارضة التامة .

ان سؤاله الرئيسى فى دراسته : لماذا تجهد نفسك بالكتابة فى شكل لا يمكن أن تتفوق فيه على العمالقة الكبار ؟ وهذه مغالطة . فذلك يفرض علينا ان نكتشف شكلا جديدا نكتب به اذا أردنا أن نحيا الرواية وتعيش ! أهذا هو هدف الكتابة الآن ؟ ان للكتابة أهدافا أخرى مهمة : أن تمتع ، أن تنقد ، أن تصور حساسيات جديدة ، أن تسجل وتعبّر عن حياة جديدة ، أن تحسن الحياة . . . وهكذا . . . وهى أهداف مهمة وتحمل مقومات الحياة والاستمرار للرواية . ولكن سعيه المسوس لايجاد شكلا جديدا يضع نوعا من الضغط على كل فقرة يكتبها المرء اليوم ، فهو يتساءل

دوما الى اى مدى اكون جباناً لو كتبت وفق التقاليد القديمة ؟ والى اى مدى اكون مذعوراً من الطليعية ؟ والكتابة عن سنة ١٨٦٧ لا تخفف الضغط أو التوتر ، بل تزيد ، حيث ان الكثير لابد أن يكون بسبب طبيعته التاريخية تقليدياً . هناك توازيات واضحة فى فنون أخرى ؛ معالجات سترافينسكى لموضوعات من القرن الثامن عشر ، أو استخدامات بيكاسو لموضوعات قديمة ، لكن فى هذا السياق فان الكلمات ليست سلسلة مثل الملاحظات الموسيقية أو ضربات الفرشاة ، فالمرء قد يتمكن تقليد زخرفة موسيقية روكوكية بتهكم ، أو تقليد وجه باروكى .

حاولت فى فترة سابقة ، وفى فصل تجريبي أن أضع حواراً معاصراً على لسان شخصيات فيكتورية ، لكن التأثير كان عبثياً ، حيث تشوهت الطبيعة التاريخية الواقعية للشخصيات ، الذين ينجحون فى ذلك هم الممثلون الكوميديون . والمرء يقاد حتماً ، اذا اتبع هذا التكنيك ، الى كتابة رواية هزلية .

الروايتان اللتان كتبتهما قبل ذلك ، كانتا مبنيتين على فرضيتين وجوديتين موهنتين ، ولا أريد لهذه الرواية أن تكون استثناءً ، ولذا فأنا أحاول أن أضع فيها وعياً وجودياً قبل أن يكتمل بناؤها المنطقى . بالطبع كان كيركجورد مجهولاً تماماً للفيلسوفين الانجليز والأمريكيين ، ولكن بدا لي أن العصر الفيكتوري ، خاصة منذ سنة ١٨٥٠ فصاعداً كان وجودياً بدرجة عالية فى كثير من مشاكله الشخصية ، ويمكن للمرء أن يعكس الواقع ويقول بالتقريب ان سارتر وكامو كانا يحاولان قيادتنا ، بطريقتيهما ، الى جدية الاهداف الفيكتورية وحساسيتهم الأخلاقية ، وليس هذا هو التشابه الوحيد الممكن بين ستينات القرن الحالى وستينات القرن الماضى ، فالكابوس الكبير الذى أقض مضاجع العصر الفيكتوري المحترم كان الحقيقة الواقعية جداً التى اكتشفها الجيولوجى لييل Lyell والبيولوجى دارون Darwin ، فحتى ذلك الحين كان الانسان يعيش كطفل فى غرفة صغيرة ، فأعطياه - هدية غير مرغوب فيها - كونا لا محدوداً فى مكانه وزمانه ، وتفسيرا آلياً للواقع الانسانى ، بالضبط كما نعيش نحن مع رعب القنبلة الذرية ، عاش الفيكتوريون مع نظرية التطور ، لقد ألقى بهم بشدة فى الفضاء ، وشعروا بأنفسهم معزولين بلا حدود ، وبحلول ١٨٦٠ فان البنى الحديدية الصلبة لفلاسفتهم وعلماء الدين والاجتماع بدأت تتآكل مع القراءة الواعية .

بالضبط مجرد رجل ، وجودى قبل عصره ، يسير على الرصيف ، ويرى ظهر هذه المرأة الغامضة ، انوثة صامته ووجودية أيضاً ، تتطلع الى الأفق .

وبرغم عظمة الروائيين الفيكتوريين ، فكلهم تقريبا (عدا هاردى)
فشلوا بشكل بائس فى ناحية واحدة . فلا تجد فى الأدب الفيكتورى
المحترم (ومعظم أدبهم المكشوف يدور فى بيوت الدعارة أو بطريقة القرن
الثامن عشر) رجلا وامرأة فى سرير ، لا نعرف كيف كانا يمارسان الحب .
وماذا كان يقول كل منهما للآخر فى أكثر اللحظات حميمية ، وكيف كانا
يشعران آنذاك .

وأنا أكتب اليوم - عن اثنين من الفيكتوريين يمارسان الحب - دون
دليل سوى خيالى واستنتاج غامض من روح العصر ، وهكذا فإن ما أكتبه
هو فى الواقع خيال علمى ، فالرحلة هى الرحلة ، الى الخلف أو الى
الأمام .

أصعب عمل للكاتب ، أن يضع لمادته صوتهما الصحيح ، وأعنى
بالصوت الانطباع العام الذى يتركه المبدع على مادته ، ولقد أحببت دائما
الصوت الساخر ، ذلك الخط الذى استخدمه روائيون عظام فى القرن
التاسع عشر من جين أوستن حتى جوزيف كونراد ، وبشكل طبيعى .
ونحن اليوم نميل الى تذكر ردائل تلك النغمة أو الخط أكثر من فضائله ،
السخرية القاتلة عند ديكنز ، الهزل عند ثاكري ، السخرية المرهقة عند
مارك توين ، الازدراء عند جورج اليوت . والسبب واضح جدا ، فالسخرية
تفترض التفوق فى الساخر ، وهذا شيء مرفوض بالنسبة لقرن ديمقراطى
يدعو الى المساواة بين البشر مثل قرننا ، نحن نشك فى الذين يتظاهرون
أنهم واسعو المعرفة ، وهذا هو السبب فى أن كثيرا من روائىي القرن
العشرين يشعرون بأنهم مساقون للكتابة بضمير المتكلم .

يزعم بعض الكتاب ان تكنيك ضمير المتكلم هو المعقل الأخير للرواية
فى مواجهة السينما ، فهو شكل لا يمكن للكاميرا أن تقدمه مهما توحدت
مع احدى الشخصيات ، ولكن مسألة استخدام ضمير الغائب أو ضمير
المتكلم عند الروائى المعاصر هى مسألة خارج الصدد الآن ، فالغالبية
العظمى من روايات ضمير الغائب المعاصرة هى روايات بضمير المتكلم
مموهة بشكل رقيق .

ان « الأنا » الحقيقية للروائى الفيكتورى - الكاتب نفسه - مطبوعة
هناك بدقة كما هى - بعيدا عن الخوف بأنه يتظاهر - لأسباب نحوية
ودلالية ، ولكنى فى هذه الرواية الجديدة ، سأحاول أن أبعث من الموت
هذا التكنيك ، ويبدو على أية حال أن من الطبيعى أن نلقى نظرة على
انجلترا منذ سنة بعين ساخرة نوعا ما ، ولكن هناك خطر السخرية من

حماقات وبؤس عصر مضى ، ولقد كتبت فى مذكراتى عن الرواية « أنت
لن تكون المتكلم الذى يقتحم الوهم ، بل المتكلم الذى سيكون جزءاً
منه » .

بكلمات أخرى ان المتكلم الذى سيعلق على الأحداث هنا وهناك فى
روايتى الذى سيدخل أخيراً هذا العالم ، لن يكون شخصيتى الحقيقية
سنة ١٩٦٧ . ولكن شبيه لشخصية أخرى فى الرواية ، شخصية تختلف
عن الشخصيات الخيالية الصرفة .

ولأوضح ذلك ، أقدم هنا مطلع قصة كتبت سنة ١٨٦١ بقلم ثاكرى
بعنوان « لوفيل الأرملة » :

« من سيكون بطل هذه القصة ؟ ليس أنا الذى أكتبها ، أنا فقط
كالكورس فى المسرحية ، أقوم بإعطاء الملاحظات على أداء الشخصيات .
وأسرد قصتهم البسيطة » .

حين نقرأ ذلك اليوم نفترض (دون أن نعرف من هو الكاتب) أن
المتكلم هنا هو شخصية الكاتب ، ونظّل نصديق ذلك لثلاث أو أربع
صفحات ، حتى نفاجأ بـثاكرى يقدم لنا بطله : صديق لوفيل ، ونجد
أنفسنا أننا قد ضللنا ، « فأنا » ، ببساطة ، هى شخصية أخرى فى
القصة ، وبعد صفحات قليلة تبدأ « الأنا » فى وصف شخصية أخرى :

« لم تستطع الكلام أبداً . صوتها أجش كصوت امرأة سليطة
اللسان . أيمكن لقاطعة تذاكر فى مسرح ، تلك العنيدة البدينة العجوز
أن تصبح هى اللامعة اميلى مونتافيل ؟ قالوا لى انه لا توجد قاطعة تذاكر
فى المسارح الانجليزية ، وهذا دليل على عنايتى التامة وحيلتى فى أن
أنقذ شخصياتى من حب الاستطلاع الشبق ، قد يكون لمونتافيل اسم آخر
وعمل آخر ، مالكة لـدكان صغير مثلاً ، ولكن هذا السر لن يفلح حتى
التعذيب كى أفشيئه ، مونتافيل سبرى فى طريقك وها هو شسلن لك
(أشكرك يا سيدى) أبعدى مسند قديمك المخزى ولا تدعينا نراك
ثانية » .

مازال بإمكاننا أن نفترض أن « الأنا » هنا شخصية أخرى ، ولكن
الشك الأقوى أنها ثاكرى ، هناك خداع الشخصية للقارىء ، استخدام
الفعل المضارع والسخرية بالنفس « ولن يفلح التعذيب كى أفشى السر »
من الواضح هو لا يعنى أن نتأكد ، انه ليس ثاكرى كله .

ان هذا تمرين تقنى بارع باستخدام الصوت ، ولا أصدق انه
تكنيك قديم ، ولا شئ يستطيع أن يبعدنا عن تهمة ادعاء سعة المعرفة -
وبالتأكيد لبس نظرية الرواية الجديدة أيضا ، وحتى أكثر المظاهر
العملية اللامعة لتلك النظرية - فلنقل رواية الغيرة لآلان روب جرييه -
تفشل في الاجابة عن الاتهام . قد يكون آلان روب جرييه قد أزاح الكاتب
جرييه عن النص ، لكنه لا يستطيع أن ينكر أنه كتبه . واذا كان الكاتب
يعتقد حقيقة في مقولة (أنا لا أعرف شيئا عن شخصياتي الا ما سجل
على شريط أو صور ثم خلط ووزع) فالخطوة المنطقية أن نأخذ الشريط
المسجل والصورة الفوتوغرافية - وليس الكتابة ، واذا كان مازال يكتب ،
جييدا ، كما يفعل جرييه ، اذن فهو يخون نفسه ، وهو أكثر انغماسا
بالجرم مما يعترف به .

سبتمبر ٦٧ : قطعت ثلثي الطريق حتى الآن . وهي مرحلة سيئة
دائما ، حيث يبدأ المرء بالشك بالأشياء الكبرى ، مثل الدوافع الأساسية ،
البناء الدرامي ، المشروع كله ، في البداية تميل الصفحات لزغلة عيني
المرء ، للخصوبة التي يعمل بها ، ثم تبدأ في الظهور الأخطاء الملازمة
للحبكة والشخصية ، ويبدأ المرء يشك في حكمة الطريقة التي تسير بها
الأمور على مسرح الأحداث في قضية ما ، ويبدأ المرء بحمد الله أن الزواج
لم يرفع رأسه القبيح بعد ، ولكن هناك حكما بالزواج . فلدى امرأة
على الرصيف (اسمها سارة) . هل يكون ذلك للأسوأ أو الأحسن .
وكله يبدو للأسوأ .

كان على أن أتوقف عن الكتابة لمدة أسبوعين ، للذهاب الى ماجوركا
حيث بصورون فيلم الساحر عن روايتي بالاسم نفسه . لقد كتبت
السيناريو ولكن مثل معظم الكتابات السينمائية فذلك عمل فريق ،
المنتجان لهما رأى ، وللمخرج رأى ، ولعدد من العوامل غير الانسانية
رأى ، مثل الميزانية وطبيعة أماكن التصوير ، وممثلى الأدوار الرئيسية ،
شعرت معظم الوقت أنى كهيكل عظمى فى وليمة ، ليس هذا ما تخيلته
سواء فى الكتاب أو فى السيناريو . ومع ذلك فمن الممتع أن يراقب
المرء ، فى انتاج ضخم كم يدعم مسئول مسئول آخر ، كيف يلتفت أحدهما
للآخر قائلا « هل سيمشى ذلك ؟ » ، أقارن هذا بالعزلة الطويلة لكاتب
الروايات . ورجعت أشعر بالراحة ، وإعادة تثبيت لثقتى فى الرواية ،
فهى بكل أخطائها ، حالة شخص واحد . فى رواياتى ، أنا المنتج والمخرج
وكل الممثلين والمصور أيضا ، قد يبدو هذا جنونا بجانب الحالات المحتفى
بها فى هوليوود ، هناك غرور حول الرواية ، رغبة فى لعب الرجل الاله .
ان الرواية شكل حر وهى فى ذلك لا تشبه المسرحية أو سيناريو الفيلم ،

وليس لها حدود الا تلك التى للغة ، انها تشبه القصيدة ، يمكنها أن تكون ما نريد ، وذلك ممكن سقوطها وممكن عظمها ، وذلك يوضح لماذا استخدم الشكلان - الرواية والقصيدة - لتأسيس الحرية الاجتماعية والسياسية فى ميادين أخرى .

التهمة التى يجب أن يرد عليها كل من يبيع حقوق انتاج روايته الى السينما ، هل كتبنا كتبنا وهذه النهاية تلوح لنا . ما يجب أن نحدده هنا شرعية أو عدم شرعية نفوذ السينما على الرواية . لقد شاهدت أول فيلم فى حياتى وأنا فى السادسة من عمري ، وأفترض انى رأيت ، فى المتوسط ، فى الأسبوع - لا تحسب الأفلام التى رأيتها فى التليفزيون - فلنقل انى شاهدت ألفين وخمسمئة فيلم حتى الآن ، فكيف يمكن تجاهل تجربة متكررة بهذا القدر لا يمكن محو تأثيرها على الخيال ؟ ذات مرة حللت أحلامى بالتفصيل ، فرأيت أنها تستدعى تأثيرات سينمائية خالصة ، كل أنواع اللقطات ، باختصار هذا النوع من التخيل عميق فى نفسى لا أستطيع محوه ، ليس عندي فقط ، ولكن عند جيلى كله .

لا يعنى ذلك اننا استسلمنا للسينما ، فانا لا أتفق مع التشاؤم العام السائد بأن الرواية قد سقطت وأن من يعجب بها الآن هم أقلية صغيرة . فدائما كانت الاقلية هى التى تقرأ الروايات ، عدا فترة قصيرة فى القرن التاسع عشر حين كانت الأغلبية متعلمة وهناك نقص فى وسائل الترفيه .

على المرء أن يقوم بكتابة سيناريو فيلم ليدرك كم مازال للرواية من سيطرة مؤثرة غير محايدة ، وكم هى الأشكال التى لا تعد من التجربة الانسانية التى لا يمكن وصفها الا من خلالها فقط . كما أن هناك اختلافاً أساسياً فى نوع الصورة التى يثيرها كل من الجانبين ، فالصورة السينمائية المرئية هى واحدة لكل من يراها ، انها تلغى المخيلة الشخصية، والاستجابة تكون من ذاكرة الفرد المرئية فقط ، بينما الجملة والفقرة فى رواية ما تثير صورة مختلفة فى كل قارئ ، هذا التعاون الضرورى بين الكاتب والقارئ ، الأول يثير والآخر يثبت ، هى ميزة الشكل اللغوى ولا يمكن للسينما أن تغتصب هذا العرش .

استيقظت فى ساعات ما قبل الفجر والرواية تعذبني ، كل نواقصها تنهض فى الظلام . رأيت الرواية التى توقفت عن كتابتها أفضل بكثير ، هذه الرواية ليست هى النوع الذى يناسبني ، انها انحراف عن اتجاهي ، حماقة ووهم .

وظفت على ذهني جمل من المراجعات اللاذعة التي قد نكتب عنها :
« محاكاة خرقاء لتوماس هاردى » ، « تقليد مدع لنوع أدبي فريد »
« تفسير بلا هدف لعصر سبق تفسيره بكثرة » . وهكذا وهكذا طلع
النهار الآن ، وأعود إليها ثانية ، وتنكر كل ما شعرت به في الليل ، لكن
يظل الرعب بأن شخصا ما ، قارئاً ما ، مراجعاً ما سيدرك هذا الذي
شعرت به ، كابوس الكاتب أن تصبح أسوأ مخاوفه الخاصة ونقده لذاته
عامة لجمهور .

لا يمكنني تجنب ظل توماس هاردى ، وقلب ريفه الذي أستطيع أن
أراه من على بعد ، من نافذة الغرفة التي أعمل بها ، وحيث انه وبيكوك
Peacock هما أفضل كاتبين لدى من كتاب القرن التاسع عشر ، فلم
أهتم بالظل ، ويبدو من الأفضل أن استخدمه ، وبمصادفة عجيبة ،
لا أعرف متى أدركت أن قصتي تدور أحداثها سنة ١٨٦٧ وهي السنة
الخرجة في حياة هاردى الشخصية الغامضة ، ان هذا يشجعني بشكل ما ،
فبينما شخصياتي الخيالية تنسج قصتها الخاصة سنة ١٨٦٧ على بعد
ثلاثين ميلا فقط من سنة ١٨٦٧ الحقيقية حيث كان المهندس المعماري
الشاب يدخل مأساة حياته المميتة .

تميل شخصياتي النسائية الى السيطرة على الذكر ، أرى الرجل
كنوع من التظاهر والمرأة كنوع من الواقع ، فكرة باردة وحقيقة دافئة ،
ديدالوس يواجه فينوس ، ويجب على فينوس أن تنتصر ، لو لم تكن
المشاكل التقنية كبيرة لجعلت من شخصية كونش في رواية الساحر
امراة ، شخصية مسز سباتاس في نهاية الكتاب كانت ببساطة جزءاً من
شخصيته كما كانت ليلي ، والآن سارة تمارس هذه القوة ، هي لا تدري
كيف ولا أنا . لبثت طوال هذا الصباح في محاولة لايجاد اجابة جيدة
من سارة في ذروة أحد المشاهد . ترفض الشخصيات أحيانا كل الامكانيات
التي يقدمها المرء ، تقول في تأثر « لن أقول أو أفعل شيئاً كهذا » ،
ولكنها لا تقول ما تود قوله ، وعلى المرء أن يتقدم في العمل بسلبية ،
بنوع من الملاطفة المضجرة للتجربة والخطأ . بعد ساعة مع هذه الجملة
البائسة ، أدركت أنها في الواقع تخبرني ماذا تود أن تفعل فالصمت من
جانبها أفضل من أية جملة يمكن أن تقولها .

في الوقت الذي تركت فيه الجامعة ، وجدت نفسي في الأدب
الفرنسي أكثر منها في الأدب الانجليزي . ويبدو لي أن هناك فرقاً حيوياً
بين الثقافتين الفرنسية والانجلو سكسونية في هذا المجال .

فمنذ منتصف القرن السابع عشر والكتاب الفرنسيون يزعمون أن لهم جمهورا عالميا ، والانجلو ساكسون جمهورا قوميا . هذا اتجاه عام ، فأداب الثقافتين تقدم ماث الاستثناءات ، ومع ذلك فقد وجدت دائما أن هذه الفرضية الفرنسية - الجمهور اللامحدود للكتاب - أكثر جاذبية من وجهة النظر الأخرى التى مازالت سائدة على نطاق واسع فى انجلترا وأمريكا وهى أن العمل الصحيح للكاتب أن يكتب عن بلده ولاهل بلده .

أنا واع بذلك وأنا أكتب ، خاصة حين أراجع ما كتبت ، فالذى لا يعنى شيئا للقارئ الأجنبى أحذفه عادة أو أتجنبه منذ البداية ، فى الكتاب الحالى لدى عمومية الوجود فى الغرب كله لروح الشعب الفيكتورى، وذلك ساعدنى كثيرا .

أشياء كثيرة جعلتنى أشعر بأنى منفى فى انجلترا ، منذ عدة سنوات مرت بى جملة فى رواية فرنسية غامضة « الأفكار هى الأوطان الوحيدة » واحتفظت بها منذ ذلك الحين كأعظم اختصار قرأته لما أعتقد . ربما فعل « اعتقد » ، استخدام خاطئ هنا .

إذا لم تكن تحمل مشاعر قومية ، وإذا وجدت أن كثيرا من مواطنيك ومعتقداتهم ومعاهدتهم سخيفة وتقليدية وبالية فمن الصعب أن « تعتقد » بشيء ، ولكن تقبل بالوحدة والوحشة التى تنتج عن ذلك .

وهكذا عشت بعيدا تماما عن الكتاب الانجليز الآخرين وعن الحياة الأدبية فى لندن ، وما كنت أفكر فيه « كشخصيتى العامة » قد ابتلعت أو رفضت (غالبا رفضت) فى عالم الأدب القومى سواء أردت أم لم أرد . ان الشخصية العامة تبدو لى بعيدة جدا ، ومحايطة غالبا بشكل غير لائق ، وغير شرعية ، وانى أشعر بنفسى الحقيقية فى منفى عن كل ذلك .

نفسى الحقيقية ، هنا الآن تكتب ، حين أفكر فى تلك التجربة (الكتابة وليس المكتوب) ، استكشف صورا أكونها ، رحلات أقوم بها بمفردى ، يقفز ، بلا رغبة ، الى ذهنى جبل وحيد أصعبه دائما ، كل ذلك له وقع رومانسى ، لكنه لا يعنى ذلك ، يعنى الوحدة الملعونة ، والخوف (ولا أعنى بذلك المراجعات السبئية) ، رتابة الشكل الروائى ، الشعور الباعث على الغثيان الذى يكون المرء ضحيته غالبا فى شكل مس غير صحى .

حين أخرج وأقابل الناس الآخرين ، أندمج بحيواناتهم وعاداتهم الاجتماعية ، فان عزلتى الخاصة وعدم روتينيتى ، والتحرر من المشاكل

الاقتصادية (الحرية سجن خبيث) غالبا ما يشعرني ذلك بأنني أشبه زائرا من الفضاء . أحب أهل الأرض ولكنى لست متأكدا الام يسعون ، أعنى أننا ننظم الأمور أفضل فى البيت . لكنى قد ثبت هنا ولا عودة الى الخلف .

شئ كهذا يكمن وراء كل ما أكتب .

هذا الاختلاف الكلى بين المكتوب وعالم الكتابة الذى لا يعرفه عنا أبدا أولئك الذين لا يكتبون ، يروننا حيث نحن ، نعيش بما نحن عليه ، انها ليست الموضوعات التى تهتم الكتاب ولكن تجربة معالجتها فى هذه المصطلحات الروائية ، نغم ومقامه صعب ، عاصفة تدور ، قمر لم يدسه أحد تحت أقدامه ، هذه المسرات ليست مقدسة ، والعالم فى عمومه على حق أن ينظر إلينا بالشك وسوء النية .

أكره اليوم الذى أرسل فيه المخطوطة الى الناشر ، لأن الناس الذين أحبهم قد ماتوا فى ذلك اليوم . أصبحوا ما هم عليه ، متحجرين ، حفريات لأجسام على الآخرين دراستها ، ويسألوننى ماذا أعنى بهذا أو ذاك ؟ ولكن ما كتبتة هو ما عنيتة ، وإذا لم يكن واضحا فى الكتاب فلن يتضح بعد ذلك .

وجدت الأمريكين ، خاصة الذين يكتبون ويسألون ولهم وجهة نظر نفعية غريبة لما تكون عليه الكتب ، ربما بسبب البدعة السيئة التى استنوها بأن الكتابة الابداعية يمكن تعلمها (الابداعية هنا تلطيف للتقليد) ، وجدتهم يعتقدون أن الكاتب دائما يعرف بالضبط ما يفعله . الكتب الغامضة بالنسبة لهم هى نوع من الغاز الكلمات المتقاطعة ، انهم يشعرون ان الاجابة على كل الألغاز موجودة فى أوراق مفقودة فى مكان ما ، وان الكتاب كآلة اذا امتلكت البراعة فيمكنك أن تفككها الى أجزائها الصغيرة .

من الصعب أن نلوم القراء العاديين على تفكير كهذا ، فالنقاد الاكاديميون والمراجعون الاسبوعيون فى السنين الأربعة الأخيرة ، أصبحوا علميين أو شبه علميين فى اتجاههم العام ، التحليل والتصنيف أدوات علمية لا بد منها فى حقل العلوم ، لكن الرواية كالفصيدة ، وهى ميدان علمى جزئى .

هل أنا طرف مهتم بالموضوع ؟ أعترف بذلك ، فمنذ بدأت أكتب « عشيقه الضابط الفرنسى » وأنا أقرأ نعى الرواية ، ونعيا تشاؤميا خاصا

جاء من « جور فيدال » Gore Vidal في عدد ديسمبر سنة ٦٧ من مجلة انكاونتر ، وكنت أراقب حركة مراجعة الروايات في انجلترا وقد أصبحت في هذه السنة الأخيرة تنفر القراء من الرواية ومتعجلة ، وتوقعت في أية لحظة أن تقرر صحفنا التقليدية إلغاء عمود مراجعة الروايات الجديدة من صفحاتها وتغطي هذا المكان الى التليفزيون أو الموسيقا الشعبية . بالطبع أنا مهتم ، ولكن مثل السيد جور فيدال من الصعب أن أكون غاضبا بصفة شخصية . اذا ماتت الرواية فان البذرة ماتزال خصبة بشكل غريب ، يقولون لم يعد أحد يقرأ الروايات ، وهكذا فان مؤلف جوليان (جور فيدال) وجامع الفراشات (فاولز) لابد أنهما ممتنان جدا الى مليوني شبح أو أكثر اشتروا نسخا من كتابيهما الموقرين . . لكنني لا أريد أن أكون ساخرا . .

هناك خياران . . اما أن الرواية مع كل الثقافة المطبوعة تحتضر وأما أن هناك ضحالة وعمى في عصرنا وهو شيء يبحث على الأسى . أعرف الرأي الذي أحمله ، والذين يدهسونني هم المتأكدون أن الرأي الأول هو الصواب .

اذا أردت سعة المعرفة ، فهي هناك ويجب أن تزعجك أيها القارئ الذي لست كاتبها ولا ناقلها ، ان ادعاء سعة العلم هذه التي تحتقر المطبوعة موجودة بشكل واسع بين أناس تعيش على تحليل وتشريح ونقد الأدب . ان ما نحتاجه هي الجراحة وليس التحليل والشرح .

أنهيت المسودة الأولى التي بدأتها في ١٥ يناير في ٢٧ أكتوبر ، انها في حوالي ١٤٠ ألف كلمة ، بالضبط كما تخيلتها ، تامة ، غير مسهبة رواية جميلة ، لكن ذلك للأسف ما أتخيله فيها ، حين أعدت قراءة المسودة وجدت أن هناك ١٤٠ ألف شيء يجب تغييره وقد تصبح مع ذلك أقل كمالا ، ولكن ليست لدى الطاقة ، ولا القدرة على البحث ، ولا انتقاء الجمل اللامتناهية ، وأريد أن أبدأ كتابا آخر . . فقد رأيت صورة غريبة الليلة الماضية .

ألمست صغيراً على كتابة مذكراتك - مقدمة

پ . اس . جونسون

أن يفتتح جيمس جويس أول دار للسينما في دبلن سنة ١٩٠٩ ، فهذه حقيقة ذات معنى حاسم في تاريخ الرواية في هذا القرن ، لقد أدرك جويس مبكراً جداً أن الفيلم لابد أن يغتصب بعضاً من الامتيازات التي كانت حتى ذلك الوقت حكراً على الروائي ، فالفيلم يمكنه أن يحكي القصة بشكل أكثر مباشرة ، وفي وقت أقل وبتفصيل أكثر دقة من الرواية ، كما أن الفيلم يمكنه تقديم جوانب معينة من الشخصية بسهولة أكثر وتظل دائمة أمام الجمهور - خاصة الصفات المميزة للشخصية كالعرج ، أو أثر جرح ، أو قبح أو جمال معين - ولا يمكن أن يقارن وصف روائي لمعركة بحرية أثناء عاصفة بلقطة جيدة من فيلم عن هذه المعركة ، ثم لماذا على المرء الذي يريد أن يقرأ قصة ، أن يمضي كل وقت فراغه لأسبوع أو أسبوعين ليقرأ كتاباً ، بينما يمكنه أن يعرف القصة بشكل أرقى في سينما الحي وفي أمسية واحدة ؟

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي تنتقل فيها حكاية قص القصص من وسط لآخر ، في الأصل كانت تلك مهمة الشعر الرئيسية ، وكانت انقصائد السردية الطويلة من أفضل وأكثر المبيعات حتى عصر والتر سكوت وبايرون ، والآخر اكتسح الأول في أغلبية جمهوره ، فتحول والتر سكوت ببراعة من القصائد السردية الى الروايات ، واستمرت أعماله كأفضل المبيعات . طبعاً توافقني أنه ليس من الملائم أن نكتب قصائد سردية اليوم ؟ مازال البعض يفعل بالطبع ، لكن هذه الأعمال نادراً ما تطبع ، فإذا ما طبعت فإن كاتبها يعتبر « سكة » ، لكن الشعر لم يمت أثناء تطور القصة وتقدمها ، فالمقطوعات القصيرة المختصرة ، والحالات العاطفية المكثفة ، بالعمق وليس بالطول ، واستغلال الايقاع في قصائد تعطي تأثيرها مادامت قصيرة ، ولو طالت لأكثر من عدة صفحات تصبح مملة وغير مقروءة . بالطريقة نفسها ستعيش الرواية وتتطور الى انجازات أعظم ، بتركيزها على تلك العناصر التي يمكن أن تتفوق فيها : الاستخدام

المقتصد للغة ، استغلال امكانيات الكتاب التكنولوجية ، توضيح الفكر ،
فالفيلم وسيط ممتاز لعرض الأشياء ، لكنه فقير تماما في أخذ المتفرج داخل
نقل الشخصية ، وإخباره فيما يفكر الناس ، مرة ثانية أقولها لقد أدرك
جويس ذلك على الفور ، وطور تكتيك المونولوج الداخلي خلال بضعة أعوام
من ظهور السينما . إن تاريخ الرواية في القرن العشرين قد شهد ،
بشكل ما ، مساحات واسعة من أرض الروائي القديمة ، تستولي عليها
وسائط أخرى عاما بعد عام ، حتى أصبح الشيء الوحيد الذي يمكن
للروائي أن يقول أنه مازال يملكه هو ما يوجد داخل جمجمته ، وذلك
ما عليه أن يكتشفه ، أفضل من خوضه معركة سيفقدها حتما .

جويس هو أينشتاين الرواية ، موضوعه في « عوليس Ulysses »
كان متاحا لأي شخص ، أحداث يوم واحد في مكان واحد ، ولكن بواسطة
الشكل والأسلوب والتكتيك في اللغة فقد صنع منه شيئا أكثر من ذلك .
رواية وليست حدوده عن أي شيء ، ما يحدث فيها ليس في أهمية كيفية
كتابتها ، من حيث الوسط اللغوي والشكل الذي صيغت فيه ، بالنسبة
للأسلوب فأننا يمكن أن نعتبر عوليس ثورة . إنها عدة أساليب ، فقد
رأى جويس أن مادة بهذه الفخامة لا يمكن أن تنقل عبر أسلوب واحد ،
وبهذا التجديد وحده (فهناك عدة تجديدات أخرى) وقع تقسيم كبير
وخرية كبيرة قدمها للأجيال التالية من الكتاب .

ولكن كم واحدا من الكتاب رأى هذا التقدم واتبعه ؟ قليل جدا .
إنها ليست قضية تآثر بطريقة جويس في الكتابة ، إنها قضية إدراك أن
الرواية ذات شكل متطور وليس شكلا ثابتا ، ولأسباب عملية نقول إنه
حيث توقف جويس يجب أن تكون هناك نقطة بدايتنا ، وكما قال ستيرن
منذ زمن طويل « سنظل نضع كتبنا جديدة على طريقة الصيدلي الذي يركب
الأدوية بأن يصب مادة من وعاء إلى آخر أهل سنظل إلى الأبد نلوى ونلوى
الحبل نفسه ، إلى الأبد نسير على المجرى نفسه ، على الخطوات
نفسها ؟ » .

وشهدت الثلاثون سنة الأخيرة وظيفة قصص الحكايات تنتقل إلى
وسيط ثالث ، وأي فرد يريد أن يرى أو يسمع قصة فإن التليفزيون
يلبي حاجته ، فكل ما تفعله مسلسلات التليفزيون هو إجابة السؤال
« ماذا يحدث بعد ؟ » ، فإذا كان اهتمام الكاتب الأساسي أن يحكي
القصص (الأكاذيب كما سأوضح بعد قليل) ، فإن أفضل مكان يفعل
به ذلك هو التليفزيون ، تجهيزات أفضل وجمهور أوسع . لقد أدرك

صناع الأفلام الواعون ذلك ، فلم يعد المخرجون الجيدون يركزون على القصة فقط ، بل على تلك الأشياء التي يستطيع الفيلم أن يقدمها وحده وبأفضل ما يمكن .

لقد استهلكت الأشكال الأدبية وانحط قدرها . انظر ماذا حدث مسرحيات الخمسة فصول الشعرية في بداية القرن التاسع عشر ، فلقد كتب كيتس وشيللي ووردزورث وتينيسون الشعر الحر ، ومسرحيات شبيهة اليزابيثية ، وجميعهم ، بلا استثناء ، اعتبروا فاشلين ، لا لأنهم شعراء تنقصهم الموهبة ، ولكن لأن الشكل كان قد انتهى وتهلل واستهلك ، وكل ما يمكن عمله بهذا الشكل قد تم عمله بالفعل مرات كثيرة .

وهذا ما يبدو أنه حدث لنموذج رواية القرن التاسع عشر بوقوع الحرب العالمية الأولى ، فلا يهم مدى جودة الكتاب الذين يحاولون كتابتها ، فلا يمكن أن تصلح لعصرنا فهي لا تتوافق مع العصر ، خارجة عن الصدد ، وغير صالحة . فالحياة لا تحكي قصصا ، الحياة فوضوية ومتدفقة وعشوائية ، وتترك نهايات كثيرة دون حل ودون نظام . الكتاب يستخلصون القصة من الحياة بالاختيار الدقيق ، وهذا يعنى تزييفا ، ان قص القصص في الواقع هو قص للاكاذيب ، ولقد جعلني فيليب باسى Philip Pacey أرد عليه بالشكل التالي :

« قص القصص هو قص للاكاذيب . قص الاكاذيب عن الناس هو ابداع متحيز . . هو اعطاء الناس بديلا للتواصل الواقعي وليس العاشا للاتصال بينهم . . والاتصال الزائف هذا هو هروب من التحدي للوصول الى صيغ مقبولة مع الناس الحقيقيين » .

وأنا لست مهتما بقص الاكاذيب في رواياتي الخاصة . الفرق بين الأدب والكتابة الأخرى هي أن الأدب يعلم المرء شيئا حقيقيا عن الحياة ، فكيف تنقل الحقيقة في عربة من الخيال ؟ ان الاصطلاحين الحقيقة والخيال متعارضان ، ومن المستحيل أن يلتقيا منطقيا .

الاصطلاحان « الرواية » و « الخيال » ليسا مترادفين في الواقع ، كما يفترض البعض حين يستخدم أحدهما بدل الآخر ، ناشر رواية « شبكة الصيد Trawl » أراد أن يصنفها كسيرة ذاتية وليس كرواية ، لأنها رواية ، وأصررت على ذلك واستطعت إثباته . انها رواية وليست

خيالا ، فالرواية شكل بالمعنى نفسه الذى نقول فيه ان السبونيتا شكل ، وفى اطار ذلك الشكل يمكن للمرء أن يكتب الحقيقة أو الخيال ، وأردت أن أكتب الحقيقة فى شكل رواية .

على أية حال ، من المؤكد أن أى مؤلف يعتمد على فضول القارئ الابتدائي المتكاسل فى « ماذا يحدث بعد ؟ » ليظل ممسكا باهتمامه هو اعتراف بالفشل من جانب هذا المؤلف ، ألا يستطيع مواجهة حقيقة أن ما يجب أن يجعل القارئ يستمر فى القراءة هو أسلوبه واختياره للكلمات ؟ ألا يملك الروائي عزة وكرامة ؟ ان السكير الذى يخبرك بقصة عن مشاكله فى حانة يعتمد على الفضول نفسه .

وحين ينظر الروائيون الى الفنون الأخرى . . ألا ينجحون ؟ تخيل كيف يستقبل شخص ما ينتج اليوم سيمفونية بأسلوب القرن التاسع عشر أو لوحة بأسلوب ما قبل رفايل ! ان ما كان طليعا قبل عشر سنوات فى الرسم أو الموسيقى ينظر اليه الآن كتراث لهذين الفنين ، لكننا نجد اليوم أن روايات الديكنزيين الجدد لا تنال مديحا كثيرا فحسب ، بل تحظى بالمبيعات والمراجعات وتؤهل مؤلفيها لاحتلال الكراسى فى الجامعة ، وهذا لا يدهشنى ، دع الموتى يعيشوا مع الموتى .

ليس هذا الذى قلته عن تاريخ الرواية يبدو منطقيا ؟ اذن لماذا هزال رواييون كثيرون يكتبون كما لو أن الثورة التى أحدثتها رواية « عوليس » لم تحدث أبدا ؟ لماذا مازالوا يعتمدون على عكازة قص الحكايات ؟ ولماذا مازال مئات وآلاف القراء يبلعون هذه المادة حتى التخمة ؟

لا أعرف ، أستطيع أن أفترض بما أن هناك كثيرا من الكتاب يقلدون رواييين القرن التاسع عشر ، فان هناك أعدادا كثيرة من القراء تقلد قراء القرن التاسع عشر أيضا ، لكن ذلك لا يؤثر فى المنطق الذى أقوله ولا فى طبيعة عملى فى الشكل الروائي . قد يكون الأمر فى النهاية مسألة تعليم أو تواصل . حين قدمت كتابى هذا الى الناشر ، ولخصت له موضوعه ، قال لى انه من الضرورى أن أتكلم بوضوح وبصوت عال ، ان هبة وسائل الاعلام وباعة السوق عالية جدا لدرجة أن الصوت العالى لى يكون كافيا .

نتعلم من المهندس المعماري شيئا مهما : فمشاكله الجمالية مرتبطة بالمشاكل الوظيفية لمعماره بطريقة تجعل انجازه النهائي دراميا ، فالشكل يتبع الوظيفة كما قال سوليفان ، ويقول رو :

« كى نستخلص الشكل من طبيعة أعمالنا بوسائل عصرنا - فذلك عملنا ولا بد أن نوضح ، خطوة خطوة ، الأشياء الممكنة والضرورية وذات المعنى . المهندس المعماري وحده وصل الى ذلك بأمانة عن طريق استخدامه الواضح لمواد البناء المتاحة » .

فالموضوعات فى كل مكان ، عامة ، الطوب والأسمنت والبلاستيك ، وطرق خلطها معروفة وخاسمة ، ولكنى أدرك أن ليس هناك مشاكل بسيطة فى الشكل ، ولكن المشاكل فى الكتابة ، الشكل ليس هو الهدف ، ولكن النتيجة ، ولو كان الشكل هو الهدف فليتبع المرء الشكلانية ، وأنا أرفض الشكلانية .

لا يستطيع الروائي أن يجسد واقع هذه الأيام بنجاح ، بأشكال مستهلكة . وإذا كان جادا فانه بعمله يحاول أن يغير المجتمع نحو وضع يعتقد أنه الأفضل ، وسيقيم على الأقل حالة ثابتة من الاعتقاد بتطور الشكل الذى يعمل به . وكلا هذين الجانبين راديكاليان ، وهذا لا مهرب منه الا اذا اختار الهروب . واقعية هذه الأيام تتغير بسرعة ، وقد كانت دائما كذلك ، ولكن تبدو لكل جيل وكأنها تتسارع ، وعلى الروائيين أن يطوروا الأشكال الأدبية التى تحتوى بشكل مقنع نوعا ما على الحقيقة المتغيرة دوما ، وذلك باختراع هذه الأشكال أو باستعارتها أو بترقيعها أو بسرقتها من وسط آخر ، والتعبير عن واقعهم الخاص . وليس واقع ديكنز أو هاردي أو حتى جويس .

واقعية اليوم تختلف بشكل ملحوظ عن واقعية القرن التاسع عشر ، آنذاك كان من الممكن الاعتقاد بالنموذج الثابت والخلود ، ولكن ما يحكم واقعيتنا اليوم هو الاحتمال بأن الفوضى هى الأرجح فى تفسيرها ، وفى الوقت نفسه تجد من يبحث عن تفسير لينكر هذه الفوضى . قال صمويل بيكيت الذى اعتبره أكثر المعاصرين استحقاقا لقراءته والاصغاء اليه : « ما أقوله لا يعنى أنه لن يكون هناك شكل للفن ، انه يعنى فقط أن شكلا جديدا سيكون هناك ، وهذا الشكل من نمط يسمح بالفوضى ، ولا يحاول القول ان الفوضى شيء آخر . وتظل الأشكال منفصلة عن الفوضى ، وعمل الفنان الآن هو إيجاد شكل يحتوى الفوضى » .

وسواء أمكن اثبات أن كل شيء هو فوضى أو لم يمكن اثبات ذلك ، فالثابت أن كل شيء يتغير ، عملية الحياة نفسها هى النمو والتحلل ، بمستويات متعددة وتنوع هائل ، فالتغير هو شرط الحياة ، وعلى المرء أن يحتضن التغير كالموجود الوحيد أو المفروض أن يكون ، التغير لا للأحسن

أو الأسوأ ، بل التغير الموجود فى حد ذاته فما أن يتأسس أسلوب أو تكنيك حتى تتلاشى أسباب وجوده أو تصبح غير مجدية . يجب أن يكون لدينا الخيال وسعة الأفق لنفهم كيف استجاب الفنان لعصره وكيف بدا لذلك العصر ، أحيانا أشعر بنفسى محظوظا أنى أضحك على نكتة بأنى بدأت أفكر ، أنى عرفت شيئا عن كيفية كتابة الرواية ، ولكن هذه المعرفة لا تقيدنى فى محاولتى لكتابة الرواية التالية ، فالعصر قد تغير . حتى فى هذه المقدمة ، فانا أحاول أن أفرض نموذجا ما ، نموذجا داخل الفوضى ، لمساعدتى ومساعدتك لفهم ما أقول ، لكن النظام والفوضى متعاكسان دائما ، لابد أن تبدو هذه الأمور التى أقولها متناقضة ، ولكن لماذا يتوقع من الروائيين أن يتجنبوا التناقض أكثر من الفلاسفة !

لا أعرف حقيقة لماذا أكتب ، أظن ، أحيانا ، لأنى لا أعرف أن أفعل شيئا آخر أفضل ، بالتأكيد توجد عدة أسباب لا سبب واحد ، أستطيع أن أسرد بعضها وسأفعل ، لكنى عموما أفضل ألا أفكر فيها . أعنقده أنى أكتب لأن لدى ما أقوله ، وهو شيء فشلت فى قوله فى أحاديثى بشكل مقنع ، ثم هناك الغرور ، والعناد ، والرغبة فى الانتقام ممن آذونى ، متوازية مع الرغبة فى مكافأة من ساعدونى ، الحاجة لخلق شيء يعيش بعدى (اعتبر ذلك حطام مشاعر دينية) ، الفرحة بالتكنيك المحض الذى يطوع الكلمات الطموحة فى نماذج من المعنى والشكل بطريقة فريدة من صنعى (على الأقل فى هذه اللحظة) ، الحاجة لجعل الناس تضحك معى بدل أن تضحك منى ، الرغبة فى تقنين التجربة والتوافق مع الأشياء التى حدثت لى والكشف عن حقيقتها ، اكتب خاصة لأقوم بطقوس التعويد ، أن أزيح عن نفسى ومن عقلى ، عبء تحمل بض الألم ، وضرر بعض التجارب ، لتنتهى فى كتاب وليس هنا فى عقلى .

لقد تحدد ما أحاول أن أصنعه فى الشكل الروائى ، من خلال محافظة مراجعى الكتب وغيرهم ، ولقد ضاع السبب الذى كتبت من أجله ما كتبت ، بالطريقة التى كتبت ، لم يصل للكثير من الناس بأى شكل ، معظم مراجعى الكتب يرون فى « التجريبية » فى أغلب الأوقات مرادفا للفشل ، وأنا اعترض فى اطلاق كلمة « تجريبية » على أعمالى ، صحيح أنى أقوم بتجارب ، ولكن التجارب الفاشلة تظل مخبأة بعيدا ، وما أختاره لينشر ، هو الناجح من وجهة نظرى ، بمعنى أن هذه أفضل طريقة استطعت أن أجدها لحل مشاكل معينة فى الكتابة ، وحين ابتعدت عن المؤلف ، فذلك لأن هذا المؤلف قد فشل ولم يعد قادرا على نقل ما أود قوله ، والسؤال المناسب هو ما اذا كانت هذه الوسيلة تأتى بالنتائج المرجوة منها أو لا ؟ وهل تحقق ما استخدمت لتحقيقه ؟ ولأية درجة كان

البديل اقل كفاءة ؟ وهكذا ففي كل طريقة استخدمتها • كان هناك تبرير أدبي وتكنيكي ، ومن لا يقبل هذا فهو ببساطة لم يفهم المشكلة التي كان يجب أن تحل •

لا أعتزم أن أتعلم في الحديث عن الأسباب التي دفعتني لاستخدام كل هذه الوسائل ، ليس لأن الروايات ينبغي أن تتكلم عن نفسها ، وأنها واضحة بدرجة كافية لمن يفكر فيها ، دعك من أن يكون متعاطفا ومتفتحا تجاهها ، لكنني سأذكر بعضا منها ، واتحدث بالتفصيل عن رواية « المتصالح » The unfortunates ، لأن شكلها هو الذي يبدو أكثر تطرفا •

رواية « المسافرين Travelling People » سنة ١٩٦٢ فيها مقدمة شارحة تلخص كثيرا من تفكيري بالشكل الروائي :

« كنت جالسا باسترخاء في كرسى من خشب الخيزران ، من صناعة القرن الثامن عشر الصينية ، بدأت أتأمل بشكل جاد بالشكل الأدبي الذي سأكتب به • واستعدت بسرعة النتائج التي وصلت اليها في تأملات سابقة في الموضوع نفسه • رفضي الدراما لقيودها الكثيرة ، والشعر غير مقبول في الوقت الحالي وفي المجال الذي أحاوله ، أما الراديو والتليفزيون فكل منهما يتطلب وسطاء كثيرين بين الكاتب والجمهور ، والاختيار الأخير هو الرواية لأنها الشكل الذي يملك أقل القيود وهي أقرب للاتصال بالجمهور الكبير •

ولكن ما نوع الرواية التي أريدها ؟ بعد قليل من التفكير ، قررت أن أسلوبا واحدا لرواية واحدة تقليد أستاذ منه كثيرا ، انه يشبه تناول وجبة من الطعام كل صنف فيها طبخ بالطريقة نفسها • وفكرت بملاحظات د • جونسون حول جمهور المسرح ، بأن كل فرد في الجمهور يكون واعيا بأنه يجلس في مسرح ، وأن هذا يمكن أن ينطبق على قارئ الرواية الذي يعرف بالتأكيد أنه يقرأ كتابا ولا يفعل شيئا آخر ، ومن هذا استنتجت أنه ليس فقط مسموحا للمؤلف بعرض آلية الرواية على القارئ ، ولكن لو فعل ذلك فإنه يقترب أكثر من الواقع والحقيقة ، وهو ما ينقض مقولة القدماء « الفن هو إخفاء الفن » • وحين تتبععت هذه الفكرة أدركت أنه من الأفضل أن يكون هناك فاصل بين كل فصل وآخر : أتوقف فيه لأتحدث عن الرواية وعن الآراء المختلفة التي أحملها اذا كان ذلك ضروريا ، وفيها يمكن الأخذ في الاعتبار المسائل التقنية ومقتطفات من كتاب آخرين مناسبة للحال ، دون تدمير شك القارئ في عدم اليقين الذي لم يكن قد حاوله •

ولابد أن أصر على أن أقود القارئ للاعتقاد بأنه لا يفعل شيئا سوى قراءة الرواية . وقد لاحظت بضيق المغالطات البالية التي مارسها روائيون عديدون خاصة من الطبقة الشعبية على قرائهم ، خاصة فيما يتعلق بالاستطراد حيث يقاد القارئ برغبته واستعداده الى الضلال . في روايتي لابد أن يكون الأمر واضحا بهذا الخصوص ، ولدى القارئ الحرية الكاملة في الاختيار ، أن يقرأ أو لا يقرأ ما يراه استطرادا . وهكذا قررت طريقة بناء روايتي بشكل عام وفكرت بالفعل في الشروع بكتابتها .

« المسافرون » تستخدم ثمانية أساليب منفصلة لتسعة فصول ، الفصل الأول والآخر يشتركان في أسلوب واحد لاعطاء الكتاب وحدة دائرية داخل الموضوع . هذه الأساليب تشتمل على : مونولوج داخلي ، رسالة ، فقرات من صحيفة ، وسيناريو فيلم وهو يصور طريقة كتابة الرواية بشكل نموذجي ، كان الموضوع مهرجانا احتفاليا في ناد ريفي يضم عددا كبيرا من الشخصيات ، واستخدمت التكنيك السينمائي بالقطع السريع من مجموعة الى أخرى ، انه بالطبع ليس فيلما لكن الطريقة تستدعي ما يعرفه القارئ كتكنيك سينمائي .

كما وجدت أنه من الضروري العودة الى البدايات الأولى للرواية في انجلترا ، وأنا مدين بالصفحات السوداء في هذه الرواية ، لرواية « ترسترام شاندي » ولكن طورت الوسيلة لأبعد مما استخدمتها « ستيرن » لأشير الى وفاة الشخصية . ان الفصل الخاص بذلك هو المونولوج الداخلي لرجل عجوز عرضة لنوبات قلبية ، وحين يصبح في لوعيه ، فهو لا يستطيع أن يشير الى ذلك بوضوح عن طريق الكلمات ، في البداية استخدمت نمودجا عشوائيا باهتا للإشارة الى اللاوعي بعد النوبة القلبية ، ثم نمودجا منظما باهتا للإشارة الى النوم أو الى اللاوعي الذي يؤدي الى الاستيقاظ ، ثم استخدمت الصفحات السوداء تعبيرا عن الموت . وحيث ان رواية « المسافرون » فيها جزء خيالي ، فهي تحيرني الآن ولن أسمح بإعادة طباعتها برغم أني مازلت سعيدا بأن طريقة كتابتها جاءت بنتائج جيدة ، تعلمت الكثير من خلالها ، ليس أقله أني تعودت أن أفكر بذهني بشكل أكبر دون أن اضطر لاستهلاك أكوام من الورق لتحقيق من أن شيئا ما سيؤتي نتائجه .

واكتشفت ما يجب عمله في رواية « البرت انجيلو Albert Angelo » سنة ١٩٦٤ للتغلب على المرض الانجليزي في المعادل الموضوعي ، ولأقول الحقيقة مباشرة من وجهة نظر ما يراه الشخص ، في شكل رواية . واسمع صوتي الضئيل الخاص ، وثانية كانت هناك طرق استخدمتها لحل

المسائل التي واجهتني ، واعتبرت أنه لا يمكن التعامل معها بوسائل أخرى . فمثلا لكي أنقل درسا معيناً يلقيه مدرس على تلاميذه ، فقد قسمت الصفحة الى عمودين ، الأفكار التي تدور بذهن المدرس وهو يلقي درسه توضع في العمود الأيمن بخط مائل ، ويوضع على الشمال حديثه وحديث تلاميذه بشكل روائي . طبعا من الواضح أن القارئ لا يمكن أن يقرأ الاثنين معا ، لكن حين يقرأهما كليهما سيرى أنها يسيران معا وفي الوقت نفسه ، ويقدمان أيضا ما يدور في نفسه آنذاك . وحين يجد ألبرت « كرت الحظ » في الشارع ، فالوصف هنا يبعدك عن الحقيقة ، فلا بد أن تعيد انتاج الحادثة ، وتكشف عما سيقع ، لا توجد طريقة أقرب الى الحقيقة وأكثر تأثيرا من أن تقطع جزءا من الورقة في الصفحات التي تقدم الحادثة بحيث يمكن قراءتها في مكانها الحقيقي ولكن قبل أن يصل القارئ الى ذلك الموضوع .

رواية شبكة الصيد Trawl سنة ١٩٦٦ كلها مونولوج داخلي ، تقديم لما يدور داخل العقل - عقلي - طبعا في لحظة يتغير الموضوع ويتقدم ما تفكر به ، والمشكلة الفنية الحقيقية الوحيدة التي واجهتني هي كيفية تقديم فقرات العقل الداخلي من موضوع لآخر ، وأخيرا قررت اتباع طريقة الفصل بمسافات ٣ ملم ، ٦ ملم ، ٩ ملم ، وحتى لا يختلط الأمر بين هذه الفراغات وبداية الفقرات فقد وضعت فيها نقاطا في مستوى العلامات العشرية ، وأشك الآن اذا كانت هذه النقط ضرورية ، ولتعويض القارئ عن عدم وجود الفراغات الخاصة بالفقرات التي تعطي لعين القارئ بعض الراحة ، فإن طول الأسطر قد قصر مما أعطى الكتاب شكلا طويلا .

إيقاعات اللغة في شبكة الصيد حاولت أن أجعلها توازي تلك الإيقاعات التي للبحر ، بينما استخدمت الشبكة استخداما كبيرا كاستعارة للطريقة التي يعمل بها اللاوعي أو يظهر أنه يعمل بها .

اللحظة التي خطرت ببالي رواية « التعساء » (١٩٦٩) ، كنت في محطة سكة حديد نوتنجهام ، ذاهبا لتغطية مباراة كرة قدم لجريدة الأوبزرفر ، وهي مباراة عادية لا شيء خاصا فيها . ولم أفكر في المكان الذي سأذهب اليه ، خاصة وقد اعتدت الذهاب كل يوم سبت الى مدينة مختلفة لتغطية مباراة ما ، فتعودت على آلية السفر والوجود في مكان غريب ، لكن حين صعدت سلالا تلك المحطة من الرصيف الى صالة الدخول . صدمت بمعرفتي لهذه المدينة وبشكل جيد . انها مدينة كان يعيش فيها صديق حميم لي ، ساعدني في عملي حين تخلى عني الجميع ، وعاش فيها حتى موته المأساوي في سن صغيرة قبل سنتين بفعل السرطان . إنها المرة الأولى التي أحضر فيها الى المدينة بعد وفاته ، وطوال فترة بعد

الظهر التى قضيتها هناك ، عادت الى ذاكرتى كل تفاصيل ما عملناه معا ، وتداخل الماضى الميت بالحاضر الحى فى ذهنى وأنا أغطى هذه المباراة . وأدركت فيما بعد ظهر ذلك اليوم أنه لابد أن أكتب رواية عن هذا الرجل « تونى » وموته المأساوى بلا هدف ، وتأثيره على وعلى من عرفوه .

كانت المشكلة الفنية الرئيسية فى رواية التعساء ، هى عشوائية المادة ، الذكريات عن تونى ، وتقرير مباراة كرة القدم الروتينى ، الماضى والحاضر منسوجان بطريقة عشوائية كاملة ، دون ترتيب زمنى ، وهذه هى طريقة عمل العقل ، ولأسباب واضحة كان على الرواية أن تكون أقرب ما يمكن لما حدث فى عقلى خلال ثماني ساعات بعد ظهر ذلك السبت المسين .

هذه العشوائية كانت فى صراع مباشر مع الحقيقة التكنولوجية للكتاب فى شكله المعروف ، فالكتاب يفرض نظاما ما على المادة ، نظام الصفحات فى تتابعها ، فكرت فى حل لهذه المشكلة ، ألا تجمع فصول الرواية فى مسلسل صفحات متتابعة كما يكون الكتاب عادة ، ولكن توضع الفصول « مفرطة » فى علبة كرتونية ، كانت الفصول مختلفة الأطوال ، بعضها كان ثلث صفحة والبعض اثنى عشرة صفحة ، وقد رقم كل فصل على حدة .

الهدف من هذه الوسيلة ، بعيدا عن الفصل الأول والفصل الأخير اللذين أشرت الى أنهما كذلك ، أن تصل الفصول الى القارئ بنظام عشوائى ، ويمكنه قراءتها بأى ترتيب يريده . وإذا تخيل أحد أن الناشر أو أى قارئ سابق قد رتبها بنظام معين ، فباستطاعته أن يعيد ترتيبها بأى شكل يريد ، وقراءتها بالترتيب الذى اختاره . وهذه طريقة استعارية ملموسة للعشوائية ولطبيعة مرض السرطان .

وأنا لا أعتقد الآن ، أو حتى آنذاك أن هذه الطريقة قد حلت المشكلة تماما ، فطول الفصول كان تعسفيا ، حتى الجمل المنفصلة أو الكلمات المنفصلة تكون تعسفية بالمعنى نفسه ، لكنها مائزال الحل الأفضل لنقل عشوائية العقل ، بدلا من النظام المفروض لكتاب مجلد متتابع الصفحات .

كان ما يهمنى بالدرجة الأولى حول رواية التعساء ، هو أن استدعى بدقة ، قدر الامكان ، ما حدث ، لأننى لا أريد أن أظل أحمله فى ذهنى فترة أطول ، كما أننى أردت أن أفى « تونى » حقه قدر ما أستطيع ، ثم الحاجة

لأن أنواصل مع نفسي وأنفس مشابهاة مرت بى بقدر ما تسمح به الظروف ، مع أشياء أهتم بها بعمق ، مما يعنى أن الرواية ستوصل تلك التجربة للقراء .

سأعود للقراء والتواصل معهم حالا ، لكن هناك روايتين تمنلان. تغييرا فى الاتجاه ، لكنهما جزء من الكل ، كالكوع المتصل بالذراع ، لكنهما تأخذان طريقا آخر . « منزل الأم عادية ٧١ » و « المدخل المزدوج لكريستى » ، جاءتنى فكرتهما وأنا أكتب « المسافرون » - ولقد ناقشتهما مع تونى - ولكن الروايات الثلاث التى تلت « المسافرون » اعترضت كتابتهما ، بالاضافة الى أنى أحبطت من رواية « بيت الأم » حيث بدت صعبة فنيا . ما أردت أن أعبر عنه فى هذه الرواية ، هو مجموعة من الأحداث فى بيت للمسنين ، تقدم من خلال عيون ثمانية من هؤلاء المسنين . ونظرا للتشوهات والعجز المتنوع للسكان ، فستبدو هذه الأحداث للقارئ العادى « غير عادية » ، وفى النهاية ستكون هناك وجهة نظر مدبرة المنزل ، وكما هو واضح فهى عادية ، وبالتالي فالأحداث نفسها سترى عادية آنذاك بالمقارنة . الفكرة هى أن تقول شيئا ما عن أشياء ندعوها « عادية » أحيانا « وغير عادية » أحيانا أخرى . الصعوبة الفنية هى أن تجعل الشيء نفسه طريفا ومهما تسع مرات ، وهى المرات التى سيوصف بها الحدث .

بحلول عام ١٩٧٠ فكرت بأنى لو لم أنفذ الفكرة فلن أنفذها ، وهكذا جلست لها ، واستترحت حين وجدت العمل يسير بيسر بمعاييره ، وخصصت لكل شخصية احدى وعشرين صفحة ، وكل سطر فى كل صفحة يقدم اللحظة نفسها عند الشخصيات الأخرى ، وهذا يعنى هافشا على اليمين غير مبرر ، وقد تخيل أكثر من مراجع للعمل أن الكتاب شعر ، وقد نالت مديرة المنزل صفحة زائدة حيث أوضحت فى هذه الصفحة أنها :

لعبة أو تليفقة من المؤلف - فانت تعرف أيها القارئ أن هناك كاتباً وراء كل ذلك ولا أريد أن أخدعك - ولا يجب أن يوجد من يخدعك .

فى رواية « المدخل المزدوج لكريستى » جعلت القارئ واعيا جدا أنه يقرأ كتابا وأن المؤلف يخاطبه حول الرواية .

فكرة الرواية تدور حول شاب تعلم نظام القيد المزدوج فى حساب الدفاتر ، يبدأ فى تقديم معرفته للمجتمع والناس ، حين خذله المجتمع ، بدأ هو نفسه يخذل المجتمع لكى يوازن دفاتره ، الشكل يتبع الوظيفة .

فالكتاب مقسم الى خمسة أجزاء ينتهى كل جزء بصفحة حسابات يحاول فيها كريستى أن يقيم نوازنا مع الحياة .

أنا فى الواقع لا استمتع بوصف العمل أكثر من ذلك ، فالكتاب هناك كى يقرأ ، وكتابتى الكثيرة حول التكنيك والشكل هى تحويل للنظر عما تدور حوله الروايات ، وماذا تحاول أن تقول ، وأشياء مثل طبيعية اللغة المستخدمة فيها ، وحقيقة انها كلها تحتوى شيئاً فكهياً وأن ثلاثاً منها قصدت أن تكون طريفة جداً بالفعل .

يقال غالباً ان القراء يواصلون قراءة الرواية لأنها تساعدهم على أن يدربوا أخيلتهم ، على عكس الفيلم أو التلفزيون ، وأن ذلك أحد أسباب جاذبية الرواية عندهم ، فهم يتخيلون الشخصيات بالطريقة التى يريدونها، ولكن ذلك لا يصلح مع رواياتى ، ومن تتبع ما سبق أن قلته يجد أنى أريد أن أعبر عن أفكارى بدقة بحيث لا أترك إلا مساحة ضيقة جداً لآى تفسير . وفى الواقع أود أن أذهب الى أبعد من ذلك وأقول لو استطاع القارئ أن يضع خياله الخاص على كلماتى ، اذن فان تلك القطعة من الكتابة تعتبر قاشنبلة ، فانا أريده أن يرى رؤيتى ، لا أن يرى شيئاً يستحضره من خياله الخاص ، كيف يفترض أنه ينمو اذا لم يعترف بأفكار الآخرين ؟ اذا أراد أن يفرض خياله فليكتب رواياته الخاصة ، وقد يظن أنى أقصد بهذا القارئ الضد anti-reader . لكن لو فكرنا الى مدى أبعد ، فستجد أن ما أفعله فى الواقع هو تحدى القارئ لأبرهن على وجوده الخاص. بشكل ملموس. بقدر ما أبرهن على وجودى بفعل الكتابة .

اعترف أن اللغة أداة غامضة وغير دقيقة لنحقق بها الدقة ، فالكلمة الواحدة لها معان مختلفة لكل فرد ، لكن ذلك خارج عن ارادتى ولا أستطيع السيطرة عليه ، أنا أستطيع فقط استخدام الكلمات لتعنى شيئاً محدداً لى ، وهناك الأهل وليس التوقع . فى أنها ستعنى الشيء نفسه لآى شخص آخر .

وذلك بوصلنا الى السؤال : لمن أكتب ؟ دائماً ينتابنى الشك فى الكتاب الذين يزعمون أنهم يكتبون لجمهور معين ، كم رسالة أو مكالمة تليفونية تلقوها من هذا الجمهور حتى يمكنهم معرفته ليكتبوا له ؟ قليلون جداً ، أعرف ذلك من تجربتى فقد سألت الكثيرين عن ذلك . انى شخصياً وقد نشرت دسنة من الكتب قد تسلمت خمس رسائل من قراء عاديين ،

لم يسبق لى أن عرفتهم ، ثلاثة منهم عنفونى بشكل بذى لأنى نشرت كتابا كانوا على وشك كتابة واحد مثله .

غير مأساة رواية « المسافرون » فأنا أكتب بالضرورة لنفسى والأشباع يكون كله تقريبا لنفسى ، وكل ما أمله أن توجد قلة منلى ، يرون ما أفعله ويفهمون ما أقوله ويستخدمونه فى أهدافهم الملتوية . ومع ذلك يجب ألا يكون الأمر كذلك ، أعتقد أن من حقى أن أتوقع من معظم القراء أن يكونوا متفتحين نحو العمل الجديد ، أن يكون هناك جمهور فى هذا البلد على استعداد لمحاولة الفهم والتعاطف مع أولئك الكتاب غير المصنفين بأغلال التقاليد ومع ما عملوه ويحاولون عمله . ان المرء يدرك حين يرى التقاليد الأوروبية العامة للطليعة الأدبية ، كم هى زائفة ومحبطة نقافة الكتاب العامة فى هذا البلد ! لا يوجد الكثيرون من الكتاب الذين يكتبون كما تستحق الكتابة أن تكون ، دعك من كتاب الرومانسيات والرعب والروايات التقليدية المستقيمة (وهى ليست كذلك بل هى ملتوية) . قد يجدر أن أشير هنا اليهم ، صمويل بيكيت (بالطبع) ، جون بوجر ، كريستين بروك روز ، بريجيد برونى ، أنطونى بيرجز ، ألان بيرنز ، أنجيلا كارتير ، ايفا فيجز ، جايلز جوردون ، ويلسون هاريس ، راينر هيبنستال ، ايفين هاشى ، مادليد روبن راى ، آن كوين ، بينولوبى شاتل ، ألان سيليتو (من كتابه الأخير فقط) ، ستيفان ثيمرسون ، ومن الواعدين جون ديوى ، وهيثكوت وليامز لو كتب رواية .

واذا تخيل شخص ما (هى أو هو) أنى تجاهلته بعدم وضع اسمه ضمن الأسماء التى ذكرتها فيمكن أن يكتب اسمه فى السطر الخالى التالى :

.

ويتلطف ويعلمنى بالمواصفات التى جعلته يتخيل أنه كاتب طليعى هل نحن مهتمون بالمجاملة !

وصفت ناتالى ساروت الأدب ذات مرة بأنه سباق التتابع ، عصا الحداثة تمر من جيل الى جيل ، الغالبية العظمى من الروائيين البريطانيين سقطوا فى السباق ، وظلوا جامدين ، أو تراجعوا ، أو حتى لم يعرفوا أن هناك سباقا « من أصله » .

معظم ما قلته قد قيل من قبل بالطبع ، لا شىء جديد ، ربما فيما يتعلق بالسياق والتركييب ، والذى لا أفهمه لماذا يرفض الكتاب البريطانيون ما أقوله ويتعاملون عليه !

صحيفة يومية قومية (أعترف أنها ذات آراء رجعية) أعادت نسخة « المسافرون » التي أرسلت إليها لكتابة مراجعة لها ، بحجة أن بعض صفحاتها سوداء (هي في الأصل كذلك) ، رجال الجمارك في استراليا صادروا رواية « ألبرت أنجيلو » (فيها قطع على شكل مستطيلات في الصفحات) وأصروا للافراج عنها أن يروا البذاءة التي كانت مكتوبة مكان القطع ، وكانوا مقتنعين تماما بأنها كانت موجودة ، في إحدى مكتباتنا الكبرى وجدت رواية « شبكة الصيد » في قسم صيد السمك .

مقدمة المفكرة الذهبية

دوريس ليسنج

شكل هذه الرواية هو كالتالى :

هناك هيكل عام أو إطار للرواية يسمى « امرأة حرة » ، وهو عبارة عن رواية قصيرة تقليدية ، فى حوالى ستين ألف كلمة ، ويمكن أن تكنفى بذاتها . ولكنها قسمت الى أجزاء خمسة تفصلها مراحل من أربعة دفاتر للمفكرات ، سوداء وحمراء وصفراء وزرقاء . تحتفظ بهذه المفكرات « أنا والف » وهى شخصية رئيسية فى « امرأة حرة » . وهى تحتفظ بالمفكرات الأربع وليس بواحدة ، فهى تدرك أن عليها أن تفصل الأشياء عن بعضها خوفا من الفوضى ، من انعدام الشكل ومن الانهيار ، الضغوط الداخلية والخارجية تنهى المفكرات ، خط ثقيل أسود عبر الصفحة الواحدة اثر آخرى ، والآن وقد انتهت المفكرات ، فمن بقاياها ينبثق شئ جديد : المفكرة الذهبية .

وخلال هذه المفكرات ، تناقش الناس ونظروا (بتضعيف الظاء) ونعصبوا لرأى دون آخر ، وصنفوا ، وقسموا ، أصوات عامة معبرة عن العصر لا تمت لأحد بل للمجتمع ، ويمكنك أن تضع أسماء لها كما كان يحدث فى المسرحيات الأخلاقية القديمة ، مثل : السيد متعصب ، السيد أنا حر لأنى لا أنتمى لأحد ، السيد أنا ممتاز فى كل ما أفعله ، والسيد أين هى المرأة الحقيقية ، والسيدة أين هو الرجل الحقيقى ، والسيد أنا مجنون لأنهم يقولون ذلك ، والسيدة من خلال تجربة كل شئ ، والسيد أنا صنعت نورة ولذلك أنا ما أنا عليه ، والسيد والسيدة لو تعاملنا جيدا مع هذه المشكلة - الصغرى - لربما نسينا فنحن لا نجرؤ أن ننظر الى المشاكل الكبرى . ولكنهم أيضا يعكسون صور بعضهم البعض ، يكون كل منهم جزءا من صورة كلية ، ويخلقون أفكار وسلوك بعضهم البعض ، كل منهم هو الآخر ، ويكونون معا الصورة كاملة . تتجمع الأمور فى المفكرة الذهبية الداخلية ، وتتحطم التقسيمات ، وعند نهاية الشظايا يتحقق انعدام الشكل - انتصار الحطة الثانية التى تتجسد فى الوحدة . أنا وسول جرین . يشكلان السقوط الأمريكى ، مجنونان ، مخبولان ،

مسعودان ، ينهاران فى أحضان بعضهما وفى أحضان الآخرين ، يخترقان
المساذج الزائفة لماضييهما ، والتراكيب التى صاغها لينقذا نفسيهما
والآخرين ، ويذوبان • يسمعان أفكار بعضهما ، يدرك كل منهما نفسه
فى الآخر •

سول جرين الذى كان حاسدا ومدمرا لأنا ، الآن يؤيدها ، ينصحها ،
ويوحى لها بخطة الكتاب التالى - امرأة حرة - عنوان ساخر • يبدأ :
« كانت المرأتان وحيدتين فى شقة لندن » ، وأنا التى كانت غيورا من
سول لدرجة الجنون ، ممسوسة وكثيرة المطالب • تعطى سول المفكرة
الذهبية الجميلة - المفكرة الذهبية ، بعد أن سبق لها الرفض ، ونوحى
له بخطة كتابه التالى ، وتكتب فيه الجملة الأولى : « على سفح جبل فى
الجزائر راقب جندى ضوء القمر يلمع على بندقيته » • وفى داخل المفكرة
الذهبية التى كتبها الاثنان ، لا يمكنك التمييز بين ما كتبه سول وما كتبه
أنا وما كتبه الآخرون •

هذا الانهيار ، الذى يكون أحيانا علاجا للنفس حين يخور عزم
الناس ، ويترد الانقسامات الزائفة فى النفس الداخلية ، كتبه أناس
آخرون كما كتبه بنفسى وذلك غير الرواية القصيرة القديمة التى كتبتها
عن ذلك من قبل • هنا الموضوع أكثر قربا من التجربة ، قبل أن تشكل
التجربة نفسها الى فكر ونموذج ، وأكثر قيمة ربما بسبب أنها مادة خام •

ولكن ، لم يلاحظ أحد هذه الحطة المركزية ، ربما لأن المراجعين ،
الأصدقاء منهم والأعداء ، قلصوا حجم الكتاب لدرجة كبيرة ، لأنه عن حرب
الجنس ، أو كما زعمت النساء انه أفضل سلاح فى حرب الجنس •

وغدوت فى وضع زائف منذ ذلك الحين • لأن آخر ما أريده هو أن
أرفض دعم المرأة •

ولكى نتخلص من موضوع تحرير المرأة - بالطبع أنا أؤيد تحرير
المرأة فالنساء مواطنات من الدرجة الثانية كما يقولون بحماسة فى بلدان
عديدة ، ويعتبرن أنفسهن قد نجحن إذا سمعنهم الآخرون ، كل الناس تقول
مسبقا ، بعداوة أو لا مبالاة « أنا أؤيد أهدافهن ولكن لا أحب أصواتهن
الحادة وطرقهن البذيئة قليلة الحياء » • وهذه مرحلة حتمية ومفهومة
تماما فى أية حركة ثورية ، فالمصلحون لابد أن يتوقعوا أن ينكرهم الناس
ويتبرأ منهم أولئك السعداء بما كسبوه - فأنا أعتقد أن حركة تحرير المرأة
لن تغير الكثير ، ليس بسبب خطأ أهدافها ولكن بسبب ما هو واضح بالفعل

من أن العالم كله يهتز بنموذج جديد بسبب التغيرات العنيفة التي نعيشها،
ومن المحتمل حين نكون وسط هذه التغيرات ، نحن النساء ، اذا قدر لنا
أن ندخلها ، فإن أهداف تحرير المرأة ستبدو آنذاك صغيرة وغريبة .

وهذه الرواية ليست بوقا لعملية تحرير المرأة ، انها نصف الكثير
من العواطف العدوانية الأنثوية ، تضع العداء والحقد مطبوعا على الورق .
وقد فاجأني ما نفكر به كثير من النساء وما يشعرون به ويجربونه . وفي
الحال أطلقت على كثير من الأسلحة القديمة ، الرئيسى فيها كان من عينه
« انها امرأة مسترجلة » أو « انها كارهة للرجال » ، وهذا فى حد ذاته غير
مدمر ، فالرجال ، وكثير من النساء قالوا ان المرأة التى تسعى لحق
التصويت قد فقدت صفاته الأنثى ، وهى ذكورية ومتوحشة . لم أقرأ فى
سجل أى مجتمع ، فى أى مكان ، حين تطالب المرأة بحقوقها الطبيعى ، بأن
الرجال لم يصفوها بذلك ، وبعض النساء أيضا . كثير من النساء غضبن
من المفكرة الذهبية .

ما تقوله النساء لبعضهن ، وهن « يبرطن » فى مطابخهن ويشتكين،
ويمارسن النميمة ، أو ما يعبرن به عن ماسوشيتهن ، هو غالبا آخر
ما يستطعن قوله بصوت عال - فقد يسمع الرجل .

النساء هن الجبناء ، وهن كذلك ، لانهن كن ولزمن طويل شبه
عبيد . عدد النساء اللواتى يستطعن الصمود والدفاع عما يفكرن ويشعرن
به ويجربينه أما الرجل الذى يحببته ، مازال صغيرا . مازالت نساء كثيرات
يجرين كالجراد حين يقذفهن الرجل بالطوب قائلا : « أنثن مسترجلات
عدوانيات . . تحقرن رجولتى » . أعتقد أن كل امرأة تتزوج أو تحترم
رجلا يستخدم مثل هذا التهديد تستحق كل ما يجرى لها . لأن رجلا كهذا
« بلطجى » ، لا يعرف شيئا عن العالم الذى يعيش فيه أو عن تاريخه .
لقد قام كل من الرجال والنساء بأدوار متنوعة فى مجتمعات مختلفة ،
ولذا فإن مثل هذا الرجل جاهل أو خائف على مركزه ، جبان .

أكتب هذه الملاحظات بالشعور نفسه الذى أكتب به خطابا أوجهه
الى الماضى البعيد ، أنا متأكدة ان كل ما أخذناه الآن على سبيل المنحة ،
سيكنس كلية فى الحقب التالية (اذن لماذا كتابة الروايات ؟ وبالفعل
لماذا ؟ افترض اننا يجب أن نمضى فى الحياة كما لو . . .) .

بعض الكتب لا تقرأ بالطريقة الصحيحة ، اما لأنها تجاهلت آراء
مرحلة ما ، واما لأنها تفترض بلورة معلومات فى المجتمع ، لم تحدث بعد .

كتبت هذا الكتاب وكان المطالب التي حددتها حركات تحرير المرأة قد
تحققت بالفعل . كتبت سنة ١٩٦٢ ، ولكن لو ظهر الآن لما كان هناك
أى رد فعل عليه ، فالأمور تغيرت بسرعة كبيرة . وبعض النفاق والرياء
قد زال ، منذ عشر سنوات أو خمس سنوات كان العصر عصرا جنسيا
متمردا - كتبت فيه روايات ومسرحيات كثيرة تنتقد المرأة بشكل وحشي ،
خاصة في الولايات المتحدة وبريطانيا ، وتصورها كمستأسدة أو خائنة
ومقوضة للمجتمع . وكانت هذه المواقف في كتابات الرجال تؤخذ كشيء
طبيعى ، عادية ، وتقبل كأساس فلسفى سليم ، ليس كموضوع كراهية
المرأة أو عدوانيتها أو عصايتها ، مازال الأمر مستمرا بالطبع ، لكن
مما لا شك فيه فان الأمور أفضل الآن .

لقد غرقت فى تأليف هذا الكتاب ، حتى اننى لم أفكر برد الفعل
حين ينشر ، لقد انغمست فيه ليس فقط لأن كتابته صعبة - وقد كانت
كذلك - ولكن بسبب ما كنت أتعلمه وأنا أكتبه . كل أنواع الأفكار
والتجارب التي لم أكن أدرك أنها تخصنى ، انبثقت أثناء الكتابة ، اذن
فان وقت الكتابة الفعلى وليس نجارب الكتابة ، هو الباعث على المرض
بالفعل ، لقد غيرنى هذا الكتاب ، انتهيت من عملية البلورة هذه ، وأعطيت
المخطوطة للناسخ والأصدقاء ، وعرفت أنى كتبت موضوعا عن حرب
الجنس ، واكتشفت بسرعة أن أى شيء أقوله لن يغير من هذا التشخيص .
مع أن جوهر الكتاب ، تنسيقه ، كل شيء فيه ، يقول ضمنا وبوضوح انه
لا يجب أن نحسم الأشياء أو نصنفها .

تقول أنا : « مقيدة ، حرة ، خيرة ، شريرة ، نعم ، لا ، رأسمالية ،
اشتراكية ، جنس ، حب » تصرخ بذلك فى امرأة حرة معلنة فكرة رئيسية
بالطبول وآلات النفخ - أو هكذا تخيلت ، بالضبط كما اعتقدت أن لب
كتاب المفكرة الذهبية ، هو مفكرة ذهبية يفترض أن تكون نقطة محورية
مركزية تحمل ثقل الكتاب كله .

لكن لا .

هناك أفكار أخرى اشتركت فى صنع هذا الكتاب ، وقد كان ذلك
وقتا عصيبا لى ، فالأفكار والموضوعات التي حملتها فى ذهنى سنوات
تتجمع معا لتنصب مرة واحدة .

احدى هذه الأفكار ، انه لا يمكنك أن تجد رواية انجليزية ، وصفت
المناخ الثقافى والأخلاقى الذى كان سائدا منذ مئة سنة ، بالطريقة التي

فعلها نولستوى بروسيا ، أو ستنندال بفرنسا ، فأن نقراً « الأحمر والاسود » هو ان تعرف فرنسا كما لو كنت تعيش هناك ، وأن تقرا « أنا كارينينا » فمعناه أن تعرف روسيا في ذلك الوقت . ولكن لم تكتب روايه فيكتوريه مفيدة . أخبرنا « هاردى » كيف تبدو لو كنت فقيرا أو أن يكون لديك خيال أكبر من إمكاناتك ، أو أن تكون ضحية . وقد كانت جورج اليوت جيدة بالقدر الذى اختارته ، وأعتقد أن الجزء الذى نالته لكونها امرأة فيكتورية ، هى رغبتها أن تبدو امرأة صالحة ، حتى وهى ليست كذلك فى رأى بعض المنافقين آنذاك . هناك الكثير الذى لم تفهمه عن عصرها لأنها كانت أخلاقية . ربما أقربهم الى ما أتصوره « ميرديث » الذى بخست حقها كثيرا ، وقد حاول « ترولوب » كتابة الموضوع لكن كان ينقصه الهدف . لا توجد رواية واحدة لها قوة وصراع الأفكار مثل ما يوجد فى سيرة لوليم موريس .

هذه المحاولة من جانبى - للكتابة عن عصرنا - نفترض أن الفلتر الذى تنظر منه المرأة للحياة ، له الصلاحية نفسها للفلتر الذى ينظر منه الرجل . وقد أسقطت هذه المشكلة من تفكيرى ، وقررت أنه لكى أعطى الاحساس الأيديولوجى لعصرنا فلا بد أن يتم ذلك وسيط الاشتراكيين والماركسيين ، لأن الجدل الكبير حول ما حدث فى عصرنا قد تم داخل الحركات الاشتراكية المختلفة : الحركات والثورات والحروب وغيرها . (وينبغى أن نسلم بأن وجهة النظر التى سينظر بها الناس فى المستقبل الى عصرنا قد تكون مختلفة عن وجهة نظرنا ، بالضبط كما ننظر الآن الى الثورة الانجليزية والفرنسية وحتى الروسية ونراها مختلفة عن رؤية الناس الذين كانوا يعيشون آنذاك) . فالأفكار التى اقتضرت على اليسار المتطرف منذ ثلاثين أو أربعين سنة ، أصبحت أفكار اليسار كله منذ عشرين سنة ، وتبناها الفكر الاشتراكى التقليدى العادى بيمينه ويساره فى السنوات العشر الأخيرة ، شئ ما تغفل بدقة وانتهى كقوة مهيمنة .

فى رواية كالتى أحاولها لابد أن يكون هناك شئ مركزى كهذا . فكرة أخرى دارت فى رأسى طويلا ، وهى أن الشخصية الرئيسية لابد أن تكون فنانا بشكل ما ، لكن مع بعض الحماقة . وذلك لأن تيمة الفنان سيطرت فى الفن فترة من الوقت - الرسام ، الكاتب ، الموسيقى ، وغيرهم ، كل كاتب كبير استخدمها ومعظم الكتاب الصغار . ان الفنان ، وصورته فى المرأة ، رجل الأعمال ، قد « فرشنا » ثقافتنا ، يظهر أحدهما كجلف غير حساس ، ويظهر الآخر كمبدع يغفر له كل شئ : حساسيته المفرطة ، ومعتقداته ، وخطريته بسبب إنتاجه ، بالضبط كما يغفر لرجل الأعمال من أجل أعماله . واعتدنا على ذلك ، ونسينا أن الفنان كبطل هى

تيمة جديدة ، فأبطال الروايات منذ مئة عام لم يكونوا فنانين ، كانوا جنودا ومستكشفين وقساوسة وسياسيين وبنساء امبراطوريات - حظ النساء سييء فنادرا ما نجحت احداهن لتصبح فلورنس نايتنجيل - والذين أرادوا أن يكونوا فنانين هم غريبو الأطوار والشواذ ، وكان عليهم أن يكافحوا في سبيل ذلك . وقررت أن أستخدم تيمة العصر هذه - الفنان أو الكاتب - مع تطويرها واضفاء الحماسة على هذا المخلوق ، وتبيان سبب ذلك . ويجب أن يرتبط ذلك بالتباين بين مشاكل الحرب المحيرة والمجاعة والفقر ، والفرد الضئيل الذي يحاول أن يعكسهم في مرآته . ولكن الذي لا يمكن التسامح معه ، وفي الحقيقة لا يمكن تحمله أكثر من ذلك ، هو هذه القدرة المبهجة ، المعزولة والنرجسية بشكل مخيف ، التي تغيرت . يبدو أن الناشئين رأوا ذلك وأرادوا أن يغيروه بطريقتهم ، فأبدعوا ثقافة خاصة بهم ، مئات من الأبطال تصنع أفلاما ، تصدر صحفا ، تؤلف الموسيقى ، تصور ، تكتب الكتب ، لقد محوا سمات تلك الشخصية الحساسة المبدعة بنسخها الى مئات الآلاف ، وهو اتجاه وصل الى منتهاه ، الى نتيجته ، ولذا لابد من رد فعل من نوع ما ، كما يحدث دائما .

حين بدأت الكتابة كان هناك ضغط على الكتاب ألا يكونوا ذاتيين ، بدأ هذا الضغط داخل الحركات الشيوعية كتطور للنقد الأدبي الاشتراكي الذي نما في روسيا في القرن التاسع عشر على يد مجموعة من الموهوبين على رأسهم بيلنسكى Belinsky ، مستخدمين الفنون وخاصة الأدب في معركتهم ضد القهر والقيصرية . وقد انتشر هذا المبدأ بسرعة في كل مكان ، ووجد صدى في وقت متأخر ، في خمسينات هذا القرن في إنجلترا ، في فكرة « الالتزام » . ومازال قويا في البلاد الشيوعية ، ويعبر عن نفسه في الحياة العادية بالقول الشائع : « أهتم بشئونك الغبية الخاصة بينما روما تحترق ؟ » ، وكان من الصعب مقاومة ذلك ، خاصة اذا صدر عن أناس أعزاء يفعلون كل ما يبعث على الاحترام ، على سبيل المثال ، مكافحة التفرقة العنصرية في جنوب أفريقيا . ومع ذلك ، كانت هناك دائما قصص وروايات من كل نوع ، تغوص أكثر وأكثر في الذاتية . وكتبت أنا في « المفكرة الزرقاء » عن المحاضرات التي كانت تلقىها ، قائلة : « كان الفن خلال العصور الوسطى فنا جماعيا وليس فرديا ، يصدر عن وعي جماعي ، كان خاليا من الفردية المؤلمة للفن في العصر البرجوازي ، وبما ما سنترك وراءنا هذه الأنانية الدافعة للفن الفردي . سنعود للفن الذي يعبر عن مسئولية الانسان عن زملائه واخوانه في الإنسانية ، ونبتعد عن الفن الذي يكرس انفصال نفس الانسان عن بني جنسه . الفن في الغرب أصبح صرخة عذاب تسجل الألم ، وقد أصبح الألم هو واقعنا

العميق » • « كنت أقول شيئاً كهذا • منذ حوالى ثلاثة أشهر ، وفى منتصف المحاضرة ، بدأت أتلعثم ، ولم أستطع أن أكمل » •

بلعثم أنا كان بسبب أنها تحاول تجنب شيء ما • فبمجرد أن يبدأ التركيز على تيار ما ، يصعب على المرء أن يتجنبه ، فلا يمكنك الكتابة حول بناء ما أو جسر أو سد ولا تتحدث عن عقول ومشاعر الناس الذين بنوه ، ولا تظن أنى أسخر ، فذلك لب النقد الأدبى فى البلاد الاشتراكية • وأخيراً أدركت أن الطريق عبر هذه الحيرة - قلق الكتابة عما هو شخصى - هو الكتابة عن النفس كأنك تكتب عن الآخرين ، حيث إن مشاكلك وآلامك وأفراحك وعواطفك وحتى أفكارك الغريبة لا يمكن أن نخصئك أنت وحدك ، وبهذه الطريقة تخترق ما هو شخصى وذاتى لتجعل منه عاماً ، محولاً التجربة الخاصة الى شيء أكبر بكثير ، إن النضج فى النهاية هو أن تدرك أن تفرد المرء وتجربته غير المعقولة يشاركه فيها كل واحد من الآخرين •

وفكرة أخرى كانت تشغلنى ، إذا اتخذ الكتاب شكله الصحيح ، فسيقوم بنفسه بالتعليق على صلاحية الرواية التقليدية ، فالجدل حول الرواية موضوع مستمر منذ نشأت الرواية ، وليس كما يتخيل الأكاديميون المعاصرون بأنه شيء جديد ، وكتابتى الرواية القصيرة « امرأة حرة » داخل العمل كتلخيص وتكثيف للمادة كلها ، ، هو ابداء للرأى فى الرواية التقليدية ، وهى طريقة أخرى لوصف عدم اقتناع الكاتب حتى ينتهى شيء ما ، كأنه يقول : « كم هو قليل الجهد الذى بذلته لأقول الحقيقة ! وكم هو قليل الذى استوعبته من كل ذلك التعقيد ! وكيف يمكن لهذا الشيء الضئيل أن يكون حقيقياً حين يكون ما جربته مضطرباً بلا شكل أو هيئة واضحة ! » •

كان هدفى الأول أن أقدم كتاباً يقوم بنفسه بتعليقه الخاص ، يصرح دون كلمات ، أن يتحدث بالطريقة التى تشكل بها • •

لكن ، وكما قلت ، لم يلاحظ أحد ذلك •

ربما أحد الأسباب أن الكتاب ينتمى الى التقليدية الأوروبية أكثر منه الى التقاليد الانجليزية فى الرواية • ولكن بلا شك أن محاولة كتابة رواية أفكار يشكل عقبة أمام الكاتب ، فضيق الأفق فى ثقافتنا حاد وجاد • فحقبة بعد حقبة يتخرج شباب من الجامعة يقولون بفخر « أنا لا أعرف شيئاً عن الأدب الألمانى » ، ذلك هو الجو العام ، الفيكنتوريون كانوا يعرفون كل شيء عن الأدب الألمانى ، وكانوا قادرين بلا تأنيب ضمير ألا يعرفوا شيئاً عن الأدب الفرنسى •

وليس مصادفة أن النقد الواعي لكتابي كتبه نقاد ماركسيون أو كانوا ماركسيين ، فلقد رأوا ما أحاول صنعه ، وذلك بسبب أن الماركسية تنظر الى الأشياء ككل ، والى علاقة الموضوعات بعضها ببعض ، أو على الأقل تحاول ذلك ، وأما قضية محدوديتها فليست هى موضوع نقاشنا اليوم . فالمرء الذى يقع تحت تأثير الماركسية ، يأخذ الأمر كقضية مسلم بها ، انه اذا وقعت حادثة فى سيبيريا فستؤثر بحادثة أخرى فى بتسوانا . أعتقد أن الماركسية ، كانت المحاولة الأولى فى عصرنا ، خارج نطاق الأديان الرسمية ، لتشكيل قوة أخلاقية عالمية ، كونها سارت بشكل خاطئ ، ولم تستطع منع نفسها من الانقسام وإعادة الانقسام ، مثل معظم الأديان ، الى فرق أصغر وأصغر ، وشيع ومبادئ ، لا ينفى أنها كانت محاولة .

هذا الخصام المؤسف بين النقد والكتاب ، اعتاد الجمهور عليه ، كشجار الأطفال . « يا للأمور الصغيرة » . انهم ينشاجرون ثانية « أو » انتم أيها الكتاب ، يا من نلتهم كل ذلك المديح . . . وإن لم يكن مديحا . . فكل ذلك الانتباه . . لماذا يبدو عليكم أنكم مجرؤخون ! » والجمهور على حق تماما . ان التجارب المبكرة القيمة فى حياتى الأدبية أعطتنى إحسانا وإعيا ومتميزا على النقد والمراجعين ، لكن فقدت هذا الإحساس عند تناولهم لرواية « المفكرة الذهبية » اعتقدت معظم الوقت أن النقد دائما سخييف وليس حقيقيا ، ولقد اكتشفت أن الكتاب ينظرون الى النقد كأننا بديلة . وأن هذه الأنا البديلة أكثر ذكاء منهم ، لتحكم عليهم هل أصابوا هدفهم أو لا . لم أقابل كاتباً يعد واجه ذلك المخلوق النادر ، الناقد الحقيقى ، ولم يفقد جنون العظمة ويصبح معترفاً بالجميل ، فقد وجد ما يظن أنه يحتاجه . ان ما يطلبه الكاتب مستحيل ، لماذا يتوقع وجود مثل هذا الناقد غير العادى ، الناقد الكامل ، لماذا ينبغى وجود شخص ما يستوعب ويدرك ما يحاول الكاتب عمله ؟ فى النهاية هناك شخص واحد يغزل مثل هذه الشرقة ، شخص واحد مهمته أن يغزلها فقط ، وليس من الممكن للنقاد والمراجعين ، أن يعطونا ما قالوا انهم سيعطونه لنا ، ذلك الذى يتشوق اليه الكتاب بحس طفولى ، لأنهم ليسوا مؤهلين لذلك ، فتأهيلهم يقودهم الى اتجاه آخر .

يبدأ كل ذلك من يكون الطفل صغيراً ، فى الخامسة أو السادسة ، ويدخل المدرسة . يبدأ بالجوائز والدرجات ، فى الأنهار والنجوم ، وفى أماكن عديدة ، سباق الخيول العقلى هذا ، طريقة التفكير بأسلوب الحاسر والكاسب ، التى تقود الى صيغة « الكاتب » . يتقدم عدة خطوات عن الكاتب ب ، والكاتب ب تخلف وراءه ، والكاتب ج أثبت أنه أفضل من الكاتب

د • منذ البداية الأولى يدرّب الطفل على التفكير بهذه الطريقة ، طريقة المفارقة ، النجاح والفشل ، انه نظام يستأصل الآخرين ويقضى عليهم ، الضعيف يسقط ولا تشجيع له ، نظام مصمم لانتاج قلة رابحة تظل دائما فى منافسة ، وفى اعتقادى ، أن أية موهبة يملكها الطفل ، بغض النظر عن مستوى ذكائه ، تستمر معه طوال حياته ، تعطيه وتعطى غيره الخير ، اذا لم تستخدم كسلعة ذات قيمة فى سباق النجاح •

والشيء الآخر الذى يتعلمه الطفل منذ البداية هو عدم الثقة بأحكامه ، فهو يتعلم الاذعان للسلطة ، وكيفية البحث عن آراء الآخرين وقراراتهم واستخدامها والامتثال لها •

ويتعلم الطفل فى المجال السياسى أنه حر وديمقراطى ، ذو ارادة حرة وعقل حر ، وأنه يعيش فى بلد حر ، يتخذ قراراته بحريته الخاصة ، وفى الوقت نفسه هو أسير لمعتقدات وتقاليد عصره ، التى لا يتساءل عن مدى صحتها ، لأن أحدا لم يخبره أصلا أنها موجودة • وحين يصل السن التى يجب عليه أن يختار فيها (مازلنا نرى فى الاختيار الحتمى قضية مسلمة !) بين العلوم والفنون ، ويختار الفنون غالبا لاتسانيتها ، وهو لا يدري أنه قد أصبح مبرمجا داخل نظام معين ، وهو لا يعلم ان الاختيار ذاته هو نتيجة تقسيم زائف تجذر فى قلب ثقافتنا • أما أولئك الذين يحسون بذلك ، ولا يرغبون اخضاع أنفسهم لمزيد من « القولية » فانهم يغادرون ، بطريقة غريزية ونصف وعى ، ليبحثوا عن عمل يتوافقون معه حتى لا ينقسموا ضد أنفسهم • وفى كل معاهدنا من كلية الشرطة الى الطب الى السياسة ، نعطى قليلا من الاهتمام الى أولئك الذين يغادرون ، تلك العملية من الاقصاء والازالة ، التى تتم طوال الوقت ، وتستثنى مبركا جدا ، أولئك الذين هم على الأرجح أصلاء ومصلحون ، لأنهم انجذبوا الى شيء يحبونه بالفعل ، ضابط شاب يترك الشرطة قائلا انه لا يحب ما يقوم به ، مدرس شاب يترك التدريس لأنه لا يجد فيه مثاليته ، هذه الآلية الاجتماعية تسير دون أن يلاحظها أحد ، برغم أنها قوية مثل أية قوى أخرى تحفظ معاهدنا صارمة وكاتمة على الأنفس •

هؤلاء الأطفال الذين قضوا سنوات فى نظام للتأهيل بهذا الشكل ، يصبحون نقادا ومراجعين للأدب ، ولا يستطيعون تقديم ما يبحث عن المؤلف والفنان - الحكم الأصيل الخلاق • كل ما يستطيعون فعله هو اخبار الفنان بمدى توافق عمله مع النماذج السائدة من الشغور والتفكير - مع مناخ الرأى السائد ، انهم يشبهون ورق عباد الشمس ، مقياس اتجاه الريح ، بلا قيمة ، انهم الباروميترات الأكثر حساسية للرأى العام •

نستطيع أن نرى التغير في المزاج والرأى هنا أسرع من أى مكان آخر عدا الحقل السياسى بالطبع - لأن هذا هو كل ما تعلمه هؤلاء الناس ، أن ينظروا خارج أنفسهم للبحث عن آرائهم ، وأن يتوافقوا مع شخصيات السلطة ومع الآراء الجاهزة . .

ربما لا توجد طريقة أخرى لتعليم الناس ، لكنى لا أعتقد فى ذلك ، ولكى أساعد على الأقل فى وضع الأشياء بشكل صحيح ، ونسمى الأشياء بأسمائها ، أجد أنه ينبغى أن نقول للطفل مرارا وتكرارا خلال حياته المدرسية ، شيئا يشبه هذا المعنى : أنتم هنا فى عملية تنقيف ، لم تطور بعد نظاما للتعليم لا يكون تلقينيا . نحن آسفون ولكن هذا أفضل ما يمكن عمله . ما تتعلمونه هنا هو خليط من الآراء المتحيزة المعاصرة واختيارات لتقافة معينة ، وأبسط نظرة للتاريخ ستبين لكم عدم ثبات هذه الأمور ، وأنها زائلة ، لقد علمكم أناس استطاعوا أن يضعوا أنفسهم فى خدمة نظام من الفكر وضعه أسلافهم لتخليد ذاتهم ، وأولئك الذين هم أكثر قوة وتفردا منكم ، سنشجعهم على المغادرة وإيجاد طرق للتعليم بوجهة نظرهم الخاصة ، أما أولئك الذين سيبقون ، فلا بد أن يتذكروا ، دائما وأبدا ، أنهم « تقولوا » ليناسبوا الاحتياجات الخاصة العتيقة لهذا المجتمع . .

مثل كل كاتب ، تصلنى رسائل طوال الوقت من شبان وشبان ، يكتبون دراسات أو أطروحات حول كتبى - من بلدان مختلفة ، خاصة الولايات المتحدة ، وكلهم يقولون : « من فضلك ارسل لى قائمة بما كتب عن أعمالك ، والنقاد الذين كتبوا عنك من أصحاب السمعة والسلطة » ، ويسألون أيضا عن آلاف التفاصيل غير المهمة اطلاقا ، ولكنهم تعلموا أن يعتبروها مهمة ، تفاصيل بحجم ملفات دائرة الهجرة .

وأرد عليهم بقولى : عزيزى الطالب . أنت مخبول . لماذا تنفق الشهور والسنوات تكتب آلاف الكلمات عن كتاب واحد أو حتى عن كاتب واحد بينما هناك مئات الكتب تنتظر أن تقرأ ؟ أنت لا ترى أنك ضحية نظام مؤذ وهدام . وإذا كنت قد اخترت بنفسك عملى كموضوع لرسالتك ، فأنا شاكرة جدا أنك وجدت ما كتبته مفيدا لك - لكن لماذا لا تقرأ العمل بنفسك وتعمل فيه عقلك ، وتقارنه بحياتك الخاصة وتجربتك الخاصة ، ولا تهتم برأى فلان أو علان ؟ .

ويجيبون « عزيزتى الكاتبة : ولكن يجب أن أعرف ما كتبه النقاد أصحاب الرأى والسلطة ، لأنى إذا لم استشهد بأقوالهم فإن أستاذى لن يمنحنى أية درجات » .

هذا نظام عالمي ، من الأورال الى يوغسلافيا ومن مينوسوتا الى
مانتشيستر ، كلنا قد اعتدنا عليه ولم ندرك كم هو سييء . أنا لست معتادة
عليه ، فقد تركت المدرسة في سن الرابعة عشرة ، ومر على وقت كنت فيه
أسفة لذلك ، فقد ظننت أنني فقدت شيئا مهما ، لكنني الآن شاكرة لهذا
الهروب المحظوظ .

بعد نشر «الفكرة الذهبية» ، قررت أن أجعل شغلي الشاغل ، معرفة
شيء ما عن الآلية الأدبية ، ان أتفحص العملية التعليمية التي تصنع الناقد
أو مراجع الكتب . تفحصت أعدادا لا حصر لها من أوراق الامتحانات ،
وجلسيت في فصول تعليم الأدب ، ولم أصدق أذني . قد تقول « هذا رد
فعل مبالغ فيه ، وليس لك الحق في قوله خاصة وأنت لم تكوني جزءا
من النظام » . . لكنني أعتقد أنني لست مبالغة على الإطلاق ، وأن رد الفعل
من شخص خارج النظام له قيمة أكبر ، لأنه حيوي وغير مبني على تحيز
لنظام تعليمي معين .

ولكن بعد هذا البحث والاستقصاء ، لم تعد هناك صعوبة في اجابة
أسئلتى الخاصة . لماذا هم - النقاد - محدودو الأفق لهذا الحد ؟ ذاتيون
لهذا الحد ؟ لماذا هم ، دائما ، صغار ويتصاغرون ؟ لماذا يهتمون بالتفاصيل
ولا يهتمون بالكل ؟ ولماذا يفسرون كلمة « ناقد » بشكل خاطيء دائما ؟
لماذا يرون دائما أن الكتاب في صراع مع بعضهم البعض ؟ بدلا من النظر
اليهم كمكملين لبعضهم البعض ؟ ببساطة لأن هذا هو ما تدربوا عليه . ان
الشخص الذي يستطيع أن يفهم ما تفعله وما تهدف اليه ، والقريب دائما
من الصواب ، هو شخص من خارج الآلة الأدبية ، وحتى خارج نظام
الجامعة ، قد يكون طالبا مازال في بداياته وحبه للأدب ، أو يكون انسانا
مفكرا ، يقرأ كثيرا ، ويشبع غريزته الخاصة .

أقول لهؤلاء الطلبة ، الذين عليهم أن يمضوا عاما أو عامين ليكتبوا
أطروحة عن كتاب واحد « هناك طريقة واحدة للقراءة » أن تتصفح ما في
المكتبات أو المكتبات العامة من الكتب ، تلتقط الكتب التي تشدك ،
وتقرأها فقط ، وادم بها حين تملها ، تخط الأجزاء المملة ، ولا تقرأ أبدا
أي شيء لأنك تشعر أنه ينبغي عليك قراءته ، أو لأنه جزء من تيار أدبي
أو حركة أدبية . تذكر أن الكتاب الذي يجعلك تشعر بالملل وأنت في
العشرين أو الثلاثين ، قد يفتح لك الأبواب وأنت في الأربعين أو الخمسين ،
والعكس بالعكس . لا تقرأ كتابا في غير موعده المناسب لك . تذكر أن
الكتب المطبوعة تعادل الكتب التي لم تطبع بعد ولم تكتب بعد . وحتى
الآن ، في هذا العصر ، عصر التقديس الجبري للكلمة المكتوبة ، فأننا نتعلم

التاريخ والأخلاق الاجتماعية من القصص ، وحتى أولئك الذين يتقيدون بمصطلحات كل ما هو مكتوب - ولسوء الحظ فكل منتجات نظامنا التعليمي على شاكلتهم - لا يرون ما هو أمام أعينهم ، مثلاً فإن التاريخ الحقيقي لأفريقيا مازال فى صدور القصاصين السود والحكماء والمؤرخين السود ورجال الطب ، انه تاريخ شفاهى مازال محفوظاً بعيداً عن الرجل الأبيض وافتراسه ، واذا كان ذهنك متفتحاً ، فستجد الحقيقة فى كلمات ليست مكتوبة . وهكذا لا تدع أبداً الصفحة المطبوعة تسيطر عليك وتكون سيدتك ، ولتعلم أنك اذا رأيت أن الحقيقة هى أن تمضى سنة أو سنتين عاكفاً على كتاب واحد أو مؤلف واحد ، فذلك يعنى أن تعليمك كان سيئاً . كان ينبغي أن تتعلم كيف تقرأ بطريقتك الخاصة ، تنتقل من شىء تحبه الى شىء آخر تحبه ، تتعلم كيف تتبع حدسك الذى يشعر بما تحتاجه ، ذلك هو ما يجب عليك أن تطوره ، وليست الطريقة التى تستشهد بها بأقوال أناس آخرين .

ولكننا ، لسوء الحظ ، نصل دائماً متأخرين .

بدا لي للوهلة الأولى ، أن تمرد الطلبة المعاصرين سيغير الأمور ، وأن نفاذ صبرهم على المواد الميتة التى يدرسونها سيكون قوياً لدرجة استبدالها بشىء حيوى ومفيد . ولكن يبدو أن تمردهم انتهى ، وهو شىء محزن . خلال ذلك الوقت المثير ، تلقيت رسائل من تلاميذ فى صفوف عديدة فى الولايات المتحدة ، رفضوا المناهج المقررة عليهم ، وأحضروا الى الفصول الكتب التى اختاروها بأنفسهم ، تلك التى وجدوها ملائمة لحيواتهم كانت الفصول عاطفية ، وأحياناً عنيفة ، غاضبة ، مثيرة ، تثرى بالحياة . لقد حدث ذلك بالطبع مع المدرسين المتعاطفين ، المهيئين للوقوف مع الطلبة ضد السلطة التعليمية ، ومستعدين لتحمل العواقب . هناك مدرسون يدركون ان الطريقة التى عليهم أن يعملوا بها ، سيئة ومملة ، ولحسن الحظ فقد بقى هناك الكثير منهم ، ومع قليل من الحظ ، فقد يتداركون الأمر وينبذون ما هو خطأ ، حتى لو فقد الطلاب أنفسهم الدافع الى ذلك .

منذ ثلاثين أو أربعين عاماً ، قام أحد النقاد بأعداد قائمة بالكتاب والشعراء الذين اعتبرهم قد صنعوا ما هو قيم فى الأدب ، ومستبعدا كل الآخرين . ودافع عن هذه القائمة بشدة ، وقد أثارت بسرعة جدلاً كبيراً ، ملايين الكلمات كتبت ، مؤيدة ومعارضة ، مع وضد ، ومازال الجدل مستمرًا بعد سنوات ، ألا يرى أحد فى هذا شيئاً محزناً وباعثاً على السخرية ؟

مثلا هناك كم هائل من كتب نقدية كثيرة من الدرجة الشسائية أو الثالثة ، كتبت حول روايات ومسرحيات وقصص ، كتبها أكاديميون في الجاهات يدرسونها ويعلمونها ، يقضون حياتهم في النقد ، ويعتبرون هذا النشاط أكثر أهمية من العمل الأصلي الذي كتب حوله ، قد يقضى طالب الأدب وقتا في قراءة النقد ونقد النقد أكثر مما يقضيه في قراءة الشعر والروايات والقصص والتراجم ، وكثيرون يعتبرون هذه الحالة أمرا طبيعية ليس محزنا وباغنا على السخرية .

قرأت منذ فترة قريبة ، مقالا حول « أنطونيو فوكليوباترة » كتبه تلميذ سيتقدم به لامتحان لنيل درجة أ ، كان المقال مملوءا بالأصالة والآثارة حول المسرحية ، وفيه كل ما يهدف لتحقيقه التدريس الحقيقي للأدب ، وقد أعاد اليه المدرس المقال بالملاحظة التالية : لا أستطيع قنحك أية درجة على هذا المقال ، فأنت لم تستشهد بأقوال الثقات من النقاد .

قليل من المدرسين يعتبرون هذا القول محزنا وباعثا على السخرية .

الناس الذين يعتبرون أنفسهم مثقفين ، وأكثر رقيا ممن لا يقرءون ، يأتون الى الكاتب مهئين لأن نقدا جيدا كتب حول كتابه في مكان ما ، ولكنهم لا يرون ضرورة لقراءة الكتاب المعنى . وحين يظهر كتاب في موضوع ما . ولنقل الحملة في النجوم ، يهرع العشرات من الجامعيين وأصحاب برامج التليفزيون ليطلبوا من المؤلف أن يتأني ويتحدث عن الموضوع ، وآخر ما يخطر ببالهم أن يقرءوا الكتاب .

هذا التصرف يعتبر عاديا تماما وليس باعشا على السخرية على الإطلاق . أو حين يكتب شاب حديث السن ، مراحخ أو ناقد ، ربما لم يقرأ أكثر من العمل الذي يعرضه ، يكتب بعجرفة وكأنه سيعطي الكاتب درجة عن عمله ، وقد يكون هذا الكاتب يمارس الكتابة منذ عشرين أو ثلاثين سنة ، وبدأ في توجيه النصائح والارشادات لهذا الكاتب . . وكيف يكتب . . لا أحد يرى في هذا نوعا من العبث ، خاصة هذا الكاتب الشاب الذي تعلم أن يضع كل كاتب في خانة معينة منذ شيكسبير حتى الآن .

أو كما حدث في العيد المئوي لشيللي ، حيث كتب ثلاثة شبان ، ثلاثة مقالات في ثلاث هوريات أدبية مختلفة في أسبوع واحد ، شبان ذوو تعليم متشابه . خريجون من جامعاتنا المتطابقة ، يلعنون شيللي بمدح باهت ، وصيغة متشابهة وكأنهم يتفضلون عليه بأن كتبوا عنه وذكروه ، لا شيء يرى أن هذه إشارة أن هناك كثيرا من الخطأ وبشكل خطير في نظامنا الأدبي .

فى النهاية ، فان رواية المفكرة الذهبية ، تشكل لمؤلفتها تجربة بناء مهمة . مثلاً ، بعد عشر سنوات من كتابتها وصلتني فى أسبوع واحد ثلاث رسائل من ثلاثة أشخاص أذكىاء ، منقفين ، مهتمين ، تحملوا مشقة الجلوس والكتابة الى . أحدهم فى جوهانسبرج والآخر فى سان فرانسيسكو والثالث فى بودابست ، وأنا أجلس هنا فى لندن لأقرأهم فى الوقت نفسه ، أو رسالة وراء أخرى ، شاكرة للكتاب وسعيدة بأن ما كتبته يمكن أن يثير وينير أو حتى يزعج .

رسالة كاملة منها ، كانت كلها حول حرب الجنس . حول لا انسانية الرجل تجاه المرأة ، ولا انسانية المرأة تجاه الرجل ، وقد كتبت صاحبيتها صفحات وصفحات عن هذا الموضوع ولا شئ غيره ، لأنها - وليس دائماً - لم تستطع أن ترى فى الكتاب أى شئ آخر .

الرسالة الثانية كانت حول السياسة ، من المحتمل ان كاتبها أو كاتبها كان شيوعياً قديماً مثلى ، والرسالة صفحات عديدة عن السياسة ولا ذكر لأى موضوع آخر .

والخطاب الثالث ، لا أدرى اذا كان كاتبة رجلاً أو امرأة ، لم ير فى الكتاب شيئاً سوى المرض العقلى .

والثلاثة يتحدثون عن الكتاب نفسه .

من الطبيعى أن تعيد هذه الأحداث الى الذهن الأسئلة حول كيفية رؤية الناس للكتاب الذى يقرءونه ، ولماذا يرى شخص ما نموذجاً معيناً ولا شئ آخر فى الكتاب نفسه ، وكم هو غريب أن يكون لدى المؤلف صورة واضحة لهذه الرؤى المختلفة لكتابه باختلاف قراء هذا الكتاب .

ومن هذا التفكير خرجت بنتيجة : انه ليس فقط طفولياً من الكاتب أن يطلب من القارئ أن يرى ما يراه فى كتابه ، أو أن يفهم شكل أو هدف الرواية كما يراه هو - بل ان مطلبه هذا يوضح أنه لم يفهم أهم نقطة أساسية ، وهى أن الكتاب كائن حى وقرى ومتمم ، وقادر على أن يتير الجدل ويرقى الفكر ، وذلك فقط حين يكون شكله وقصده وخطته ليست واضحة تماماً ، وفى اللحظة التى يتضح فيها الشكل والقصد والخطه ، فلا يوجد بعد ذلك ما يمكن أن يستخلص منه .

وحين يكون نمط الكتاب وشكله وحياته الداخلية واضحة وسهلة للقارئ كما هو للكاتب ، اذن فقد حان الوقت لأن نلقى بالكتاب جانباً ، فقد استنفد وقته ، وعليك أن تبدأ ثانية فى شئ جديد .

واستشهدت شهرزاد حكيها • • واستمرت في الحديث وأصغى الملك وحرار • •

مقال في الرواية الجديدة

فيليب ستييفك

« النهايات مراوغة ، وما بين البداية والنهاية مجهول ، لكن الأسوأ أن تبدأ • أن تبدأ • أن تبدأ » • وهكذا يكتب « بارثيلم Barthelme متعاطفا مع « ادجار » إحدى الشخصيات الروائية التي يشاركها مشاكل معينة • وكلنا نشارك ادجار المشاكل • هل من الممكن الحديث عن الرواية ، التي تصدمنا لكونها رواية جديدة أو تجريبية ، دون بناء صرح ضخم يحاول أن يبحث في هذا الفن الروائي من جميع نواحيه ؟ ودون النظر الى طبيعة عصرنا وحيويته وظروفه ؟

لنبدأ دون أية فرضيات عن الحياة في عصرنا ، فقد يقول البعض ان عالمنا معقد لدرجة أن أى شىء نقوله عنه يبدو صحيحا • لكن بالنسبة لطبيعة الرواية الآن ، فقد يكفي أن نشير الى فرضين بسيطين •

ادعى ليونيل تريلنج في مقال حديث في مجلة كومنتري Commentary أن دوافع السرد الروائي ذاتها قد أصبحت مستهلكة ، واننا لم نعد نقص القصص على بعضنا البعض ، لم نعد نؤمن بالقصص ، ولم نعد نختارها كعربة تحمل مشاعرنا العميقة ، ببساطة لم نعد نهتم بالسرد الروائي •

ومن ناحية أخرى ، فإن انتونى بيرجز في كتابه « الرواية الآن The Novel Now » الذي تتبع فيه الرواية منذ عمالقتها العظام الذين وضعوا بذور الحداثة في هذا القرن ، وأراد لكتابته أن يكون شاملا وموسوعيا دون التفرقة بين اتجاه وآخر، يبدو مذهلا في حجم ما استعرضه من روائيين ، فقد بدا له أن هناك مثلين من كتاب الرواية متميزون ويستحقون المناقشة • ويدرك المرء ، في الواقع ، أن أى انسان بخلفية ثقافية غير خلفيته ، وبتجربة قراءة مختلفة عنه ، وحساسية مختلفة ،

وواسع الاطلاع ، يمكنه أن يضيف الى قائمته مئة آخرين من كتاب الرواية ، جميعهم متميزون وجادون ويستحقون أخذهم فى الاعتبار .

يبدو لي مقال « تريلنج » من أقل المقالات التى كتبها اقناعا ، وهو المرحلة الأخيرة قبل انسحاب تريلنج الارادى والمسبب من تيار المعاصرة . لأن عقلا ممتازا كعقله ، الذى وضعه فى موقع المتمرّد على السرد الروائى المعاصر ، بدأ سباجا فى انتحاله الأعذار لأرائه ، وكان أحد الأسباب التى دفعتنا لفهم الرواية المعاصرة بالطريقة التى فهمناها بها . أن عداء تريلنج للمعاصرة قاده الى افتراض بأننا يمكن أن نتكيف مع سياق روائى مختلف . هناك شىء رئيسى قلبه تغير فى تفوق ومركزية الدافع الروائى والقابلية السردية فى السنوات العشر الأخيرة . وليحدد لنا مقال تريلنج الفرضية الأولى لموضوعنا :

ان الفرق بين بارثيلم وكاترين مانسفيلد ، بين بنشون Pynchon ، وارنست همنجواى ، ليس فرقا فى تاريخية المكان ، أو فى الاسلوب أو التكنيك ، أو الموضوع أو النغمة أو الصيغة ، برغم أنه يشتمل على كل ذلك . لكنه فرق يمتد الى جذور الفعل الروائى نفسه ، ماذا يعنى للكاتب أن يحكى أو يقص ؟ وماذا تعنى الكتابة الروائية للروائى نفسه ؟

ولندع شمولية بيرجز تقودنا الى الفرضية الثانية :

ان عددا من الكتاب المدهشين ، الممتازين ، ذوى المهارات العالية ، الذين يعتنقون تقاليد مختلفة بشكل كبير حول طبيعة الفن الروائى . . يزددهرون فى الوقت الحاضر ، وتزدهر بجانبهم بعض الكتابات الجادة والمؤثرة حول المصادر التقنية لبلازاك وثرولوب ، وأى شىء تقوله عن أى اتجاه أو مدرسة فى الجسد الهائل للرواية المعاصرة ، يبدو جزئيا وقاصرا على أن يكون حكما مطلقا ، لأى شخص ذى عقل متفتح .

الرواية الأولى لبارثيلم « حياة المدينة » تبدأ بالشكل التالى :
« كان شخص ارستقراطى يقود عربته فى الشارع . وداس أبى .
بعد الجنائز عدت الى المدينة . كنت أحاول أن أفكر فى سبب وفاة أبى ،
ثم تذكرت : لقد داسته بعربة . »

رواية قصيرة لريتشارد براوتيجان Richard Brautigan عنوانها :

« طائرة لوس أنجلوس من الحرب الأولى » تبدأ بالشكل التالى :

« وجدوه ميتا قرب جهاز التليفزيون على أرضية الغرفة الأمامية في بيت صغير مستأجر في لوس أنجلوس . ذهبت زوجتي الى المتجر لتحضر بعض الآيس كريم . كان الوقت في المساء المبكر ، والمبجر يبعد عدة بنايات عن البيت ، انتابتنا رغبة لتناول الآيس كريم . دق جرس التليفون ، كان أخوها الذي قل ان أباه مات بعد ظهر ذلك اليوم » .

أما « بروبرت كوفر Robert Coover » فيبدأ روايته « حادث لعابر سبيل » على الشكل التالي :

« ما أن نزل « بول » عن الرصيف حتى صدمته عربة لوري لم يعرف في البداية ما الذي صدمه ، ولكن الآن ، وهو مستلق على ظهره تحت العربة ، لم يعد هناك شك . هل هو هذا المستلقي على الأرض ؟ تعجب . هل أنا الذي أصبحت في هذا الوضع ! » .

من الواضح أن هناك صفات معينة مشتركة في الطريقة والصوت والحساسية ، في البدايات الثلاث . ببساطة غير عادية ، سواء أكانت أصيلة أم مفتعلة ، ايقاع نثرى مشترك نابع من عدم الاستعداد لجعله أقل أهمية أو لتعقيده حتى لا يؤثر على صفة البساطة تلك ، استعداد لمواجهة بعض محن الحياة ، وهنا الألم والحادثة والموت والحداد ، ولكن استثمار هذه المحن بوسيلة غريبة ومرعبة ، ومعالجتها بطريقة ذكية أو قاسية أو بخفة ، تذكرنا بالمواقف في الكوميديا المرتجلة (ثم تذكرت ، رغبتنا في تناول الآيس كريم . هل هو أنا ؟) كل ذلك في مواجهة هشاشة سريعة التأثير مختلفة تماما عن الصلابة الكلاسيكية ، أو المعرفة والسخرية في الكتابات الروائية الحداثية المسيطرة . وكم هو غريب تأثير صفات هذا « الصوت » علينا ، برغم معرفتنا حتى قبل أن يأخذ البناء الروائي شكله في أذهاننا . ان من يتحدث إلينا هو خيال روائي فيما بعد جويس ، وأنه نابع من عصرنا ، ثم ان مسرح أحداث الروايات الثلاث بنغماتها ، يختلف عن أي شيء اعتدناه من ديستوففسكي الى جيد وفوكنر . وأخيرا ، فان ما يجمع الأعمال الثلاثة هو نوع الحادثة ، موت وحادثة عنيفة ، تقود الى أو تفسر أو تبرر أو توضع في سياق ، المهم أنها قيلت ببساطة . انه هذا البرود ، البداية المرضية (من المرض) ، فالبدايات الثلاث تصدم معظمنا ، وهي لا تبدو تجريبية بوجه خاص بالمعنى الذي نستخدم فيه كلمة تجريبية في الفنون ، وتركيبها اللغوي تقليدي ، تتبع الكلمات بعضها البعض على الصفحة بطريقة عادية . تبدو البدايات صادمة لأنها أكثر من انتهاك بسيط للتقاليد ، انها تشويش للمعرفة ، والتشابه الواضح الذي يخطر على ذهنهم هو بداية كافكا العظيمة « المسخ » : « حين استيقظ » جريجور ساما « ذات صباح ، بعد أحلام مزعجة ، وجد نفسه قد تحول في سريره

الى حشرة ضخمة » . والاختلاف بين البدايات الثلاث ، واضح كالتشابه بينها . فبارتيلم يستغل ولعه العبنى السابق بالكتب ، والالتواء الذى يتواصل فى نثره لاستخدامه نقوشا قديمة فى نصوص أعماله الحديثة ، بينما « براوتيجان » يفرض على التفاصيل العادية لولاية كاليفورنيا شروطا مؤبرة وساذجة فى النص ، بينما يتلاعب كوفر فيما يشعر به المرء فى لحظات الألم العميق وبين ما يعتقد المرء أنه ينبغى أن يشعر به فى هذه اللحظات . بين الكلام الذى يؤثر فى المرء بشدة لكنه يبدو كالكليشيه ، والكلام الشكلى ومع ذلك يبدو كأنه صرخة وجودية .

ويملاحظة الاختلاف بين الروايات ، يمكننا أن نفترض ما اعتقد أنه حقيقى ، وهو أن ما لدينا الآن فى مجال الرواية ليس حركة جديدة ولا مدرسة جديدة أو جماعة جديدة أو تيارا جديدا أو ادعاء موحدا لأى شىء ، ولا رد فعل لأى شىء ولا مؤامرة أيضا .

ومن ناحية أخرى ، يمكننا أن نفترض ، من التشابه بين الروايات ، ما اعتقد أنه حقيقى أيضا ، وهو أن هناك بعض السمات المشتركة لكتاب الرواية غير التقليدية ، احساسا عاما بما ليسوا هم جزءا منه ، حماسة مشتركة ومميزات معينة مشتركة فى التقنية والصوت . وهذا التشابه والاختلاف يشير الى السبب الذى جعل ما لدينا من نقد وصفى قليلا جدا لا يكاد يعتد به ، والذى يمكن أن يساعدنا فى فهم الرواية غير التقليدية المعاصرة .

كل الاتجاهات الأدبية التى ظهرت فى المئة والخمسين عاما الماضية ، كانت محاطة عموما بمظاهر الصراع الاجتماعى (انظر الى عنوان كتاب سبندر « الصراع من أجل الحداثة » هذا المعنى موجود منذ وردزورث على الأقل ، وفى عصرنا فان الفن يعتبر قوة مضادة فى صراع مع بلادة وسخافة العصر) . وبصيغ كلامية دفاعية توضح شرعية الفن الحديث ، كل جيل من الشعراء - منذ وردزورث - يزعم أنه يتكلم لغة العصر وهو بذلك على خلاف مع أسلافه ، كل جيل من الروائيين يزعم أن صلته بالواقع تنفكر لكل واقعية أسلافه ، هذه المناورات الدفاعية بدت مضخمة ، حتى لم يعد يدهشك أن يقول أحد القراء ان « التقليد والموهبة الفردية » واضح وضوح « الأرض الخراب » ، وأنه يستمتع بمقدمات برنارد شو أكثر من مسرحياته نفسها ، وأن هناك نظرية واحدة هى الدوامية (أسلوب فنى قائم على التسكيبية وعلى ما ينتظر من دوامات هدامة اجتماعية وفكرية ، فى المستقبل) ، دون أن يستطيع ذكر عمل أدبى واحد ينتمى اليها . ومع ذلك لا يوجد فى الرواية المعاصرة غير التقليدية كثير من الصراع الاجتماعى .

وكتاب مثل هيلر Heller وبارت Barth وفونيجت Vonnegut قد نفخ فيهم لدرجة كبيرة ، ولم يعد هناك وجود للبيانات الأدبية والمقدمات الجدلية والوقفات الدفاعية التي كانت عامة في الماضي ، ولم تعد هناك فدوة نسير اليها ، منذ انتهاء الفترة الرومانسية ، حيث كان الكتاب أنفسهم يتحدثون عن بعض الأخطاء التي ارتكبها أسلافهم ، وكيف يأملون أن يتفوقوا عليها ، ولماذا ينبغي أن نقرأ أعمالهم .

في غياب البيانات الفنية للكتاب أنفسهم ، يمكننا رسم خريطة لمساحات الترابط في التاريخ الأدبي بطرق عدة . واحد هذه الطرق بتحديد شخصية آمرة ساحرة ، تبدو أنها سيطرت على فن عصرها ، والاعتماد على سيطرة هذه الشخصية بتزويدنا بمركز هذا الترابط .

نعرف عصر بوب Pope مثلاً ، بتعريف عبقرية بوب وطبيعة سيطرة نموذج على العصر . ولقد فهمنا روايات الشباب العنيد الأمريكية لأنهم ثبتوا همنجواي كأصل لمدرستهم ومركز لها .

ويمكننا أن نخمن من القطع الثلاث التي استشهدنا بها ، بأنه برغم أن الكتاب الثلاثة يشتركون في بعض السمات مع - بيكيت وكافكا وسيلين ونائينال ويست أو من كتاب أسبق مثل ستيرن وراييليه - إلا أنه لا يوجد زعيم لهم أو رائد لمدرستهم .

وهناك طريقة أخرى للبحث عن الترابط ، وهي اكتشاف أيديولوجية مشتركة بينهم . فحركة أوكسفورد تعرف بما يعتقد أعضاؤها ، وحتى عادتنا في تقسيم الكتاب حسب العقود والأجيال منبثقة من فكرة أنهم يشتركون في عالم وعصر ذي طبيعة واحدة . من الأمثلة الثلاثة السابقة لا نستطيع أن نتأكد من الأيديولوجية التي تجمع بارثيلم وكوفر مثلاً ، وقد تعنى الكلمة شيئاً لبراوتيجان ، ولكن على أية حال لو أردنا تعريف الترابط الأدبي بين الكتاب عن طريق إيجاد أيديولوجية مشتركة فلا يبدو أننا سنخرج بنتيجة .

مازالت هناك طريقة أخرى لتحديد الترابط الأدبي بين الكتاب المعاصرين وهي النظرية الجمالية ، فنقول ان هناك حركة ما أو مدرسة حين نشير الى جمهور متلاحم ، أو الى مجموعة من الدوريات أو الناشرين تستجيب بصفة خاصة الى نوع معين من الفن . فجماعة « الكتاب الأصفر » ، والمشاركون فيها وجمهورها كلهم مترابطون كوحدة واحدة . وحين نريد أن نفهم « حركة الإصلاح الجنوبية » أو « حركة النقد الجديد » ندرس

مجالاتها مثل « سيوانى » و « كينيون ريفيو » ففيها نظريتهم الجمالية وثقافتهم .

لكن لا يوجد أى ترابط وسط أمثلتنا الثلاثة ، باختصار ان كل ما يلزمنا لكي نعرف أو نحدد اتجاهها فى تاريخ أى فن ، ناظرين لما سبقه وما تلاه ، يتكسر فى وجه هؤلاء الثلاثة ، الذين يمكن أن نطلق عليهم « غير تقليديين » وروائيين ومتفردين بدرجة كبيرة . من ناحية أخرى ، فان المراسلات بين الروائيين أنفسهم والاختلافات التى بينهم تشير لماذا لا نفهم الرواية الجديدة الا قليلا .

فتعبير « ما بعد الحداثة » أجده تعبيراً مزعجاً ولا يساعدنا على الفهم . ومع ذلك فمن الصحيح أن الرواية المعاصرة لم تعد قادرة على تكييف نفسها تبعاً لعلاقاتها الخاصة بسيادة الحداثة ، وأن عدم التواصل هذا مع أقطاب الحداثة هو إحدى الصفات القليلة التى تفرق الرواية الجديدة ولا توحيدها (لقد زعم ايهاب حسن أن الرأس الأكبر لرواية ما بعد الحداثة وهى رواية جيمس جويس « فينجازويك » ويبدو لى هذا أمراً غريباً وتشويهاً لا يساعدنا على فهم الرواية المعاصرة) . ومع ذلك ، فمعظم النقد مازال يعتبر أن فن العصر ، فن القرن العشرين ، هو الرواية . ان الاهتمام المهني بجويس لا يمنع الاهتمام المهني بكوفر مثلاً ، لكن فى الواقع فان كلا منهما يمنع الاهتمام بالآخر ، وهى حقيقة ليست مدهشة ، لو عرفنا أن الفارق الزمنى بين كوفر وجويس يعادل الفارق الزمنى بين جويس وجورج اليوت ، فكل منهما من عصر مختلف ، وما تخبرنا به كل صفحة من صفحات رواية معاصرة تفيد بأنها من عصر غير عصر سيادة الحداثة ، والأدهى من ذلك أن التصور العام لم يعلم بعد بهذا التحول .

مر وقت كانت نوعية الفهم الجماهيرى الذى نفتقده الآن ، يحدده رجال الأدب ، وكما أشار « جون جروس » بحق ان رجل الأدب قد سقط ، فشخصيات مثل هنلى وسانتسبرى وميدلتون مورى أو أكثر حداثة كادموند ويلسون لا يرجع أن يظهر مثلها فى عصرنا ، لتعمل كوسيط بين الفن الجديد وجمهوره القلق بالطريقة التى قام بها أولئك القدماء . وحتى لو وجد أمثال هؤلاء ، فسيجدون أن المهمة صعبة ، حيث ان الرواية الجديدة تميل الى السخرية والهز والتخريب لكل محاولة تقليدية فى التفسير النقدى لنفسها . وهكذا فان الفن السردى المعاصر (ما عدا الرواية الفرنسية الجديدة التى تجد دائماً التبريرات لنفسها) بدأ يضع أسساً جديدة ، لامكانات السرد ، فى وقت لا يتوقع فيه جمهور الرواية ، أو يرغب أن يسعى أى انسان لتشكيل ذوقه وتحديد استجابته فى الوقت الذى اتجه

فيه المفسرون والنقاد القادرون لتفسير ودراسة الفن الحديث ، الحدائق
التي مضى عليها أكثر من نصف قرن .

وأخيرا ، فنحن نفهم القليل عن الفن المعاصر ، مثل فن بارتيلم
وبراوتيجان وكوفر لأن طريفتنا في الفهم النقدي قد سبوت واصعبت
بمادة من الاستعارات نلتصق بها بلزوجة قاهرة ، وهي الاستعارات
العضوية التي نصف بها ميلاد ، ونمو ، وموت الرواية . ونحن حين
نستعمل الاستعارات العضوية للتعبير عن ازدهار واحلال النوع الادبي ،
نظاير بأن ذلك لا يعود لأسباب معقدة تحتاج الى بحث ، لأن الأنواع
الادبية تحتوى داخل نفسها على حيويته الخاصة . والاكثر من ذلك ان
هذه الاستعارات العضوية منحازة بشكل كبير . فاذا كانت الرواية
أو القصيدة القصيرة كنوع أدبي يمكن مقارنته بالجسم البشري ، اذن فهي
تحتوى على عناصر حياتها الخاصة ، وبالتالي تكون مهددة بعناصر محايدة
خارجة عنها ، كالروايات النثرية التي لا تتطابق ولا تتشابه مع الشروط
التي نعرف بها الرواية التي تشكل هذا الجسد . لقد وصف وليام بارك
William Park استخدام مؤرخي الرواية الأوائل الاستعارة العضوية في
حديثهم عن الرواد والمؤسسين والأنواع الروائية بحيث انه في الوقت
الذي كتب فيه أرنست بيكر Ernest Bark كتابه « تاريخ الرواية
الانجليزية سنة ١٩٢٤ » كان الاسراف في الحديث عن نمو وتطور وفروع
وجنور وسيقان وجنوع الرواية بلغ مداه بحيث يمكن أن يفرض المرء
أن الرواية ما هي الا حديقة نباتية ، وأصبح ذلك كقضية مسلم بها كما
هي الآن عند الكتاب المعاصرين الذين يستمرون باستخدام هذه الاستعارة
التطورية . وقد لاحظ تومبكين Tompkin انه منذ أواخر القرن الثامن عشر
ودعاوى موت جسم الرواية تتصاعد ، فاذا كانت الرواية تحتضر لمدة
قرنين من الزمان فهناك شيء ما خطأ . . ليس في الرواية بالطبع ولكن
في الاستعارة التي نطلقها عليها . وقد أحبطت مناقشات كثيرة جادة حول
الرواية بسبب الأحاديث الفارغة حول أشكال ميتة ، ان الرواية الجديدة
في العشرين سنة الأخيرة تستحق الاهتمام والعناية . بمصطلحاتها ذاتها ،
وليس لأن نوعا أدبيا يموت بينما يعيش نوع آخر .

واقترح طريقتين للنظر الى الرواية الجديدة : احدهما بالمقارنة
بالماضى القريب ، بقطعة من رواية جيدة لم تكتب منذ فترة طويلة ، وتتبع
اسلوبا وطريقة تختلف عن الرواية الجديدة . والاخرى بالمقارنة بشيء
أكبر وأخطر ، جماليات الرواية الجديدة في مراجعة كل الافتراضات
المنطقية الكلاسيكية للرواية منذ بداياتها .

تبدأ جين ستافورد Jean Stafford روايتها « قصة حب ويفية »
بالشكل التالى :

« مركبة جليد قديمة نقف فى الفناء • طبقات وطبقات من الشلج تراكمت
على عارضتها السفلى المتآكلة • وكانت على المقعد الأبيض المتهالك خصلات
من شعر حصان • وقطع من الجلد الأسود التى كانت يوماً جزءاً منه •
تبعت جنباتها المريحة • احساساً بالتوقف وليس الاهمال كما لو أن الخيل
المتعبة لم تعد قادرة على التقدم خطوة أخرى • وتوقفت هنا أخيراً • جاءت
المركبة مع البيت • كان المالك السابق امرأة عميلة من كاستين تشتري
البيوت القديمة وتبيعها ثانية بكل ما فيها من عيوب • قالت وهى تريحهم
المكان : « أعتقد أنها تفاصيل بدية » واستندارت الى البئر قائلة بحماسة
وهى تمط كلامها : « لم يجف الماء منها أبداً • وبالفعل وجد ماى ودانيال ان
التفاصيل تشير الانتباه أكثر مما تثير الذهن • وهى قريبة الشبه بالفنون
والحرف الخارجية » •

بالمقارنة بين الأمثلة الثلاثة للروائيين الذين اخترناهم سابقاً • وبين
جين ستافورد لا نجد أى اختلاف معين فى النوعية • ان قضايا درجات
النوعية فى الأعمال الأدبية تحتل حيزاً أقل لدى القراء والنقاد مما سبق
أن اعتادوا عليه • ولكن يتضح بدرجة كافية أن الكتاب الأربعة يسيطرون
على مادتهم • وانهم بطرقهم المختلفة روائيون موهوبون ومثقفون • الأعمال
الأربعة روايات قصيرة • والبدايات التى استشهدت بها توضح سمات
جمالية تساعدنا على المقارنة بينها • ومع ذلك فإن بداية جين ستافورد
بالمقارنة بأحدث الروايات الثلاث تبدو وكأنها من الجانب الآخر للقمر •
الاختلاف الذى يصدمننا أكثر من غيره • هو ما فعلته حين ستافورد بالزمن
وبالأشياء المادية وهو ما لم يفعله الكتاب الأكثر معاصرة •

منذ الجملة الأولى تبدأ فى تقديم حالة من الاستمرارية بعبارات مثل
« عربة جليد قديمة • طبقات من الشلج • عارضة متآكلة » وتضعنا فوراً فى
عالم من الانتظار والتوقع والتأمل والتساؤل • كل هذه التجارب التى
يتفتح فيها العقل والحساسية فى تأمل الشئ المركزى • تتغير ببطء •
فكل من الأشياء والناس يحملون معهم علامات ماضيهم • كل شئ يتحلل
ويتفسخ • وكل من الطبيعة والناس تقدم مظهراً لطقس دائى • بالاضافة
الى أن الزمن فى رواية كهذه يحمل معه دائماً تقييماً واضحاً جلياً للأمور •
فالشخصية تبين عصرها بفخر عظيم أو برثاء عظيم • وكذلك عملية تحديد
العمر • والشئ القديم يحمل معه احساسه بالقيمة المتضائلة نتيجة
لاستمرارية الاستمتاع به • ونصبح غير متأكدين • أينبغى التخلي عنه •

أم قد يكون تحفة أصلية وينبغي الاحتفاظ به ، لا شك أن دورة الطقوس
بشراء البيوت القديمة وبيعها تبعث فينا الشك وبعض الكراهية .

من الصعب القول ان أحدا يسير في الحياة وعيناه مثبتتان بهذه
الشكل على الساعة - الزمن ، قائلا لنفسه أ أكبر من ب . ولكن ب يحمل
تاريخه معه بشكل أفضل ، مثل هذا الهوس بالوقت تقليد ، لم نلاحظ
أنه تقليد متبع حين نقرأ روايات كثيرة بهذا الشكل . هناك نوع مشوه
من الزمن يستخدم في الرواية الجديدة ، يتركز بشكل خاص حول علم
اللغة ومادة الرواية والافتتان بهما . ولا يمكن مقارنته بالطبع بنوعية
الاستمرارية أو القصة الدائرية لجين ستافورد . ولو استرجعنا الكم
الهائل من الاهتمام النقدي الذي منح لفلسفة برجسون والنيكيت الخاص
بالزمن لبروست وفرجينيا وولف وجيمس جويس ، ثم نظرنا لطريقة
استخدام الزمن عند جين ستافورد كتعميم أسلوبى لأحد اهتمامات الحداثة ،
اذن لبدا أن الصفة الزمنية المؤقتة في رواية مثل رواية بارثيلم ، واللامبالاة
تجاه التغيرات البطيئة ، وقلة الاهتمام بعملية التقييم التي وضعتها ، أنها
ذات قيمة عالية . ان سلطة الزمن العليا في الرواية الجديدة ، هي ابتعاد
ملحوظ عن مجمرة التقاليد في هذا المجال وعن التكيف المعرفى الذي
تعودنا أن نفكر فيه كأساس مطلق للعمل الخيالى .

ولو عدنا الى فقرة جين ستافورد ، فسنجد أن قاعدة من العلاقات
تقوم بين حالتين مختلفتين ، وفى هذه الحالة بين الشيء الذى صنعه الانسان
وقوى العالم الطبيعى ، وقد استخدمت هذه العلاقات بشكل رمزى . ان
وظيفة العربة ان نركبها لتسير على الثلج لا أن يغطيها الثلج . ونعرف ،
منذ الجملة الأولى ان وجود العربة متوقفة دون أن تؤدي وظيفتها ، سيكون
مجالا للاستعارة المحملة بقيمة ساخرة ، مرنة ، منطلقة ، استعارة لتواجد
الانسان فى العالم . وكما هى الحال مع الزمن ، فإن تقسيمه (الانسان -
الطبيعة) كمحور لحمل معنى رمزى ، هو تقليد قديم ، لكنه يستخدم
بشكل كبير فى الرواية الحديثة مع أنه تقليد قديم لا فائدة منه ، فالمصنوع
منه والمفطور ، الأصسيل والمكتسب ، الطبيعى والزائف ، كلها تؤخذ
كمعطيات لعالم صعب لا يمكن تقسيمه ببساطة الى نصفين .

وهناك أيضا فى قصة جين ستافورد حضور الشيء نفسه ، شيء
يسحب من الخلفية ويوضع أمامنا بشكل لافت للنظر ، وهو موصوف
من وجهتى نظر ، قريبة وبعيدة ، تعطى لمسة لوهم محزن ، فالعربة صرورة
حربائية تقبل أو ترفض حسب السياق الانسانى ، وهى وسيلة بنائية
متعددة الاستعمالات ، تضم وتجمع معا عددا من المراقف المحورية للقصة

التي تتبع ذلك ، ولكن بلا شك فإن صورة العربة تستخدم لأكثر من استعمالها المجازي ، أو كحيلة بنيوية للمؤلفة وقرائها ، إنها شيء متشابك ، له حدوده الخارجية ، معقدة التركيب ، بالإضافة إلى ماضيها الخاص الذي تحمله ، ومهما كانت فائدتها للقصة ، فإنها صورة انبثقت من خيال مؤلفة مفتونة بالأشياء المادية للوجود اليومي المحسوس .

مثل هذه الصلاية في المواصفات ، تعتبر مركزية لهدف الرواية الكلاسيكية الواقعية على رأي هنري جيمس . وقد جردت وركزت بشدة في أعمال معينة في الرواية الفرنسية خاصة أعمال آلان روب جرييه . ولكن بالعودة ثانية إلى النسيج المادي للبدائيات الثلاث التي سبق أن اخترناها ، والد الراوى في رواية بارثيلم داسته عربة يقودها ارستقراطي ، براوتيجان يعطينا شيئاً أكثر « لقد وجد ميتاً قرب جهاز التليفزيون على أرضيه الغرفة الأمامية » ، وفي رواية كوفر فإن الراوى يرى ويسمع بدقة مؤلمة لكنه ليس في وضع يسمح له باهتمام أكبر بنسيج الأشياء . لا توجد في الولايات المتحدة روايات تشبه نماذج روايات آلان روب جرييه ، ولكن الاهتمام المؤثر بالأشياء ووضعها في مركز العمل الروائي أحد تقاليد الرواية الانجلو أمريكية ، وهكذا يبدو أن الرواية الجديدة — على الأقل من العينات التي عرفناها — قد سارت خطوة تجاه انكار الصلاية الاستقرائية للرواية الكلاسيكية ، خاصة الصفات المحملة بالقيمة وتستغل فيها الأشياء المادية من أجل إيقاع سردي قريب من الخرافي أو تقليد الرومانسيين ، يكون مقبولا في عالم مفهوم .

نقاط التناقض بين قصة جين ستافورد والرواية الجديدة ، تقريبا بلا حدود . خذ مثلاً ظاهرية الأمكنة . تبدأ قصة ستافورد في فناء أمامي ، لكن انتباهها وحيويتها تتجه ناحية البيت ، وعندما يحين الوقت ستحدث وقائع بالخارج ، لكن أكثر المشاهد العاطفية حدة تحدث داخل الغرف ، إنها ليست مكاناً مريحاً يوفر الراحة للشخصيات ، وليست مجرد نتيجة واقعية أن تكون الشخصيات من الطبقة الوسطى — العليا . أن تقضي معظم وقتها في الغرف ، هناك نوع من الهوس مرتبط بالبيت في هذا النوع من الروايات ، تذكرنا بأعمال صمويل ريتشاردسون التي فيها الأبواب والنوافذ ، الممرات والسلالم ، الأسرة والطاولات والكراسي ، لها حضورها الثقيل . وشعرت ثانية أنه مر وقت بدا لنا فيه جميعاً أن معظم الروايات تكتب بهذه الطريقة ، ومرة ثانية فإن الرواية الجديدة تقدم كسراً ملحوظاً لهذا التقليد . إنها بداية تقليدية بالفعل التي بدأ بها براوتيجان روايته بحضور ثقل للغف ، بدرجة أكثر من الروايات التي أحاول الحديث عنها ، لكن الحركة أو الفعل الذي يأخذ مجراه داخل البيوت في الرواية

الجديدة ، ليس بهدف تحديد عادية الشخصيات ، أو لتبيان تأثير وفائدة حدود المكان ، كما فى حالة جين ستافورد .

ولو اتجهنا لقضية الاسلوب ، فان الطريقة غير المحددة فى الفقرة الافتتاحية لا تحكم مواصفات عمل جين ستافورد كله فحسب ، بل هى طريقة ننسب روايات لا حصر لها فى الفترة نفسها . وسمات الاسلوب ليست فى حقيقتها غير محددة ، بل هى عند الدراسة تبدو واضحة ، خذ مثلا عبارة تستخدم فيها كلمة غامضة لو استبدلتها بكلمة دارجة لها المعنى نفسه لاتضح الأمر ، فلماذا الكلمة المبهمة ؟ أعتقد أن ذلك لسببين ، أولهما يخدم أناقة العبارة حيث المباشرة تؤثر على حساسية العبارة ، والنانى حركة من المؤلف تجاه زخرفة الجملة اشارة الى خيال يمارس سلطته على مادة القصة . ان كاتب الرواية الحديثة لا يدرك سبب غرابة أطوار الواقعية الاستقرائية بالشكل الذى هى عليه ، كل ما يعرفه ان النماذج الأسلوبية لرواية الخمسينات ، والخيال التأملى العادى ، لا يصلح له الآن .

اننا نستطيع أن نميز بين الرواية التى تبدو من كلاسيكيات الحديثة ، والرواية التجريبية التى تتبع طريقة جديدة عن طريق البنية . فى قصة جين ستافورد تتكون الأحداث من مؤثرات صورت بشكل منفتح جزئيا ، وبكلمات قاسية وسوء فهم . وأية أحداث خارجية حادة كتبت لتصوير حركة الشخصيات الأخلاقية والنفسية . وتنتهى القصة أخيرا بنوع من الفهم المتدفق كالهضبة ، الذى خدمه كل العمل الروائى . ان كلمة الظهور الحارق أو التجلى Epiphany سطحية جدا وغير دقيقة لوصف ما يحدث فى نهاية القصة . انها لحظة الاحباط المرعب والانصياع فى مواجهة المستقبل . وأية كلمة مثل « الظهور الحارق » التى تحمل بعد نظر مفاجئا ، تكون مضللة هنا ، ما زال بناء القصة فى تقاليد رواية النجلى (بمعنى ظهور أى شئ فى الرواية بشكل مفاجئ وهو تعبير استخدمه بهذا المعنى لأول مرة جيمس جويس) الذى يقول بأن الخاص والداخلى للنفس البشرية أكثر قبمة من العام والخارجى ، يؤكد الاعتقاد فى امكانية اختراق المعرفة النفسية الحسنية لتراكم الطقوس الاجتماعية وخداع النفس ، وهو اعتقاد ثابت يسمح للحدس ان يكون نقطة نهاية درامية ومبدأ بنيويا كتبرير اخلاقى للرواية .

لم يستغرق كل من بارثيلم أو براوتيجان أو كوفر ، الا جملة أو جملتين ليدركوا أنهم بعيدون جدا عن هذا الشكل الخاص بالظهور الحارق للحدس . فالثلاثة يميلون الى الاهتمام بما هو عام أكثر مما هو خاص ، بالخارجى أكثر من الداخلى ، فى النزوة والتطرف أكثر من التوسط فى

التجربة • لا شيء فى بدايات الروايات الثلاث يشير الى خلق الشروط
التي تمكن من استخدام الظواهر الحارقة ، ولا احد من الثلاثة ابداً ادنى
اهتمام بالحس الداخلى أو الحدس ، ولا حتى كثير ايمان بوجود مثل هذه
الأشياء • وهكذا فنحن لا نحتاج القراءة حتى نهاية الروايات الثلاث لنندرك
أن بناءها متناقض مع الرواية الحداثيّة التفليدية خاصة الرواية القصيرة
التي كتبها الجيل السابق •

ومن الصعب القول ما المبادئ البنائية التي أقيمت عليها الروايات
الثلاث • وربما أفضل طريقة للاقتراب من قضية البنية هو حذف كلمة
بنية نهائياً ، فكلمة بنية تحمل معها ، سواء أردنا أم لم نرد ، دلالات
الاقتضائ ، والتناقض والتناظر ، والتناسب المحسوب والشكل العضوي •
ومعظمنا يمكنه استخدام أى من هذه الدلالات لتتوافق مع دلالات أية
رواية حداثيّة معروفة ، وبالنسبة لقصة ستافورد يمكن أن نقيم نظاماً
تحليلياً لما تعنيه كل حادثة ، كل صورة ، كل كلمة ، ومبادئها الجمالية
المشتقة من العمل نفسه • لا اعتقد أن ذلك مناسب للأمثلة الثلاثة ،
ولا اعتقد أن تلك الطريقة ستقودنا الى أى شيء •

تقول إحدى الشخصيات فى رواية بارثيلم الشهيرة « سنووايت » :
« نحن نحب الكتب التي فيها كثير من الأشياء التافهة ، مادتها تقدم نفسها
بطريقة غير لائقة كلياً ، طريقة فيها عناية كبيرة بتقديم معنى لما يجرى ،
معنى لا نأخذه بالقراءة بين السطور (لأنه لا يوجد بين السطور إلا المسافات
البيضاء) ولكن بقراءة السطور نفسها ، بالنظر اليها والوصول الى
شعور قريب من الاشباع ، فذلك هو أكثر ما نتوقعه » •

الأمثلة الثلاثة للرواية الجديدة تقدم لنا إضافة كمية أكثر منها
إضافة درامية أو دفعة للتقدم الفنى ، أن أفضل تعريف للشكل الروائى
وأقلها خلوا من التزييق هو ما قاله كينيث برك :

« الشكل فى الأدب هو ظهور الرغبة وتحقيقها ، ويشكل العمل
على أن كل جزء منه يقود القارئ ويجعله يتطلع الى الجزء الذى يليه وأن
يحس بالاشباع فى ذلك » •

هذه الرغبات الأساسية خاصة فى الروايات القصيرة تتكون من ثلاثة
أنواع : رغبة مشكّلية أو اشكالية ، ورغبة نفسية ، ورغبة متعلقة بالعرف
والثقاليد •

وتكون عندنا رغبة اشكالية حين يكون لدينا سر نريد الكشف عنه
خلال مجرى الرواية ، أو علاقة نريد ادراكها ، أو دافع نريد الكشف عنه •

حين تحل المشكلة تتحقق رغبتنا . وتكون لدينا رغبة نفسية حين نتوقع عملية ذهنية تأخذ مجراها داخل الرواية ، أو جهلا بالنفس نتتبعه لمعرفة النفس أو عداوة شخصية لنصل بعدها الى تسامع شخصي ، وحين تنتهي العملية النفسية ، وحين نعرف عن الشخصية ما توقعنا أن نعرفه ، فان رغبتنا تتحقق آنذاك .

وحيث تكون لدينا رغبة متعلقة بالعرف والتقاليد ، آنذاك نتوقع أحداثا وحيلًا ومعالجة نموذجية لهذا النوع من الروايات . قصة جين سناورد مليئة بمثل هذه التفاصيل والانجازات الخاصة بالعرف والتقاليد ، السيطرة الحاذقة على الشخصيات في تغيرها وتحولها ، تعاطف المؤلف معها أو السخرية منها ، الخفوت التدريجي في شدة النغمة . كل هذا نموذج نمطي في هذا النوع نفسه .

في رواياتنا الثلاث لا توجد رغبة اشكالية ، فكل منها بدأ بوفاة ، وميلنا الطبيعي أن نرى في الموت الروائي مشكلة تحل بالاجابة عن لماذا وأين ومن الذي قام بالقتل وبأية طريقة ، أخبرنا بارثيلم وبراو تيجان بكل ما نريد معرفته وفي الحال وبطريقة غير اشكالية بحيث لم يبق أي حب استطلاع أو فضول ، اما عند كوفر فبينما طريقة الموت تمتد بطول سير الرواية ، فلا يوجد ما نرغب في معرفته كمفتاح لفهم الموت .

ليس في الروايات الثلاث أي تفاعل بين الرغبات النفسية يمكن للقارئ أن يسلط الضوء عليها وينتظر تحقيقها ، الشخصيات مبنية بشكل متعمد للبعد عن الحياة الداخلية ، ما نعرفه عنها نجعله قطعة قطعة ، واذا حلت مشكلة فالحل يصبح مشكلة جديدة ولا نكسب شيئا .

ولا حاجة للقول ان الروايات الثلاث لا تعطينا الكثير في الشكل التقليدي اذا قلنا أن الروايات بلا شكل فهذا يبدو ازدراء غير مبرر ، والأفضل ان نضيف الى فكرة الشكل التي حددتها بيرك . . شيئا مثل الزخرف أو اتحاد المركز أو الدائرية ، التي كما أشرت في بداية الفقرة تضيف الى الكم أكثر منها الى الكيف ، بواسطة مبادئ فضفاضة موحدة ليس هدفها المضمور فرض رغبات وتحقيقها على الاطلاق .

الروايات الثلاث ، هي بطرق مختلفة ، تنويعات حول موضوع مركزي . التناظر أو التشابه في الأدب هو قطعة موسوعية عند رابيليه ، عدة صفحات من التنويعات على أو حول اسم وطبيعة قطعة سمك ، مثلا ، في التجربة التشابه الفضفاض ، هو البحث في القاموس عن كلمة ، فتجد كلمة بديلة ، فتتهتم بالاشتقاق في الكلمة الثانية وتنسى الكلمة التي

بدأت البحث عنها ، تذكرها ثانية ، وأصبحت عارفا بكلمة لها صلة بالموضوع .

في قصة « براوتيجان » كل فقرة ، بعدة عدة فقرات استهلالية ، تصبح مرقمة . ان التأثير هنا يضيف الى وهم البراعة جاعلا من الرواية شبيها بكراسة انشاء تلميذ في مدرسة . ولكن الترقيم يخلق أيضا ابهاما معيناً حول شكل العمل ، فكل فقرة تهتم بحادثة في حياة الأب المذكور في الفقرة الأولى ، وتأثير ترقيم هذه الأعمال غير المحورة والمنفصلة للأب ، يجعلها تبدو شيئا مبتكرا خاصا ، كأنها تقدم مثلاً رواية لمغامرات ثلاث بطولية قبل أن يعرض بطلها انه بطل بحق . ولكن يتضح ان هذه الفقرات المرقمة تضيف القليل القليل كلما تقدم العمل . وفي الوقت الذي ينتهي فيه المرء من القراءة يبدو له أن الراوي جمع ذكريات عشوائية ، أعطى لكل واحدة منها رقما عند حدوثها ، ثم وضعها بجانب بعضها حسب الترتيب الذي قرره لها ، وقد حدثت الأحداث بالتأكيد بنوع من التتابع التاريخي المعروف وأعيد ترتيبها ، ولكن ليس هناك سبب يدعو الأب أن يبدأ موظفا في بنك وينتهي « سايسا » في موقف بعد ذلك ، يتشابه كل من عمل كوفر وبارثيلم من هذه الناحية : فكلاهما يشارك براوتيجان الشكل الذي تتراكم فيه الصور والأحداث بقوة كبيرة ، لكنها ، لا تخضع لترتيب يثبت أو يظهر فكرة ما أو ما شابه لاشباع التوقعات واطلاق التوتر الذي تولد في بداية العمل .

اذن ، من الممكن أن « نلخبط » النشر بحرية أكبر من أي شيء آخر في الرواية الجديدة دون أن نخبر الكثير .

المشروع القديمة عن الفن الطبيعي التي اعتمدت على الدادائيين والمستقبلين الايطاليين كمحاولة لا منتمية ومزيجة لانتهاك التقاليد السابقة ، وتسفيه الذوق ، وصدى البرجوازية . . ليس لها مجال هنا في الرواية الجديدة . ما لدينا هو جسد روائي ، سهل الفهم تماما ، ولا يصدى بشكل حاد ، ولكنه يضرب بشكل مختلف عن الرواية المعتادة للحدثين المتأخرين .

لقد سرنا شوطا يمكننا أن نقرر ما نقوله وما لا نقوله بشكل عام ، نظريا ومنهجيا حول الرواية التجريبية المعاصرة .

في مقال بديع نشره ريتشارد واسون Richard Wasson في مجلة بارثيزان ريفيو ، « يقول فيه انه يرى أن أكثر ما يميز الخيال الحديث هو

استخدامه للأسطورة دون أى اعتقاد معين ، كبنية تنظم الأعمال الأدبية وكصيغة للادراك وحتى للرؤية ، التى تزود الذات القلقة بنظام يتفوق على الفردية ، بادئا بتطبيق ذلك على أعمال ايريس ميردوخ ، وروب جرييه وبينشون وبارث ، واصفا الوضع المضاد لما بعد الحداثة ، الذى يصوب خصومته تماما على المركز الأسطوري لجماليات الحداثة . فى رواية « نهاية الطريق » لبارث صور الولع بالأسطورة فى الرواية الحديثة ، بصورة ساخرة على شكل مزرعة يعاد حشدها بين حين وآخر بأناس يتعالجون عن طريق الأسطورة ، وفيها يستسلم « جاكوب هورنر » الى طبيبه المعالج . ان ما حققه « بارث » فى روايته هذه هو عكس « الترياق » لحجة الأسطورة الباطلة ، وكما يقول واسون : « ان الروائي هنا واع بتصنيعه وعدم كماله وبعبئه الجزئى أمام الواقعية . ان العلاج بالأسطورة يحاول أن يدخل بالقوة العالم كله داخل الذات ، والذات داخل العالم ، لجعل كل شيء فى العالم تابعاً لدrama الذات ، ان الفن التشكيلي الأسطوري ينقلب بسخرية على نفسه ، ليدرك الاختلاف الغامض الذى يفصل بين الذات والآخر ، الزائف والواقعي » .

لا يوجد ما يرغم الآخرين على الامتثال لرأى واسون ، انه رأى محدود جدا ، سواء بتعريفه لموضوعه ، الذى هو الرواية المعاصرة ، أو بعرضه منهجا أو نظرية حول الموضوع ، انها ، جزئيا ، ليست غلطته ، ولكنها نتيجة للكتابة عن شيء مازال فى طور التكوين ، فبارث وبينشون ما زالا يكتبان الروايات ، وتزداد أعمالهما عاما اثر عام ، وكل عمل يبدو مختلفا قليلا عما سبقه ، فبعض ما قاله واسون ينطبق على أى روائي يصدمنا بأنه غير تقليدى (ملاحظته حول الاهتمام القليل بدrama الذات تبدو لى أكثر ما يبقى منه) ولكن اذا كان وضع رواية بارث نهاية الطريق ، وجماليات نهاية الاسطورة ، فى مركز اهتمام الرواية المعاصرة ، فانه يصعب علينا تطبيق ذلك على رواية كوفر « رابطة الباسبول العالمية » التى ليست اسطورية بل وتقاوم التفسير الاسطوري ، أو رواية جاس Gass « حظ قارئة الكف » أو رواية جاردنر Gardner « جريندل » وكل منهما تختلف عن الأخرى تماما ، ومع ذلك اسطورية بشكل ما ، وتقول جويس كارول أوتس فى مقابلة معها ، عن عزمها على إعادة كتابة عدد من الروايات الكلاسيكية - مشروع أقرب الى أعمال بورخس - بمفهومها الخاص ، تكون حدائية جدا واسطورية تماما . وحتى بارث نفسه حطم الاسطورة فى كتاب واحد ، وأعاد احيائها فى العديد من التخيلات فى رواية « ضائع فى بيت المتعة » .

يقال أحيانا ، فيليب روث مثلا في مقاله « كتابة الرواية الأمريكية » ان الرواية المعاصرة تتصف بالعصبية وغرابة الأطوار ، خاصة في استجابتها الى نوعية الحياة الأمريكية الغريبة في العقود الأخيرة ، ملقيا باللوم على تطرف الرواية المعاصرة وعدم استمراريتها ، على تطرف الواقع الاجتماعي الذي لا يساعدنا كثيرا يقول :

« ان الروائي الأمريكي في النصف الثاني من القرن العشرين ، قد غلب عليه أمره ، في محاولة للفهم والوصف ثم ابداع عمل معقول يعبر عن الواقع الأمريكي ، انه واقع يمرض ويذهل ويغيظ ، ويشكل نوعا من الحيرة لخيال المرء الضئيل ، فالواقع الفعلي يتغلب دوما على موهبة الكاتب ، والحضارة الأمريكية ، تقذف كل يوم ، تقريبا بشخصيات يحسدها عليها أي روائي ، من مثلا يمكن أن يبتدع شخصيات مثل شارلز فان دورين ، أو روى كوهين ، أو ديفيد شاين ، أو شيرمان آدمز ، أو برنارد جولدفن أو حتى ادوايت ايزنهاور » .

من هذه الأسماء ، يدرك المرء حين يتقدم في قراءة المقال انها قد كتبت في الستينات عن الخمسينات ، وفي ذلك الوقت كانت تجاربنا القومية غريبة الأطوار ، اضطرت كتابنا للاستجابة بكتب أكثر غرابة .

حتما ، هذه الأقوال ، من روث ومن غيره التي تبحث عن قضية تاريخية ، تشير الى نقص في الادراك التاريخي ، منهش الأبعاد .

هل هؤلاء الذين يتحدثون بهذه الطريقة يعرفون حقيقة ان حياة الشوارع في المدن الأمريكية أكثر شذوذا من حياة الشوارع في لندن الفيكتورية ؟ أم أن الشخصية العامة في واشنطن اليوم أكثر فسادا من المهرجين الذين كانوا يحيطون ادارة هاردنج مثلا ؟ أم أن الأخبار في جريدة يومية أكثر هستيرية مما كانت عليه خلال حياة ولبيم راندولف هيرست ؟ قد تكون الرواية الجديدة أكثر استجابة الى الشاذ والمنحرف وغير الواقعي في المجتمع الحالي مما كانت عليه الروايات السابقة . ولكن لا يمكن أن نقول ببساطة ان الزيادة في كمية الجنون هي السبب في جدة الرواية المعاصرة .

وبدلا من محاولة تفسير الرواية الجديدة بطريق الوقائع الاجتماعية ، وبدلا من البحث في الرواية الجديدة عن اشارات لحساسية جديدة كما فعل وأسون ، فان نقادا قلائل ، من أبرزهم ، سوزان سونثاج ، تحاول تعريف الحساسية الجديدة في الثقافة العالمية على نطاق واسع ، هذه الحساسية تستجيب لها بعض أعمال الرواية الجديدة .

تقول : « ان الملمح الأساسي للحساسية الجديدة هو أن انناجها النموذجي ليس العمل الأدبي وعلى رأسه الرواية . فهناك ثقافة غير أدبية توجد اليوم ، وكثير من المثقفين لا يعون وجودها ولا أقول معناها ، هذه المؤسسة الثقافية الجديدة تضم رسامين ونحاتين ، مخططين اجتماعيين ، ومنتجي أفلام وفنسي تليفزيون وأطباء وموسيقيين ومهندسين الكترونيين وراقصين وفلاسفة وعلماء اجتماع - ويمكن أن نضع وسطهم قليلا من الشعراء وكتاب النشر » .

أجد من الصعب أن آخذ هذا الرأي بجدية ، يحتاج المرء للغوص في مناطق مختلفة ليختار ، وهناك التعارض المحسوب بين كل هؤلاء ، وفي محاولة لكسب التأييد الى فكرتها تقول بأن التفسيرات الثقافية القديمة لا تسعفنا الآن . ان سرد هذه السلسلة الطويلة هي محاولة لجعل الأمور بالنسبة لرجل الأدب كما هي في الماوماو على حد تعبير توم وولف .

ان هذه القطعة تؤكد أن المرء يجد النغمة التي تميز العصر في وسائل متنوعة ، ويتردد في تحديد النغمة المسيطرة ، بالاقتناع ذاته . الذي كنا نفعله في السابق . وبهذا الوضع من الصعب أن نتشاجر .

ان فكرة أن الرواية النثرية ظاهرة على هامش التحول العالمي ، وأنه اذا أردنا أن نفهم هذا التحول يجب أن نقبل بهامشية الأدب ونصغي الى ما يحاول فنيو التليفزيون وأطباء الأعصاب قوله لنا ، مثل هذه الفكرة تبدو لي كنوع ماسوشي بديل عن الفهم الذي لا يلزمنا .

شيء واحد يمكن قوله حول الرواية الجديدة ، وهو أن مجال الخيارات الروائية قد تزايد بدرجة كبيرة في العقد الأخير . حدث لي وأنا أكتب هذا المقال اني انتقلت في استشهاداتي ، دون اكراه ، بين الأشكال الطويلة والقصيرة للرواية ، وهذا في حد ذاته اتجاه لاعتبار الأشكال القصيرة بنفس أهمية الرواية الطويلة ، وذلك نتيجة لأعمال كتاب مثل بورخس ولاندولفي ودسته آخرين ، حيث استطعنا التكلم بالتبادل عن الأشكال القصيرة والطويلة كمعروضات في سلسلة كاملة من الامكانيات الخيالية بدلا من الحديث عن أنواع مختلفة محددة منفصلة ذات أساليب متنوعة .

ثلاث قوى تصادف أن عملت على زيادة مدى الامكانية الخيالية في العقد الأخير: التعب من الأشكال الحدائية التقليدية (رواية التحلي الاعتماد على الرمزية الثقيلة العبارة والخاصة ، كل هذا وترابطه

مع الاستبطان والرجوع الى الحساسية) ، ثم تأثير عدة شخصيات متفردة ،
وأخيرا التأهيل الأكاديمي لمعظم كتاب الرواية الجديدة .

مع تآكل الأشكال الروائية الحديثة ، رأينا رواج Borge s ونجاح جاس ، وتحول كتاب من تحت الأرض الى العلانية مثل براوتيجان ،
الاهتمام الأمريكي بالأعمال الفرنسية المتميزة ، ظهور شخصية كنورمان
ميلر ، أشرطة التسجيل التي أعدها مجموعة بارزة من الباحثين والصحفيين
لمجموعة من النماذج المرموقة التي وسعت حدود الخيال من توم والف الى
تيركل الى أوسكار لويس .

في عدد حديث من مجلة « ترى كوارترلى » نشر عمل بعنوان « مدن
مهجورة » لجاك أندرسون Jack Anderson يتكون من أربعة مداخل ،
وهو وصف ساخر لمدن أربع ، أحدها ، وعنوانه : « بسمارك - شمال
داكوتا » يبدأ بالشكل التالي :

« مدينة لا توجد فيها ضواح . الشوارع تنتهي في حقول القمح ،
حيث الخوذ الحديدية موضوعة على عصي سوداء لاختافة النسور . وراء
هذه النقطة نبدأ الرياح ، صعب تجنبها كصعوبة تجنب ألم المعدة . يخاف
سكان المدينة دائما شيئين : الجفاف والصقيع » .

قبل تآكل الأشكال الروائية الحديثة ، وقبل الاهتمام بدسته من
المؤلفين قاموا بكتابة ما نظن ان الرواية يجب أن تكتب عليه ، لم تدر مجلة
واحدة ماذا تفعل برواية « مدن مهجورة » ، ولم يعرف قارئ كيفية
الاستجابة لها ، ولم يكن مؤلفها يعرف بأنها يمكن أن تكتب .

انه التأهيل الأكاديمي ، وتربط العديد من الروائيين الجدد ، الذي
جعل الأمر صعبا في الوصول الى الاصطلاح المناسب . فالتعصب للقديم
قد توقف ، وفكرنا ، برغم كل الشواهد التي تشير الى العكس ، ان هناك
شيئا ما في التعليم الأكاديمي متضاربا ، يعارض خيال الكاتب ، شيئا
معيقا ، قاتلا ، يصيب المرء بالتخمة . ان الأكاديميين منا ما زالت تنتابهم
النشوة من الصورة الخافتة ، لكنها ما زالت مفعمة بالحياة ، لديلان
توماس وهو يروي القصص البذيئة الى فتيان « برن ماور » . افترض
متطلعا الى ماضينا الأدبي ، أنه لو تقلد درايزر أو كريس أو بيرس أو أى
من كتابنا المنحدرين من الهنود الحمر ، منصبا جامعا ، لحدث شيء مدمر ،
لكن من الذى يستطيع أن يحكم ان تولى منصب أستاذ للأدب الانجليزى
أو للكتابة الإبداعية كان سيقودهم الى كتابة أعمال أسوأ من التي كتبوها .

من الأمثلة الثلاثة التي اخترناها ، فان كوفر عمل داخل وخارج المجال الأكاديمي ، أما بروانيجان وبارثيلم فلم يعملوا في المجال الأكاديمي منذ ظهورهما ككتاب ، برعم ان براونيجان أكر نقابه مما يحاول ان يبدو عليه ، وبارثيلم واحد من أكثر المؤلفين قراءة للكتب وقد اشهر بذلك في الولايات المتحدة . عدد كبير من كتابنا الأكثر جرأة وإثارة يعملون بالتدريس : جون بارث ، جويس كارول أوتس جون هوكس ، وليام جاس ، جون جاردنر ، هؤلاء الكتاب ، عاجلا أو آجلا ، اذا كان الواحد منهم يحترم وظيفته ، فسيقوم بتدريس كتاب لا يتوافق معه ، وعليه أن يشرحه وينحدث عن مشاكل الصنعة الروائية التي لا يحسها في عمله الخاص ، ولكن الآخرين أحسوها ، وسيواجهه طلبته بأسئلة فضولية تخصهم وحدهم ، وسيعرف ان الامكانيات الشكلية الأنجلو - أمريكية محدودة بشكل مرعب ، وسيعلم أن الفرنسيين مثلا ، لديهم منذ وقت طويل ، أنواع من الكتابات تسمى المحفوظات ، بها مقولات شاملة رائعة ، أقرتها الجهات الثقافية الرسمية ، من خلالها يمكن للمرء أن يتعلم كتابة : القصائد النثرية ، التأملات ، الخرافات ، الاعترافات ، الفواصل الاستبطانية ، وعدد من الأشياء غير العادية ، لا نملك مثلها عندنا . ان فكرة أن الاندماج بتعليم الأدب هي عملية مدمرة لفن الكاتب تبدو لي محالة وغير معقولة ، أما ألها تضع فرقا بين كتاب الرواية الجديدة ، خاصة في تضخيم احساسهم باختيار الشكل ، فذلك لا يمكن انكاره .

من المؤسف أن بعض الأسئلة الصعبة حول الامكانيات الخاصة بالشكل الروائي . ما زال يجب علينا أن نسألها في وقت تتزايد فيه سوء سمعة الشكلانية . سيساعدنا لو أن أحدا عمل للشكلانية . ما عمله مرة أو . و . لوف جوى A. O. Iovejoy للرومانسية ، أن يفرق ويميز المعاني العديدة التي تستخدم فيها الكلمة .

أما ما لا نحتاجه فهو نقد الرواية الجديدة كتكنيك صاف ، منزوعة من محيطها النقابي ، تقرا ، وتشرح . وتستهلك كقصيدة ميتافيزيقية ، وما لا نحتاجه أيضا هو هذا النقد الكثير الذي يستخدم الرواية كعرض في لوحة تاريخية ، وأن الرواية الجديدة هي نهاية لشيء ما أو بداية لشيء آخر ، أو كعنصر في حركة دائرية ، أو شاهد على انتصار مبدأ تاريخي أو هزيمة مبدأ آخر .

ما نحتاجه بالفعل هو علم جمال للرواية الجديدة .

وكخطوة نحو هذه الجماليات ، أعرض المسلمات التالية :

١ - برغم أن الرواية الجديدة غير تقليدية بشكل عدواني ، إلا أنها تظهر صراعا أقل مع تقاليد النشر الروائي من أى اتجاه روائي آخر منذ نشأة الرواية :

فكل خيال حقيقى له رد فعل ضد بعض الجوانب من الخيال السابق عليه ، فسرفانتيس ضد الرومانسية ، وفيلدنج ضد مدرسة ريتشاردسون المبكرة ، وثاكرى ضد مدرسة الشوكة الذهبية ، وفرجينيا وولف ضد الواقعيين المتأخرين ، هناك الكثير فى رواية الماضى ، اختار كتاب الرواية الجديدة ألا يحاكوه ، لكن الغريب أن صراع الرواية غير التقليدية بكل حجمها ، قليل جدا مع الرواية التقليدية ، فلم تجادل ضدها ، أو تسخر منها أو تنكرها أو تحاول تغييرها وتذليلها ، الرواية الجديدة ، أكثر من أية رواية أخرى منذ سرفانتيس ، تختار وهى واعية بذاتها أن تفترق عن التقاليد دون استثمار لهذا الرحيل بأية دعوة خاصة ، ودون أن تجعل فعل المفارقة نقطة بداية جديدة بالطريقة المعتادة التى أنعشت بحيوية سرفانتيس وفيلدنج وجين أوستن وفلوبير وهمنجواى ومئات آخرين .

٢ - الرواية الجديدة أول نوع روائي فى تاريخ الرواية ، يبحث بوعى عن جمهور خاص ، وتحاول تأسيس جماعة ذات حساسية خاصة بشكل محدود ومتعمد :

انه قدر الرواية أن تكون شكلا أدبيا للطبقة الوسطى ، فى الوقت الذى تكون فيه غير واعية بذلك . لا يوجد روائي كلاسيكى يخاطب طبقة معينة أو فترة تاريخية معينة أو مكانا معينة ، كل هم المؤلف أن تكون كتبه واقعية، ليست واقعية طبقة عليا خاصة، أو واقعية محاطة بمكان وزمان ، بهذا المعنى كان عمل الروائيين الكلاسيكيين يوجه لكل فرد ، فى أى مكان ، لزمانه ولزمان ذريته ، حتى أولئك الروائيون الذين يبدوون لنا مرتبطين بطبقة خاصة مثل ميرديث أو هنرى جيمس . لم يعرفوا ذلك ولم يدركوا أن الحقيقة فى كتبهم كانت نوعية وجزئية ومحدودة . عدد قليل جدا فقط - مثل رونالد فربانك - كان يكتب الى جمهور معين لمعرفته بحساسية هذا الجمهور الغريبة . من الروائيين الحدائين الأكبر سنا ، مثل بورخس وكورتازار ولاندولفى واندريسون امبرت ، فان لديهم حساسية غريبة دقيقة تتجه لجمهور له نفس هذه الحساسية . وعند الكتاب الأمريكين مثل بارث وهيلر وبينشون وجاس يوسعون الظاهرة وليسوا كتابا لزمرة معينة كفربانك مثلا ، لكنهم يدركون أن الحقيقة التى يعبرون عنها جزئية ، ورؤيتهم غريبة وجمهورهم محدود .

٣ - الرواية الجديدة تركز الميل غالباً • أكثر من أية رواية فى أية فترة كى تتمثل الفن الردى، فى عصرها وتعيد إنتاجه :

ويليك Wellek ووارين Warren وضعاً لهذا المبدأ ، واشتقاقه من الشكلايين الروس • ويلخصان ذلك بقولهما : « يعتبر شكوففسكى Shklovsky ، وهو أحد الشكلايين الروس ، ان الأسكال الفنية الجديدة ما هى الا إعادة صياغة الأنواع الرديئة من الفن • فروايات ديستوففسكى ما هى الا سلسلة من روايات الجريمة المحترمة المبجلة باحساس خاص ، أناشيد بوشكين جاءت من مجموعات الألبومات الشعبية ، قصائد بلوك Blok من الاغانى الغجرية ، وأشعار مايكوففسكى من شعر المجلات الساخر » .

برتولد بريشت فى المانيا ، وأودن Aoden كلاهما قام بمحاولة متعمدة لتحويل الشعر الشعبى الى أدب جاد • ويستدعى هذا وجهة النظر القائلة بأن الأدب يحتاج لكى يجدد نفسه الى العودة الى البربرية • حين نقرأ جويس نستمتع بتمثله الأغانى الشعبية وعناوين الصحف والكراسات الدينية ، والخيال البورنوграфى فى عوليس ، وقد تقرأ جيداً الرواية الجديدة ويصيبنا القلق والفرع لأن الفن الردى الذى تمثلته هو فنا الردى الذى اعتاد معظمنا أن يعتبره تهديداً لبقاء عقولنا ، هكذا هى الرواية الجديدة ، خيال أكبر وجراً أكثر ، ولاذعة أكثر مما هى فى الواقع ، لأنها تحنل برحابة صدر مكاناً قال عنه جاس وبارثيلم : « الحافة التى تقود الى ظاهرة الرعاع » .

٤ - الرواية الجديدة تدعم محاولة نادرة فى تاريخ الرواية قبل اليوم ، بتقديم أجزاء من نسيجها خالية من القيمة • ومع أن الرواية الجديدة فى تناقض مع الرواية الحديثة فى بعض جوانبها ، الا أنها تنظر الى هذه النوعية الخالية من القيمة ليس كرمز للأسقاط ، او عدم الإنسانية ، او الغموض الاستعارى • ولا كإشارة لىاس أو العلمية ، ولكن كعمل ايجابى يعبر عن بكاراة التجربة :

فى روايات ريتشاردسون ، المبدأ معروف تماماً ومؤسس بثبات ، معطيات الرواية ، أماكنها ، أشياءها ، أحداثها ، كلها محسوسة ، ترجع الى ريتشاردسون • كما تدركها الشخصيات ، مما يعنى أنها ليست مدركة فقط ولكن تأخذ قيمتها فى العمل الروائى •

وبإيجاز ، فإن كل شئ عند ريتشاردسون له قيمة عند الشخص الذى يراه وينقله إلينا ، هكذا كان الأمر فى الرواية ، أن ترى الشئ يعنى

أن تعطيه درجة ، تفضل أو تستهجن القيمة المعروضة ، احلى طرق كسر هذا الالتزام للقيمة ، أن نجرب بوجهة نظر أخرى ، كما فعل جون دوس باسوس مثلاً ، فى تلك الفقرات التى وصفها فى رواياته لتبدو وثائقية ، غير منتقاة ، مسجلة بآلية ، أو تتبع طريقة أخرى ، وهى أن نرتب عناصر الرواية سلسلة أو بشكل عشوائى ، بحيث تعمل طريقة التقديم على تقليل امكانات القيمة التقليدية ، وهو تكتيك قديم خدم غزارة وحيوية رابيليه ، وسخرية سونيت ، وفوضى ستيرن الترابطية ، وروايات بيكيت هى المحاولة الأكثر ادراكاً وتنفيذاً فى الأدب الحديث ، لتقليل ثبات القيمة فى تركيب الجملة والترتيب التقليدى ، وفى فعل السرد نفسه ، لكن كل ذلك لخدمة رؤيته العدمية .

أما فى الرواية الجديدة ، فالعدمية مازالت موجودة ، لكن لا توجد بنية للقيم من الممكن أن تتحرك فى فراغ بيكيت . الاختلاف هو أن الرواية الآن تملك رفاهية أن تأخذ كقضية مسلمة ، ما كان على الروائيين المحدثين أن يثبتوه . فلا يحتاج كاتب الرواية الجديدة أن يجهد نفسه ليثبت العبث ، أكثر مما كان على الروائي الفيكتوري أن يجهد نفسه ليثبت قيمة أخلاقية مسيحية .

٥ - الرواية الجديدة تقدم بنيتها خالية قدر الامكان من العمق الجمالى والفلسفى :

بمعنى ما ، فإن كل الكتاب تقريباً يقاومون العمق . شخصية جورج فى رواية اشروود Isher Wood « رجل عزب » ، شخصية مدرس للأدب الانجليزى ، يسأل تلاميذه عما تدور حوله رواية لالدوس هكسلى ، ويعلق الراوى « جميعهم تقريباً ، برغم تأهيلهم الأكاديمى ، مازالوا يعتبرون بشدة أن « حوله » هذه عمل ثقافى مضجر . وبالنسبة للأقلية التى اعتنت بمدخل « حول » حتى أصبح طبيعة ثانية لديهم ، فهم يحلمون بأن يكتبوا كتابهم الخاص عن « حول » هذه ، عن أعمال فوكنر أو هنرى جيمس أو كونراد ، مبرهنين ان كل الكتب التى كتبت فى الموضوع من قبل هى عن لا شىء ، هؤلاء أيضاً ظلوا فترة لا ينطقون بشىء » .

ولقد اشتكى روائيون ونقاد كسول بيلو وهارى ليفين وهارى ماكارثى ، من مبسل القراء للبحث عن رموز فيما قرعوه ، حيث لا رموز يقصدها المؤلف ، كل روائى يحترم نفسه مضطراً لمقاومة الطرق التقليدية الآلية لاكتشاف المعنى ، والنسق والمضمير فى أعماله . لا أحد يحتاج لأن يقال له ان الأدب الحديث أدب رمزى ومتعدد المستويات وأنه يدعو المرء

الى التأويل أكثر من أى شىء منذ التلمود ، انها الصفة الوحيدة التى توحد
وبشدة كتابا مختلفين مثل : لورنس ، وتوماس مان وبروك وسسيلين
ومالكولم لورى ، ان قصدهم من استخدام هذا التكنيك الذى يسمح باصدار
أكبر رنين ممكن ، هو تقديم مساحة واسعة من المعنى ، والاصرار فى كل
إشارة على وجود مستويات متعددة من العمق فى النص .

المبدأ المضاد لذلك عبر عنه ويلى سيفير ، فى التباين بين الملاحظة
العلمية الآن والنماذج الكلاسيكية للفكر العلمى « المعطيات هى النسق ،
صلابة مادة الواقع يمكن أو لا يمكن شرحها بالقانون الطبيعى ! ، الأحداث
تقع فالأحداث حقيقية » .

وفى مكان آخر يقول : « الروائى أو الرسام المعاصر يشبه العالم
المعاصر ، فهو يرى أن العادى والمألوف واليومي والسطحي هو الأكثر
غموضا ، وهو المتعذر على الفعل والشرح والطريقة . اللحظة الآتية كافية
فى ذاتها . هذا الإدراك قاد الى تواضع جديدة واحباط جديد ، لو كان
المعنى ظاهرا على السطح فان شرح العمق قد انتفى ، ويصبح الطارئ
والعارض أكثر حقيقة من المطلق والمجرد ، أصبح مشكوكا فى النسق
القديم للمعنى - نيوتن وألبرتى - الروائى والرسام والعالم قصروا لنا
الأطوال . ان تقبل بالطارئ والعارض معناه أن نعترف بلا معقولة
الواضح ، ولستغنى عن الحاجة للحساب المنطقى لكل شىء ، بالسبب
والنتيجة ، بالفعل ورد الفعل .

استقى « سيفير » معظم أمثله من الرواية الفرنسية ، لكن ما قاله
ينطبق بشكل ملحوظ على كتاب الرواية الجديدة من الروائيين الأمريكين،
فمعظمهم يشتركون مع الكتاب الفرنسيين فى كل شىء عدا استهجان
العمق . لا توجد أية قطيعة أوضح من هذه بين الرواية الجديدة وبين كل
من الرواية الحديثة والرواية الفيكتورية المتأخرة . العزم مثبت لأن يكون
الظاهر هو المعنى ، وإمكانية المستوى الرمزى تكون دائما قليلة ، والمعطيات
هى النسق الذى تسير عليه ، وأن لا ندع شيئا بين السطور سوى
المساحات البيضاء كما قال بارثيلم .

٦ - ان الرواية الجديدة تعطى نفسها مساحة واسعة للأخذ من تقاليد
الوهم أكثر من أية رواية أخرى منذ بداية الرواية .

فالرواية الكلاسيكية تتنوع وتختلف فى درجة انتمائها لجماليات
الوهم ، من الدقة الضحلة لزولا ، الى الانطواء الى الداخل وغير المباشرة

لعشرات من الآخرين الذين يمكن أن نضعهم ضمن نوع ما من التطرف .
ان من الصعب أن نتخيل أية رواية كلاسيكية تقدم نفسها الى القارئ ،
أساسا ، على أنها بنية أدبية نفسية ، أو رمزية ، أو أسطورية ، أو أساسا
كرؤية خاصة جدا ، عند قراءة أعمال لأدباء مختلفين مثل سكوت أو هنرى
جيمس أو مدام لافايت أو تولستوى ، نضطر الى القول ، حسب عبارة
ثرولوب « تلك هى الطريقة التى نعيشها الآن » ، أو نقول « تلك هى
الطريقة التى يجب أن نعيش بها » هنا وهناك من وائرلو لليننجراد ومن
بات الى ليما ، أو نقول : « نعم . . تلك هى الطريقة التى لابد أن تبدو عليها
الأشياء . . وما يمكن أن يقوله الناس ويفكروا به » .

من الصعب أن نرى الرواية ، بتركيبتها الكلاسيكية ، يمكن أن
تتجاهل هذا التقليد العام ، دون أن تصبح نثرا آخر لا علاقة له
بالرواية .

فى مقال كتبه ارفنج هاو Irving Howe منذ عدة سنوات
يعنوان « المجتمع ورواية ما بعد الحداثة » ، لاحظ عدم الاهتمام النسبى
بالحقيقة الاجتماعية ، فى الفصول الدراسية والمعاهد المختلفة والطريقة
التي تتميز بها كتابة الرواية آنذاك ، كروايات سسالنجر ، وموريس
وهربرت جولد وسول بيلو ، وكان الأمر عملية قهرية . وما لم يستطع
التنبؤ به هاو فى ذلك الوقت هو درجة البعد عن النبض التقليدى
الروائى ، فالنقص المتزايد فى الاهتمام ليس فقط فى المعاهد وما شابه ،
ولكن فى « صلابة النوع الروائى نفسه » الذى بدا أن الرواية فى حاجة
اليه لتعيش . أحد أسباب ذلك هو احياء الأشكال ما قبل الروائية ،
والأشكال الخرافية ، والأعمال الواقعية الأولية ، التى ظهر صداها كثيرا
فى الرواية الجديدة ، مما سمح لنمو نوع من القوة من الابداع ذاته لا من
الصلابة الواقعية التى تعتمد عليها الرواية فى الأصل . فأصبح بإمكاننا
ان نقرأ صفحات كثيرة لكورتازار ، ولانمولفى ، وبورخس ، وبارت ،
وبارثيلم وكوفر ، ببهجة دائمة وسرور ، من الصنعة المعروضة ،
وباحساس دائم بأن الرواية فى صميم حياة المرء الداخلية ، بشكل غريب ،
ومع ذلك لا يقول ولو مرة واحدة بأن هذا هو الشكل الذى تبدو عليه
الأشياء ، وأن تلك هى الطريقة التى نمضى بها الوقت ، أو التى يتكلم بها
الناس فى الواقع ، أو يعيشون بها .

٧ - وأخيرا فان الرواية الجديدة عموما ، مع بعض الحالات القليلة
السابقة عليها ، تسعى لتقديم فعل الكتابة ، بوضوح وثبات ،
كنوع من اللعب .

فى روايات فيلدينج أو جين أوستن أو ديكنز أو تاكرى فان فعل التأليف يقدم الينا بشكل يبدو فيه ممتعا وصعبا ، عملا كاللعب لكن مؤلفه يحمل مسئولية أخلاقية ثقيلة • وبلا شك أن المتعة تابعة للعمل الشاق ، وأن نشاطات الابداع ، وفرحة الخلق ، دائما أقل اعتبارا من العمل الصعب لتأليف كتاب كبير حول موضوع جمالى واضح ، وأن المؤلف يشعر بالمسئولية الثقيلة نحو جمهوره ونحو الأدب نفسه كمؤسسة ثقافية • لو أن الرواية اخترعها فارس مختال ، وشاعر من القرن السابع عشر ، أو كان خبج الزاوية لتقاليدها العظيمة كتسابا مثل رايبليه أو بترونيوس ، لاستطاعت أن تتخلص من حملها الثقيل المتمثل فى الجدية ، سواء العبء الأخلاقى أو المهنى ، ولأصبحت اختراعا لتزكية النفس ، ومقياسا كبيرا للمتعة ، ولم يكن آنذاك ضروريا لفلوبير أن يعمل بالصعوبة التى عمل بها ، وأن يخبرنا بأنه عمل بصعوبة لجرح البرخوازية بلا رحمة ، وبأن سم مدام بوفارى أثر على حيويته ، وأنه كان يجب عليه أن يعرق فى كل كلمة كتبها •

بينما الرواية الجديدة ، من جهة أخرى ، ترقى باللعب لتجعله فى مركز الدوافع الراضحة التى تنهى العمل وتنمشه • ان « جون بارث » مثلا يفضل علنة أشياء فى أية رواية من رواياته : يفكر ، ويكد ، بشكل ويأمل ، يستسلم ويبدأ ثانية ، يخطط ، يتوقع ، يتعلم ، يقلد ، ويحاول ألا يقلد • لن يدغشنى ، ولن يدغش أحدا ، أن تقول له العصفورة ، ان بارث لا يكتب ، وانه فى حالة يأس ، وقد استنفدت طاقته الكتابية ، أوجد شك فى أن كتابة الرواية بالنسبة لبارث هى فى أصلها فعل من اللعب ! قد يختلف المرء مع بعض تفاصيل كتاب روبرت سكولز « صانعو الخرافة » ، ولكنى لا أختلف اطلاقا مع المعطيات التى يقدمها •

ان الرواية الجديدة يمكن تمييزها عن الرواية القديمة على أسس استخدامها الخرافة ، واستعدادها أن تسمح لفعل الخلق بإبراز وعى الذات ، وأن تستغل ذلك الفعل بحب ، وباحساس باللعب ، وكاختراع من أجل الابداع ذاته ، من أجل المتعة •

المشاركون في الكتاب :

Malcolm Bradbury

— مالكولم برادبرى

ولد فى شيفيلد سنة ١٩٣٢ ، درس فى جامعات ليسستر وكوين
مارى ولندن ومانشيسستر وانديانا وييل . قام بالعمل فى جامعة هل من
٥٩ - ٦١ ، ثم أصبح محاضرا للغة الانجليزية فى جامعة برمنجهام ،
وأصبح سنة ١٩٧٠ أستاذا للدراسات الأمريكية .

- من كتبه : — ايغلين هو ١٩٦٢ .
- — ما هى الرواية سنة ١٩٦٩ .
- — السياق الاجتماعى فى الادب الانجليزى الحديث ١٩٧١ .
- — امكانات : مقالات عن الوضع الروائى ١٩٧٢ .
- — الحداثة ١٩٧٦ وقد ترجم الى اللغة العربية عن وزارة الثقافة
العراقية .
- ومن رواياته : الاتجاه غربا ١٩٦٥ ، الرجل التاريخى ١٩٧٥ .



Iris Murdoch

— ايريس ميردوخ

ولدت فى دبلن سنة ١٩١٩ ، تلقت تعليمها فى جامعتى اكسفورد
وكامبردج ، وكانت استاذة للفلسفة قبل أن تتفرغ للكتابة ، ووائية من
مؤلفاتها :

- تحت الشبكة ١٩٥٤ ترجمة الى العربية عن دار الآداب / بيروت
- الجرس ١٩٥٨ ترجمة الى العربية عن دار الآداب / بيروت
- حلم برونو ١٩٦٩ ترجمة الى العربية عن دار الآداب / بيروت
- الفتاة الايطالية ١٩٦٤ ترجمة الى العربية عن دار الآداب/بيروت
- الأمير الأسود ١٩٧٣

• هنرى وكاثو ١٩٧٦ •

• وخمس عشرة رواية أخرى •

كما كتبت كتابا نقديا بعنوان : سارتر ورومانسيا وعقليا ، وقد
ترجم أيضا الى اللغة العربية •

* * *

Philip Roth

— فيليب روث

ولد في ولاية نيوجرسي في الولايات المتحدة سنة ١٩٣٣ ، من
أصل يهودى ، ويعتبر الآن أحد أهم الروائيين فى أمريكا والعالم ، بدأ
حياته الأدبية باصدار مجموعة قصصية بعنوان « وداعا كولمبس »
سنة ١٩٥٩ •

من رواياته :

• دعوة للذهاب ١٩٦٢ •

• عقدة بورتنوى ١٩٦٧ •

• عصابةنا ١٩٧١ •

• حياتى كرجل ١٩٧٤ •

• « الشئى » ١٩٧٦ وقد ترجمت الى العربية •

• أستاذ الرغبة ١٩٧٧ •

• حياة مضادة ١٩٨٦ •

* * *

Michel Butor

— ميشيل بوتور

ولد فى فرنسا سنة ١٩٢٦ ، درس الفلسفة فى السوربون ، وقام
بالتدريس فى العديد من البلاد •

من رواياته :

• الزمن الذى يضى ١٩٥٧ •

• التغير ١٩٥٧ •

• درجات ١٩٦٠ •

وكتاب : بحوث فى الرواية الجديدة ١٩٦٨ وقد ترجم الى اللغة العربية .

Saul Bellow

— سول بيلو

ولد فى كويبيك بكندا سنة ١٩١٥ من عائلة يهودية مهاجرة الى هناك ، انتقلت عائلته الى شيكاغو وهو فى التاسعة ، ودرس فى جامعتى نورث ويسترن ووسكنسون فى شيكاغو ، حصل على جائزة نوبل فى الأدب سنة ١٩٧٦ .

من رواياته :

- المتأرجع ١٩٤٤ .
- الضحية ١٩٤٧ .
- مغامرات أوجى مارش ١٩٥٣ .
- هندرسون ملك الأمطار ١٩٥٩ .
- هيرزوج ١٩٦٤ .
- كوكب السيد ساملر ١٩٧١ .
- هدية هامبولدت ١٩٧٥ . يكتب أيضا المسرحية والقصة القصيرة والمقال .

John Barth

— جون بارث

ولد سنة ١٩٣٠ فى ميرلند فى الولايات المتحدة ، تلقى تعليمه فى جامعة بنسلفانيا . وعمل بالتدريس فى جامعتى بافالو وجون هوبكنز .

من رواياته :

- الأوبرا العائمة ١٩٥٦ .
- نهاية الطريق ١٩٥٨ .
- وكيل الأعشاب المخدرة ١٩٦٨ .
- راعى غنم جايلز ١٩٦٦ .

- ضائع فى بيت المتعة ١٩٦٨
- كاميرا ١٩٧٢

David Lodge

— ديفيد لودج

- ولد فى انجلترا سنة ١٩٣٥ ، درس فى جامعة لندن ، وعمل استاذ
للأدب الانجليزى فى جامعة برمنجهام .
- ناقد وروائى .
- من أعماله :
- رواد السينما ١٩٦٠
 - جنجر ١٩٦٢
 - المتحف الانجليزى ينهار ١٩٦٥
 - لا مأوى ١٩٦٧
 - أماكن متغيرة ١٩٧٥
 - لغة الرواية ١٩٦٦
 - الروائى فى مفترق الطرق ١٩٧١

Frank Kermod

— فرانك كيرمود :

- ناقد متخصص فى عصر النهضة والأدب الحديث . قام بالتدريس
فى منشيستر وبريستول ولندن ولورد نورثكليف ، وحاضر فى عدد من
الجامعات فى أمريكا وكندا .
- من كتبه :
- الصورة الرومانسية ١٩٥٧
 - الاحساس بالنهاية ١٩٦٧
 - مقالات حديثة ١٩٧١
 - ميلتون الحى . .

John Fowles

— جون فاولز

ولد في إنجلترا سنة ١٩٢٦ ، درس الفرنسية في أكسفورد ، خدم
في البحرية الملكية الانجليزية ، متفرغ للكتابة ،

من رواياته :

- جامع الفراشات ١٩٦٣ ترجمت الى العربية عن دار الهلال
- الساحر ١٩٦٦ • ترجمت أيضا الى العربية عن دار الهلال
- عشيق الضابط الفرنسي ١٩٦٩
- البرج العاجي مجموعة قصصية ١٩٧٤
- دانيال مارتن ١٩٧٧

★★★

Bryan Stanelly Johnson

— ب • س • جونسون

ولد سنة ١٩٣٣ في هامر سميث ، تلقى تعليمه في الكلية الملكية في
لندن • يكتب الشعر بالإضافة الى الرواية ، وعمل مخرجا بالتلفزيون •
انتحر سنة ١٩٧٣

من أعماله :

- المسافرين ١٩٦٣
- البرت انجيلو ١٩٦٤
- شبكة الصيد ١٩٦٦
- التعساء ١٩٦٨
- بيت الأم عادية ١٩٧١
- كل امرئ يعرف شخصا ميتا ١٩٧٣

Doris Lessing

— دوريس ليسينج

ولدت في إيران سنة ١٩١٩ ، عاشت في روديسيا الجنوبية من
١٩٢٩ - ١٩٤٩ حيث انتقلت الى إنجلترا بعد ذلك • نشرت العديد من
الروايات والمسرحيات والقصص القصيرة •

الرواية - ١٩٣

من أعمالها :

- العشب يغنى ١٩٥٠ • وقد ترجمت الى العربية •
- أطفال العنف ١٩٥٣ •
- المفكرة الذهبية ١٩٦٢ •
- تقرير للنزول الى الجحيم ١٩٧١ •



Philip Stevick

— فيليب ستيڤيك

- ناقد متميز وعمل أستاذًا للأدب في عدة جامعات •
- من أعماله :

- فصل في الرواية ١٩٧٠ •
- نظرية الرواية ١٩٦٧ •
- القصة المضادة ١٩٧١ •



اقرأ في هذه السلسلة

برتراند رسل	احلام الاعلام وقصص اخرى
ي . رادونسكايا	الالكترونيات والحياة الحديثة
الدس هكسلي	نقطة مقابل نقطة
ت . و . فريمان	الجغرافيا في مائة عام
رايموند وليامز	الثقافة والمجتمع
ر . ج . فوربس	تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ ج)
ليسترديل راى	الارض الغامضة
والتر الن	الرواية الانجليزية
لويس فارجاس	المرشد الى فن المسرح
فرانسوا دumas	آلهة مصر
د . قدرى حفنى وآخرون	الانسان المصرى على الشاشة
اولج فولكف	القاهرة مدينة الف ليلة وليلة
هاشم النحاس	الهوية القومية فى السينما العربية
ديفيد وليام ماكدوال	مجموعات النقود
عزيز الشنوان	الموسيقى - تعبير نغمى - ومنطق
د . محسن جاسم الموسوى	عصر الرواية - مقال فى النوع الادبى
اشراف س . بى . كوكس	ديلان توماس
جون لويس	الانسان ذلك الكائن الفريد
جول ويست	الرواية الحديثة
د . عبد المعطى شعراوى	المسرح المصرى المعاصر
انور المعداوى	على محصود طه
بيل شول أدبنيث	القوة النفسية للأهرام
د . صفاء خلوصى	فن الترجمة
رالف ثى ماتلو	تولستوى
فيكتور برومبير	سستندال

رسائل واحاديث من المنفى	فيكتور هوجو
الجزء والكل (مصاورات في هندسة)	
الفيزياء الذرية (فيرنز هيزنبرج
التراث الغامض ماركس والماركسيون	سسدني هوك
فن الادب الروائي عند تولستوى	ف . ع . ا . انديكوف
ادب الاطفال	هادى نعمان الهيتى
احمد حسن الزيات	د . نعمة رحيم العزاوى
اعلام العرب فى الكيمياء	د . فاضل احمد الطائى
فكرة المسرح	جلال العشرى
الجحيم	هنرى باربوس
صنع القرار السياسى	السيد عليوة
التطور الحضارى للانسان	جاكوب برونوفسكى
هل نستطيع تعليم الاخلاق للأطفال	د . روجر ستروجران
تربية الدواجن	كاتى ثير
الموتى وعالمهم فى مصر القديمة	ا . سبنسر
التصل والطب	د . ناعوم بيتروفيتش
سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى	جوزيف دامموس
سياسة الولايات المتحدة الامريكية ازاء	
مصر ١٨٣٠ - ١٩١٤	د . لينوار تشامبرز رايت
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة	د . جون شندلر
الصحافة	بيير البير
اثر الكوميديا الالهية لداقنى فى الفن	د . غبريال وهبة
التشكيلى	
الادب الروسى قبل الثورة البلشفية	
وبعدها	د . رمسيس عوض
حركة عدم الانحياز فى عالم متغير	د . محمد نعمان جلال
الفكر الاوروبى الحديث (٤ ج)	فرانكلين ل . باومر
الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى	
١٨٨٥ - ١٩٨٥	شوكت الربيعى
القتلثة الاسرية والابناء الصغار	د . محيى الدين احمد حسين

نظريات الفيلم الكبرى	ج . دادلى أندرو
مختارات من الأدب القصصى	جوزيف كونراد
الحياة فى الكون كيف نشأت وأين توجد د . جوهان دورشز	طائفة من العلماء الأمريكىين
حرب الفضاء	د . السيد عليوة
ادارة الصراعات الدولية	د . مصطفى عنانى
الميكروكمبيوتر	صبرى الفضل
مختارات من الأدب اليابانى	فرانكلين ل . باومر
الفكر الأوروبى الحديث ٢ ج	جابريل باير
تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة	انطونى دى كرسبنى
اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة	دوايت سوين
كتابة السيناريو للسينما	زافيلسكى ف . س
الزمن وقياسه	ابراهيم القرضاوى
أجهزة تكييف للهواء	بيتسر رداى
الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى	جوزيف داهموس
سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى	س . م بورا
التجربة اليسوتائية	د . عاصم محمد رزق
مراكز الصناعة فى مصر الاسلامية	رونالد د . سمبسون
المعلم والطلاب والمصادر	ونورمان د . اندرسون
الشارع المصرى والفكر	د . أنور عبد الملك
حوار حول التنمية الاقتصادية	ولت وثمان روستو
تبسيط الكيمياء	فريد س هيس
العادات والتقاليد المصرية	جون بوركهارت
التذوق السينمائى	آلان كاسسبيار
التخطيط السياسى	سامى عبد المعطى
البسذور الكويتية	فريد هويل
دراما الشاشة (٢ ج)	شانرا ويكراما ماسينج
الهيرويين والايدز	حسين حلمى المهندس
نجيب محفوظ على الشاشة	روى روبرتسون
مسور افريقية	هاشم النحاس
	دوركاس ماكينتوك

بيتسر لورى
 بوريس فيدروفيتش سيرجيف
 ويليام بينز
 ديفيد الدرتون
 جمعها : جون ر . بورر
 وميلتون جولد ينجر
 أرنولد توينبى
 د . صالح رضا
 م . ه . كنج وآخرون
 جورج جاموف
 د . السيد طه أبو سديرة
 جاليليو جاليليه
 اريك موريس و آلان هو
 سيريل الدريد
 آرثر كيستلر
 توماس ا . هاريس
 مجموعة من الباحثين
 روى أرمز
 ناجاي متشيو
 بول هاريسون
 ميخائيل اليبى ، جيمس لفلوك
 فيكتور مورجان
 اعداد محمد كمال اسماعيل
 الفردوسى الطوسى
 بيرتون بورتر
 جاك كرابس جونيور

المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية
 وظائف الأعضاء من الالف الى الياء
 الهندسة الوراثية
 تربية أسماك الزيتة
 الفلسفة وقضايا العصر (٣ ج)
 الفكر التاريخى عند الاغريق
 قضايا وملامح الفن التشكيلى
 التغذية فى البلدان النامية
 بداية بلا نهاية
 الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية
 حوار حول النظامين الرئيسيين
 للكسون
 الارهاب
 اختاتون
 القبيلة الثالثة عشرة
 التوافق النفسى
 الدليل الجيولوجى
 لغة الصورة
 الثورة الاصلاحية فى اليابان
 العالم الثالث غدا
 الانتقراض الكبير
 تاريخ النقود
 التحليل والتوزيع الاوركستراالى
 الشاهنامة (٢ ج)
 الحياة الكريمة (٢ ج)
 كتابة التاريخ فى مصر

عن النقد السينمائي الأمريكي
 ترانيم زرادشت
 السينما العربية
 دليل تنظيم المتاحف
 سقوط المطر وقصص أخرى
 جماليات فن الاخراج
 التاريخ من شتى جوانبه (٣ ج)
 الحملة الصليبية الأولى
 التمثيل للسينما والتلفزيون
 العثمانيون في أوروبا
 صناعات الخلود
 الكنائس القبطية القديمة في مصر (٢ ج)
 رحلات فارتيما
 انهم يصنعون البشر ٢ ج
 في النقد السينمائي الفرنسي
 السينما الخيالية
 السلطة والفرد
 الأزهر في ألف عام
 رواد الفلسفة الحديثة
 سفر ثامة
 مصر الرومانية
 كتابة التاريخ في مصر القرن التاسع عشر
 الاتصال والهيمنة الثقافية
 مختارات من الأدب الآسيوية
 كتب غيرت الفكر الانساني (٣ ج)
 الشموس المتفجرة
 مدخل الى علم اللغة
 حديث النهر
 من هم القتل

ادوارد ميرى
 اختيار / د. فيليب عطية
 اعداد / موني براح وآخرون
 ادامز فيليب
 نادين جورديمر وآخرون
 زيجمونت هبتر
 ستيفن أوزمنت
 جوناثان ريلي سميث
 توني هار
 بول كولنر
 موريس بير براير
 الفريد ج. بتلر
 رودريجو فارتيما
 فانس بكارد
 اختيار / د. رفيق الصبان
 بيتر نيكوللز
 برتراند راسسل
 بيارد دودج
 ريتشارد شاخست
 ناصر خسرو علوى
 نفتالى لويس
 جاك كرابس جونيور
 هربرت شيلر
 اختيار / صبرى الفضل
 احمد محمد الشنواني
 اسحق عظيموف
 لوريتو تود
 اعداد / سوريال عبد الملك
 ابرار كريم الله

اعداد/ جابر محمد الجزار	ماستريخت
هـ ٠ بـ ٠ ولز	معالم تاريخ الانسانية (٤ ج)
ستيفن رانسيمان	الحملات الصليبية
جوستاف جرونيياوم	حضارة الاسلام
ريتشارد ف ٠ بيرتون	رحلة بيرتون ٣ ج
ادمز متز	الحضارة الاسلامية
ارنولد جسنل	الطفل ٢ ج
بادي اونيمود	أفريقيا الطريق الآخر
فيليب عطية	السحر والعلم والدين
جلال عبد الفتاح	الكون ذلك المجهول
محمد زينهم	تكنولوجيا فن الزجاج
مارتن فان كريفلد	حرب المستقبل
سونداري	الفلسفة الجوهرية
فرانسيس ج ٠ برجيني	الاعلام التطبيقية
ج ٠ كارفيل	تبسيط المفاهيم الهندسية
توماس ليههارت	فن المايم والياتوممايم
الفين توفلر	تحول السلطة
ادوارد وبونو	التفكير المتجدد
كريستيان ساليه	السيناريو في السينما الفرنسية
جوزيف ٠ م ٠ بوجز	فن الفرجة على الأفلام
بول وارن	خطايا نظام النجم الأمريكي
جورج ستايز	بين تولستوى ودستوفسكي (٢ ج)
ويليام ه ٠ تبور	ما هي الجيولوجيا
جاري ب ٠ ناشي	الاحمر والبيض والسود
ستالين جين سولومون	انواع الفيلم الأمريكي
اعداد محمود سامي عطا الله	الفيلم التسجيلي
يانكولا فرين	الرومانتيكية والواقعية

هذه مجموعة دراسات كتبها بعض من أهم النقاد
والروائيين المعاصرين من أمريكا وأوروبا بدوا أنهم كتبوها
بذهن متفتح ومتعاطف حول الوضع الروائي الآن بالإضافة
إلى بضع مقابلات مع روائيين معاصرين حول وضع الرواية
اليوم.

ولكن إذا نظرنا إلى ما قالوه جميعا فإننا نجد أنهم
يقدمون جدلا نقديا مهما وأسرا حول ما وصلت إليه الرواية
وما ثار حولها في السنوات الأخيرة. نحن نعيش في عصر
أضحت فيه الرواية بشكل لافت للنظر أكثر تقلبا وقلقا
وتساؤلا حول ذاتها مما كانت عليه قبل سنوات قليلة ولو
تفحصنا الرواية المعاصرة لوجدنا أن كثيرا من الأسئلة حول
طبيعة السرد ومقوماته الأساسية - دور الحكمة والقصة
وطبيعة الشخصية والعلاقة بين الواقعية والخيال أو
الأسطورة - قد أصبحت في مقدمة الأشياء المثيرة للانتباه.
وفي الواقع فإن الأفكار حول ماهية الرواية أو ما يجب أن
تكون عليه قد تغيرت بشكل ملحوظ في السنوات الأخيرة
بحيث يمكننا القول باطمئنان إن تغيرا جماليا وفنيا قد
حدث، وإن هناك اشارات تقول إن عهدا جديدا ومتميزا
للأسلوب قد بدأ ...

